من روائع الأدب العربي

مختارات من الشعر والنثر

إعداد:
هيثم علي حجازي



من
روائع الأدب العربي

● المؤلف : هيثم علي حجازي

● الكتاب : من روائع الادب العربي / مختارات من الشعر والنثر

● الطبعة : الثانية ١٩٩٠

● الناشر : الاهلية للنشر والتوزيع

هاتـــف : ٦٣٨٦٨٨ - ٦٥٧٤٤٥

ص . ب : ٧٧٧٢

عمان / الاردن

٨١٠،٩ر

من　　من روائع الأدب العربي : مقتطفات من الشعر والنثر / جمع هيثم حجازي .
عمان : المؤلف ، ١٩٨٨

(١٧٦) ص

ر . أ (٦٨٣ / ١١ / ١٩٨٨)

١ - الأدب العربي　　٢ - النصوص الأدبية

أ - العنوان　　ب - هيثم حجازي « جمع »

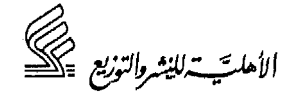
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

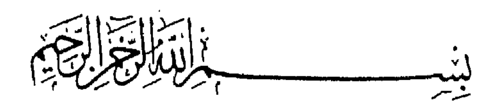
رقم الاجازة المتسلسل ٦٢٢ / ١١ / ١٩٨٨

من روائع الأدب العربي

مختارات من الشعر والنثر

إعداد:
هيثم علي حجازي





مقدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وبعد...

فهذه هي الطبعة الثانية من هذه النصوص النثرية والشعرية ، التي اخترتها من عيون الأدب العربي ، قديمه وحديثه .

وقد أردت من خلال النصوص المختارة من الأدب العربي القديم ، أن يتعرف القارئ على هذا التراث الأدبي العربي ، وأن يتمرس بأساليب القدماء فيصبح على اتصال مباشر ودائم معها ، يفيده في الاطلاع على جوانب متعددة ومختلفة من حياة الآباء والأجداد ، فيجني منها العبرة ، ويأخذ من خلالها الحكمة .

أما النصوص المختارة من الأدب العربي الحديث ، فانها تهدف الى أن يطلع القارئ على الفنون الأدبية الحديثة ، وعلى تطورها ، وان يتذوق هذه النصوص ليقف على مدى تأثرها بالحركة الشعرية العالمية ، وبالتيارات النقدية ، وان يلتصق بأهم أحداث الحياة العربية .

ومن خلال هذا كله ، فان القارئ المتخصص سوف يتمرس بعملية تحليل النصوص النثرية والشعرية تحليلا شاملا ، يتم من خلاله – في النهاية – توظيف معرفته بالقواعد ، وتطبيقها تطبيقاً تاماً .

وقد آثرت أن لا أقوم بشرح معاني الكلمات الواردة في النصوص الا حسب ما تقتضيه الضرورة ، وذلك كي يعتاد القارئ المتخصص العودة الى معاجم اللغــة العربية ، والتمرس في كيفية استخدامها ، وسبر أغوارها .

ولقد كان للتشجيع الذي حظيت به الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ونفادها ، أكبر الأثر في اعادة إصداره بعد تنقيحه ، وإضافة المزيد اليه ، آخذاً بعين الاعتبار تلك الآراء الصائبة التي زودني بها اخواني وزملائي الذين أطلعوا عليه .

والله نسأل أن نكون قد وفقنا في خدمة القاريء ، والتراث العربي معاً .

مـن النثـر العربي القديم

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف بعدما خَذَلَتْهُ ثَقيف

اللّهم إلَيكَ أشْكو ضَعْفَ قُوَّتي ، وقلّةَ حيلَتي ، وَهَواني عَلى النَّاس ، يا أَرْحَمَ الرّاحمينَ ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفينَ وأنْتَ ربّي ، إلى مَنْ تَكلُني ؟ إلى بَعيدٍ يَتَجَهَّمُني ؟ أمْ إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أمْري ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَليَّ غَضَبٌ فَلا أُبالي ، ولكِن عافيَتَكَ أوْسَعُ لي ، أعوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الّذي أشْرَقَتْ لَهُ الظُلُماتُ وصَلُحَ عَلَيْهِ أمْرُ الدُّنيا والآخرة ، مِنْ أنْ تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ ، أوْ يَحِلَّ عَليَّ سُخْطُكَ ، لَكَ العُتْبى حَتّى تَرْضى ، وَلا حولَ وَلا قُوّةَ إلاّ بِكَ .

السيرة النبوية لابن هشام*

* ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، أبو محمد ، جمال الدين : ولد في البصرة ، ونشأ فيها . كان من علماء الانساب واللغة وأخبار العرب ، وتاريخهم . توفي في مصر عام ٨٢٨ م . من آثاره : (السيرة النبوية) وهو ما يعرف بسيرة ابن هشام و (القصائد الحميرية) و (التيجان في ملوك حمير) و (شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب) وغير ذلك كثير .

من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

وَقَدْ رُوِيَ أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، حَمِدَ اللهَ تَعالى وأثنى عليه ، ثمَّ قال :

« أيُّها النـاسُ ، اسْمَعوا قَوْلي ، فإنّي لا أدْري لَعَلّي لا ألقاكُم بَعْدَ عامي هذا بهذا المَوْقِف أبَداً . أيُّهـا النـاسُ ، إنَّ دِمـاءَكُمْ وأمْوالَـكُمْ عَلَـيْكُم حَرامٌ إلى أنْ تَلْقَوا رَبَّكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هـذا ، وَكَحُرْمَـةِ شَهْرِكُمْ هـذا ، وانـكـم سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ ، فَيَسْألُكُمْ عَنْ أعْمـالِـكُمْ ، وقـد بَلَّغْتُ ، فَمَنْ كـانَتْ عِنْدَهُ أمانَةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْها ، وإنَّ كُلَّ رِباً مَوْضـوعٌ ، وَلَكِنْ لَكُم رُؤوسُ أمْوالِكُمْ ، لا تَظْلِمـونَ وَلا تُظْلَمون . قَضى اللهُ أنَّه لا ربا ، وان ربا عبّاس بن عبد المطلب ، مَوْضوعٌ كُلُّه ، وإنَّ كُلَّ دَمٍ كانَ في الجاهِلِيَّةِ مَوْضوعٌ ، وإنَّ أوَّلَ دِمائِكُمْ أضَعُ دَمَ ابْنِ رَبـيعَةَ بن الحارث بن عبد المطلب ، وكانَ مُسْتَرْضَعاً في بَنـي لَيْث ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْـلٌ ، فَهُوَ أوَّلُ مـا أبْدأُ به منْ دماءِ الجاهِلِيَّة . أمَّا بَعْدُ أيُّهـا النـاسُ ، فإنَّ الشَّيْطانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أنْ يُعْبَد بأرْضِكُمْ هذه أبَداً ، ولكنَّهُ إنْ يُطَعْ فيما سوى ذلكَ فَقَدْ رَضِيَ به مِمّا تَحْقِرونَ مِنْ أعْمالِكُم ، فاحْذَروهُ على دينِكُم ، أيُّها الناسُ : إنَّ النَّسيءَ زيادَةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَروا يُحِلّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمونَهُ عاماً ، لِيُواطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلّوا ما حَرَّمَ اللهُ وَيُحَرِّموا ما أحَلَّ اللهُ ، وإنَّ الزَّمانَ قَدْ اسْتَدار كَهَيْئَتِه يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرْضَ ، وإنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً ، مِنْها أرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلاثَةٌ مُتَوالِيَةٌ وَرَجَبُ [1] مُضَر ، الـذي بَيْنَ جُمادى وشَعْبان . أمّا بَعْدُ أيُّها الناس ، فإنَّ لَكُمْ على نِسائِكُمْ حَقّاً ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقّاً ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لا يوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهونَه ، وَعَلَيْهِنَّ أنْ لا يَأتينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَة ، فإنْ فَعَلْنَ فإنَّ اللهَ قَدْ أذِنَ لَكُمْ أنْ تَهْجُروهُنَّ في المَضاجِعِ وَتَضْرِبوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّح ، فإنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْروف ، واسْتَوْصوا بالنِّساءِ خَيْراً ، فإنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوانٍ لا يَمْلِكْنَ لأنْفُسِهِنَّ شَيْئاً ، وانكُمْ إنَّما أخَذْتُموهُنَّ بأمانَةِ اللـه ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُروجَهُنَّ بِكَلِماتِ اللـه ، فاعْقِلوا أيُّها النّاسُ قولي ، فإنّي قَدْ بَلَّغْتُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ فيكُم ما إنْ اعْتَصَمْتُمْ به فَلَنْ تَضِلّوا أبَداً ، أمْراً بَيِّناً ، كتاب الله وَسُنَّةَ نَبيِّه . أيُّها الناسُ ، اسْمَعوا قَوْلي واعْقِلوه ، تَعْلَمُنَّ أنَّ كلَّ مُسْلِمٍ أخٌ لِلْمُسْلِم ، وَ انّ المُسْلِمينَ اخْوَةٌ ، فلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ أخيهِ الاّ ما أعْطاهُ عَنْ طيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ، فلا تَظْلِمنَ أنْفُسَكُمْ ؛ اللّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ »

وَقَدْ ذُكِرَ أنَّ النّاس قالوا : اللّهُمَّ نَعَمْ . فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « اللّهُمَّ اشْهَدْ » .

السيرة النبوية لابن هشام

(١) رجب مضر : انما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان ، وتسميه رجبا ، فبين عليه السلام انه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وانه الذي بين جمادى وشعبان .

ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الإمارة في سقيفة بني ساعدة

الطبري *

حدثنا هشام بن محمد ، عن أبي مِخنف ، قال : حدثني عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي عمرة الانصاري ، ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قُبِضَ اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : نُوَلّي هذا الأمر بعد محمد صلى الله سعدَ بن عبادة ، واخرجوا سعداً اليهم وهو مريض ؛ فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه : إني لا أقْدِرُ لشكواي أن أُسْمِعَ القوم كلهم كلامي ؛ ولكن تَلَقَّ مني قولي فاسمعهموه ؛ فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله ، فيرفع صوته فيسمِع أصحابه ، فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه : يا معشر الأنصار ؛ لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ؛ ان محمداً صلى الله عليه وسلم لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الانداد والاوثان ؛ فما آمن به من قومه الا رجال قليل ؛ وكان ما كانوا يقدرون على ان يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا ان يُعِزّوا دينه ، ولا ان يدفعوا عن أنفسهم ضَيْماً عُمّوا به ، حتى اذا اراد بكم الفضيلة ، ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ، والاعزاز له ولدينه ؛ والجهاد لاعدائه ؛ فكنْتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثْقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها ؛ واعطى البعيدُ المقادة صاغراً داخراً ؛ حتى أثْخَنَ الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ؛ وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ؛ وبكم قرير عين . استَبِدّوا بهذا الأمر فانه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم : أنْ قد وفِّقْتَ في الرأي وأصَبْتَ في القول ، ولن نَعْدُوَ ما رأيت ، ونولّيك هذا الأمر ، فانك فينا مَقْنَعٌ ولصالح المؤمنين رضا . ثم انهم ترادّوا الكلام بينهم ، فقالوا : فإن أبَتْ مهاجرة قريش ، فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ؛ ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ! فقالت طائفة منهم : فإنا نقول إذاً : منا أمير ومنكم أمير ؛ ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : هذا أول الوَهَنْ !

** الطبري هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر . ولد في آمل في طبرستان عام ٨٣٩ م ، واستوطن في بغداد . عرض عليه ان يتولى منصب القضاء ، فرفض ، وانصرف الى التاريخ والتفسير . مات في بغداد عام ٩٢٣ م ، من آثاره : (أخبار الرسل والملوك / ١١ جزءاً) وهو ما يعرف بتاريخ الطبري ، و (جامع البيان في تفسير القرآن / ٣٠ جزءاً) وهو ما يعرف بتفسير الطبري ، و (اختلاف الفقهاء) و (المسترشد) و (جزء في الاعتقاد) و (القراءات) وغير ذلك .

وأتى عمر الخبرُ ، فأقبل الى منزل النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل الى أبي بكر وأبو بكر في الدار وعلي بن ابي طالب عليه السلام دائب في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى أبي بكر أن اخرج الي ، فأرسل اليه : إني مشتغل ؛ فأرسل اليه أنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره ، فخرج اليه ، فقال أما عَلِمْتَ أن الأنصار قد اجتمعتْ في سقيفة بني ساعدة ، يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأَحْسَنهم مقالةً مَن يقول : منا أمير ومن قريش أمير ! فمضيا مسرعين نحوهم ؛ فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فتماشوا اليهم ثلاثتهم ، فلقيهم عاصم بن عدي وعُويم بن ساعدة ، فقالا لهم : ارجعوا فانه لا يكون ما تريدون ، فقالوا : لا نفعل ، فجاءوا وهم مجتمعون . فقال عمر بن الخطاب : أتيناهم – وقد كُنْتُ زوَّرتُ كلاما أردْتُ أن أقوم به فيهم – فلما أن دفعت اليهم ذهبت لأبتدىء المنطق ، فقال لي أبو بكر : رويدا حتى أتكلم ثم انْطِقْ بعد بما أحْبَبْتَ . فنطق ، فقال عمر : فما شيء كنتُ أردتُ أنْ أقوله الاّ وقد أتى به أو زاد عليه .

فقال عبد الله بن عبد الرحمن : فبدأ أبو بكر ، فحمد الله واثنى عليه ؛ ثم قال : إن الله بعث محمداً رسولاً الى خلقه ، وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ؛ يزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ؛ وانما هي من حجر منحوت ، وخشب منجور ، ثم قرأ : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللـه مـا لا يَضُرُّهمْ ولا يَنْفَعُهُمْ وَيَقولونَ هـؤلاء شُفَعَاؤنا عِنْدَ اللـه » وقالوا : « ما نَعْبُدُهُم إلاّ لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى » فعَظُمَ على العرب ان يتركوا دينَ آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والايمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم ؛ وكل الناس لهم مخالف ، زارٍ عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشَنَف الناس لهم ؛ واجماع قومهم عليهم ؛ فهم أول مَن عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول ؛ وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحَقّ الناس بهذا الأمر من بعده ؛ ولا ينازعهم ذلك الا ظالم ، وانتم يا معشر الأنصار ، مَنْ لا يُنْكَر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الاسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جِلَّةُ أزواجه وأصحابه ؛ فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور .

قال : فقام الحباب بن المنذر بن الجموح ، فقال : يا معشر الانصار ، امْلِكوا عليكم امركم ؛ فان الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ؛ ولن يصدر الناس الا عن رأيكم ، انتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، ذوو البأس والنجدة ؛ وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ؛ ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ؛ وينتقض عليكم أمركم ؛ فَإنْ أبى هؤلاء الا ما سمعتم ؛ فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ! والله لا ترضى العرب ان يؤمّروكم ونبيها مِنْ غيركم ؛ ولكن العرب لا تمتنع ان تولّي امرها مَن كانت النبوة فيهم وَوَليُّ أمورهم منهم ؛ ولنا بذلك على مَنْ أبى مِنَ العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ؛ مَنْ ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ،

ونحن اولياؤه وعشيرته الا مُدْلٍ بباطل ، أو متجانف لإثم ، ومتورط في هَلَكة !

فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار امْلِكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ؛ فان أبَوْا عليكم ما سألتموه ، فاجْلوهُمْ عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ؛ فانتم والله أحق بهذا الأمر منهم ؛ فانه بأسيافكم دان لهذا الدين مَن دان ممن لم يكن يدين ؛ انا جُذَيْلُها المحَكَّكْ ، وعُذَيْقُها المرَجَّبْ ! اما والله لئن شئتم لَنُعيدَنَّها جَذَعَةً ؛ فقال عمر : اذاً يقتلك الله ! قال : بل اياك يقتل !

فقال ابو عبيدة : يا معشر الانصار ؛ انكم أوّل مَن نصر وآزر ؛ فلا تكونوا أول مَنْ بدل وغيَّر .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الانصار ؛ إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ؛ ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا ؛ والكدح لأنفسنا ؛ فما ينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ؛ فان الله ولي المنة علينا بذلك ، ألا إنّ محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأوْلى . وايم الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم !

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا ابو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ؛ فانك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ؛ والصلاة أفضل دين المسلمين ؛ فمَن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! ابسُطْ يدك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه ، سبقهما اليه بشير بن سعد ، فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير بن سعد : عَقّتْكَ عَقاق ؛ ما أحْوَجك الى ما صنعتَ انَفِسْتَ على ابن عمك الامارة ! فقال : لا والله ؛ ولكني كرهت أنْ أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيْد بن حضير – وكان أحد النقباء : والله لئن وَليتْها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ؛ ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا ابا بكر . فقاموا اليه فبايعوه ، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجمعوا له من أمرهم .

قال هشام : قال ابو مخنف : فحدثني أبو بكر بن محمد الخزاعي ، أن أسْلَمَ أقبلتْ بجماعتها حتى تضايق بهم السكك ، فبايعوا ابا بكر ، فكان عمر يقول : ما هو الا أنْ رأيْتَ أسْلَمَ ، فأيقنتُ بالنصر .

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال عبدالله بن عبدالرحمن : فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يَطِئون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعدا لا

تَطِئوه ، فقال عمر : اقتلوه قتله الله ! ثم قام على رأسه ، فقال : لقد هممت ان اطأك حتى تُنْدَرَ عضدك ، فأخذ سعد بلحية عمر ، فقال : والله لو حَصَصْتَ منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة ؛ فقال أبو بكر : مهلاً يا عمر ! الرفقُ ها هنا أبْلَغ . فأعرض عنه عمر وقال سعد : أما والله لو أن بي قوة ما ، أقوى على النهوض ، لسمعتَ مني في أقطارها وسككها زئيراً يُجحرك وأصحابك ؛ اما والله اذاً لأُلحقَنَّكَ بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع ! احملوني من هذا المكان ، فحملوه فادخلوه في داره ، وتُرِك أياما ثم بُعِثَ اليه أنْ اقبل فبايع فقد بايَعَ الناسُ وبايَعَ قومك ؛ فقال : اما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي ، وأخْضِب سنان رمحي ، واضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، واقاتلكم بأهل بيتي ومَنْ اطاعني من قومي ؛ فلا أفعل ، وايم الله لو ان الجن اجتمعتْ لكم مع الانس ما بايعتكم ، حتى أُعْرَضَ على ربي ، وأعْلَم ما حسابي .

فلما أُتي أبو بكر بذلك قال له عمر : لا تدعه حتى يبايع . فقال له بشير بن سعد : انه قد لَجَّ وأبى ؛ وليس بمبايعكم حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يُقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ؛ فاتركوه فليس تركه بضاركم ؛ انما هو رجل واحد . فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بَدا لهم منه ؛ فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم ؛ فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله .

حدثنا عبيد الله بن سعد ، قال : حدثنا عمي ، قال : أخبرنا سيف بن عمر ، عن سهل وابي عثمان ، عن الضحاك بن خليفة ، قال : لَمَّا قام الحباب بن المنذر انتضى سيفه ، وقال : انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ؛ انا ابو شبل في عرِّيسة الاسد ، يُعْزى ، إليَّ الأسَدَ . فحامله عمر فضرب يده ، فندر السيف ، فأخذه ثم وثب على سعد ووثبوا على سعد ؛ وتتابع القوم على البيعة ؛ وبايع سعد ؛ وكانت فلتة كَفَلَتات الجاهلية ؛ قام ابو بكر دونها . وقال قائل حين اوطىء سعد : قتلتم سعداً ، فقال عمر : قتله الله ! انه منافق ، واعترض عمرَ بالسيف صخرةٌ فقطعه .

حدثنا عبيد الله بن سعد ، قال : حدثني عمي يعقوب ، قال : حدثنا سيف ، عن مبشر ، عن جابر ، قال : قال سعد بن عبادة يومئذ لابي بكر : انكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الامارة ؛ وانك وقومي اجبرتموني على البيعة ، فقالوا : إنَّا لو أجبرناك على الفُرقة فَصرْتَ الى الجماعة كُنْتَ في سعة ؛ ولكنا أجبرنا على الجماعة ، فلا إقالة فيها ؛ لئن نزعتَ يداً مِنْ طاعة ، أو فَرَّقْتَ جماعة ، لَنَضْرِبَنَّ الذي فيه عيناك .

تاريخ الطبري

خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح افريقية

ابن عبد ربه الاندلسي*

قدم عبد الله بن الزبير** على عثمان بن عفان بفتح افريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الوقعة . فأعْجَبَ عثمانَ ما سمع منه ، فقال له : يا بني ، أتقومُ بمثل هذا الكلام في الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أهْيَب لك مني لهم . فقام عثمان في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، ان الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها ان شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير الى جانب المنبر ، فقام خطيباً ، وكان أول مَنْ خطب الى جانب المنبر، فقال : الحمد لله الذي ألّفَ بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذي لا تُجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمّد نفسه ، وكما هو أهْله ، انتخَبَ محمداً صلى الله عليه وسلم فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعْواناً ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وعَزّروه وَوَقّروه ، وجاهَدوا في الله حق جهاده ، فاستُشْهد لله منهم من استشهد ، على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقي منهم من بَقي ، لا تأخذهم في الله لومة لائم . ايها الناس : رحمكم الله إنّا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبْرَدَيْن ، ويخفض بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملا ، يعجل الرحلة من المنزل الجدْب ، ويطيل اللُّبث في المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا ، حتى انتهينا الى افريقية ، فنزلنا منها بحيث يسمعون صهيل الخيل ، ورغاء الابل ، وقعقعة السلاح . فأقمنا اياما نُجِمُّ كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الاسلام والدخول فيه ، فأبْعدوا منه ؛ فسألناهم الجزية عن صَغارٍ، أو الصلح ، فكانت هذه أبْعَد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نَتَأنّاهم ، وتختلف رُسُلُنا اليهم . فلما يَئِسَ منهم ، قام خطيبا فحمد الله ، واثنى عليه ، وذكر

---

* ابن عبد ربه الاندلسي : هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم وهو من أهل قرطبة . ولد عام ٨٦٠ م ، وكان شاعراً مذكوراً . اشتغل بالأدب وألف كتابه (العقد) الذي يعد من أشهر كتب الأدب ، وقد أضاف المتأخرون اليه كلمة (الفريد) . أصيب بالفالج قبل وفاته بأيام ، وتوفي عام ٩٤٠م .

** عبد الله بن الزبير : هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي ، أبو بكر . ولد في المدينة عام ٦٢٢م وهو أول مولود فيها بعد الهجرة . حكم مصر واليمن وخراسان والعراق واكثر بلاد الشام بعد أن بويع بالخلافة سنة ٦٤هـ . دامت خلافته تسع سنوات ، وكانت له وقائع هائلة مع الأمويين . مات مقتولاً عام ٦٩٢م بعد أن سير اليه الأمويون الحجاج بن يوسف الثقفي .

فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ثم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال ، يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد لله فيهم رجال من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دَوِيٌّ بالقرآن كَدَوِيِّ النحل ، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم فلما أصبحنا أَخَذْنا مصافنا الذي كنا عليه بالامس ، فزحف بعضنا على بعض ، فافْرَغَ الله علينا صبره ، وأنْزلَ علينا نصره ؛ ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعاً ، بلغ فيه الخمس خمسمائة الف ، فصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركْتُ المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين أبشره واياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذَلَّ من الشرك . فاحْمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أَحَلَّ باعدائه ، من بأسه الذي لا يَرُدُّه عن القوم المجرمين ، ثم سَكَتَ . فنهض اليه أبوه الزبير فقَبَّل بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، يا بني : ما زِلتَ تنطق بلسان ابي بكر حتى صَمَتَّ .

العقد الفريد

من خطبة[1] للإمام علي بن ابي طالب عليه السلام*

أيُّها النَّاسُ المُجْتَمعَةُ أبْدَانُهُمْ ، المُخْتلفَةُ أهْوَاؤُهُمْ ، كَلامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ وفعْلُكُمْ يُطْمِعُ فيكُمُ الأعْدَاء ! تقولُونَ في المجالس : كَيْتَ وَكَيْتَ ، فإذا جَاء القتالُ قُلْتُمْ : حيدِي حَيادِ ! ما عزَّتْ دَعْوَةُ مِنْ دَعَاكُمْ ، ولا استْرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أعَاليلُ بأضَاليلَ ، دفاع ذي الدَّيْنِ المَطُول لا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّليل . ولا يُدْرَكُ الحقُّ إلاّ بالجدِّ ، أيَّ دار بَعْدَ داركُمْ تَمنعُونَ ومَعَ أيِّ إمامٍ بَعْدي تُقاتِلُونَ ؟ المغرور والله مَنْ غَرَرْتُموه ، وَمَنْ فازَ بِكُمْ فَقَدْ فازَ والله بالسَّهْم الأخْيَب ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بأفْوقَ ناصل أصْبَحْتُ والله لا أُصَدِّقُ قَوْلَكم ، ولا أطْمَعُ في نَصْرِكُمْ ، وَلا أُوعِدُ العَدو بِكُمْ ما بالُكُمْ ! ما دَوَاؤُكُمْ ! ما طبُّكُمْ ! القَوْمُ رجالٌ أمْثالُكُمْ ! أقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ وَغَفْلَةً مِنْ غَيْر وَرَعٍ ؟ وطَمَعاً في غَيْر حَقّ ؟!

نهج البلاغة

---

(١) هذه الخطبة خطبها أمير المؤمنين عند اغارة الضحاك بن قيس : فان معاوية لما بلغه فساد الجند ، على أمير المؤمنين دعا الضحاك بن قيس وقال له : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فمن وجدت من الاعراب في طاعة علي فأغر عليه ، وان وجت له خيلا او مسلحة فأغر عليها ، وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى .. ولا تقيمن لخيل بلغك انها قد سرحت اليك لتلقاها فتقاتلها . وسرحه في ثلاثة الاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الاعراب ، ثم لقي عمر بن عميس بن مسعود الذهلي فقتله – وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود – ونهب الحاج ، وقتل منهم وهم على طريقهم عند القطقطانة ، فساء ذلك امير المؤمنين، وأخذ يستنهض الناس الى الدفاع عن ديارهم ، وهم يتخاذلون ، فوبخهم بما تراه في هذه الخطبة ، ثم دعا بحجر بن عدي فسيره الى الضحاك في أربعة الاف ، فقاتله ، فانهزم فاراً الى الشام يفتخر بانه قتل ونهب .

* علي بن أبي طالب : هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، أبو الحسن . ولد في مكة عام ٦٠٠م . تولى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان سنة ٣٥هـ ، فأصبح بذلك رابع الخلفاء الراشدين . وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وصهره ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . كان من أشجع الشجعان ، ومن الخطباء المفوهين ، ومن العالمين بالقضاء ، وهو أول من أسلم بعد خديجة ، جمعت أقواله وخطبه في كتاب (نهج البلاغة) وله ديوان شعر .

حديث ليلى الأخيلية مع الحجّاج

ابو علي القالي*

حدثني ابو بكر بن الانباري قال حدثني ابي قال أخبرنا أحمد بن عبيد عن ابي الحسن المدائني عمن حدثه عن مولى لعنبسة بن سعيد بن العاصي قال : كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد ابن العاصي اذا دخل على الحجاج[1] ، فدخل يوما فدخلتُ اليهما وليس عند الحجاج أحد الا عنبسة ، فاقعدني فجيءَ الحجاجُ بطبق فيه رُطَب ، فأخذ الخادم منه شيئا فجاءني به ، ثم جيء بطبق آخر حتى كَثُرتْ الأطباقُ ، وجعل لا يأتون بشيء الا جاءني منه بشيء ، حتى ظننتُ ان ما بين يدي أكثر مما عندهما ؛ ثم جاء الحاجب فقال : امرأة بالباب ؟ فقال له الحجاج : ادخلها ، فدخَلَتْ ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظَنَنْتُ أن ذقنه قد أصاب الأرض ، فجاءَتْ حتى قَعَدتْ بين يديه ، فنظرتُ فاذا امرأةٌ قد أسَنَّتْ حَسَنَة الخَلْقِ ومعها جاريتان لها ، واذا هي ليلى الأخيلية[2] ؛ فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبتْ له ؛ فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت : إخْلافُ النجوم ، وقلة الغيوم ؛ وكَلَبُ البرد ، وشدةُ الجَهْد ، وكنتَ لنا بعد الله الرفد . فقال لها: صفي لنا الفجاج ، فقالت : الفجاج مغبَّرة ، والأرض مقشعرّة ؛ والـمَبْرَكُ مُعتَلّ ، وذو العيال مُخْتَل ، والهالك للقُلّ ؛ والناس مُسْنِتون ، رحمة الله يرجون ؛ وأصابَتْنا سنون مُجْحفة مُبْلطة ، لم تدع لنا هُبَعاً ، ولا رُبَعا ؛ ولا عافطة ولا نافطة ؛ اذهَبَتْ الأموالَ ومزقَتْ الرجالَ ، واهلكتْ العيالَ ؛ ثم قالت : اني قلت في الأمير قولاً ؛ قال : هاتي ؛ فأنشأت تقول :

أحَجَّاج لا يُفْلَلْ سلاحُكَ انـها الـمـ ـــنـايا بِكفِّ الله حيْثُ تراها

أحـجـاج لا تُعْطي العُصاةَ مُناهُم ولا الله يُعطي للعصاةِ مُناها

اذا هَبَطَ الحَجّاجُ أرْضاً مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أقْصى دائها فَشَفاها

---

* أبو علي القالي : اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان . ولد عام ٩٠١ م في (منازجرد) على الفرات الشرقي ، ثم رحل الى العراق ، فأقام في بغداد وتعلم فيها ، ثم رحل الى المغرب عام ٣٢٨ م واستوطن في قرطبة ، ومات هناك عام ٩٦٧ م . كان مقرباً من خلفاء الاندلس ، ومن آثاره : (امالي القالي) و (النوادر) و (البارع) و (المقصور والممدود والمهموز) و (الامثال) .

(١) الحجّاج : هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي ، ولد في الطائف عام ٦٦٠ م ونشأ فيها ، ثم انتقل الى الشام ، وأصبح في صفوف عبد الملك بن مروان . قاتل عبد الله بن الزبير، ثم تولى مكة والمدينة والطائف والعراق حيث أخمد ثورة الأخير. عرف عنه الدهاء ، وسفك الدماء ، والخطابة . مات في واسط عام ٧١٤ م .

(٢) أما ليلى الأخيلية ، فهي ليلى بنت عبدالله بن الرحال بن شداد بن كعب ، الأخيلية من بني عامر بن صعصعة . وهي شاعرة ، اشتهرت بفصاحتها ، وذكائها ، وجمالها ، وبأخبارها مع توبة بن الحمير . تعد من شاعرات الطبقة التي تلي طبقة الخنساء ، وقد كانت هناك مهاجاة بينها وبين النابغة الجعدي . ماتت في (ساوة) نحو عام ٧٠٠م ودفنت هناك . لها ديوان شعر.

شَفاها من الداءِ العُضالِ الذي بها … غُلام إذا هَزَّ القَناةَ سَقاها

سَقاها فَرَوّاها بِشُرْبِ سِجالُهُ … دماء رجالٍ حيث مال حشاها

إذا سمع الحجاجُ رِزَّ كتيبةٍ … أعَدَّ لها قبلَ النزولِ قِراها

أعَدَّ لَها مَسمومةً فارسيةً … بأيدي رجالٍ يَجْلِبونَ صَراها

فما ولد الابكارُ والعونُ مثله … بِبَحْرٍ ولا أرضٍ يَجِفُّ ثَراها

قال : فلما قالت هذا البيت قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلتُ العراق غيرها ، ثم التفت الى عنبسة بن سعيد فقال : والله اني لأعدُّ للأمر عسى الا يكون أبداً ، ثم التفت اليها فقال : حسبك ؛ قالت : اني قد قلت أكثر من هذا ؛ قال : حسبك ! ويحك حسبك ! ثم قال : يا غلام ، اذهب الى فلان فقل له : إقطع لِسانَها ؛ فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : إقْطَعْ لسانَها ؛ قال : فأمر باحضار الحجّام ، فالتفتتْ اليه فقالت : ثكلتكَ أمكَ ! أما سَمِعْتَ ما قال ، انما أمرك أن تقطع لساني بالصِلَة ؛ فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضبا وهم بقطع لسانه وقال : ارْدُدْها ، فلما دخلتْ عليه قالت : كاد وأمانة الله يقطع مِقْوَلي ثم انشأت تقول :

حَجّاجُ أنت الذي ما فَوْقَهُ أحد … الاّ الخليفةُ والمستغفرُ الصَمَدُ

حجاج أنت شِهابُ الحَرْبُ إنْ لَقِحتْ … وأنت للناس نورٌ في الدُّجى يَقِدُ

ثم اقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله ايها الأمير ، ألا إنّا لم نَرَ قط أفصح لساناً ، ولا أحسن محاورةً ، ولا أملح وجهاً ، ولا أرْصن شعراً منها ! فقال : هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها ! ثم التفت اليها فقال : انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ؛ قالت : نعم أيها الأمير ، هو الذي يقول :

وهل تَبْكِيَنْ ليلى اذا متُّ قبلَها … وقامَ على قبري النساءُ النوائحُ

كما لو أصابَ الموتُ ليلى بكيتُها … وجادَ لها دمعٌ من العين سافحُ

وأُغْبَطُ مِن ليلى بما لا أنالُه … بل كلُّ ما قرتْ به العين طائحُ

ولو أن ليلى الأخيليةَ سلَّمَتْ … عَلَيَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ

لَسَلَّمْتُ تسليمَ البَشاشةِ أوْزَقَا … إليها صَدى من جانب القبر صائحُ

فقال : زيدينا من شعره يا ليلى ؛ قالت : هو الذي يقول :

حمامةَ بطن الواديين تَرَنَّمي | سقاكِ من الغر الغوادي مطيرُها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعما | ولا زلتِ في خضراءَ غضٍّ نَضيرُها
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تَبَرْقَعَتْ | فقد رابَني منها الغداة سفورُها
وقد رابَني منها صدودٌ رأيتُهُ | واعراضُها عن حاجَتي وبُسورها
وأشرفُ بالقور اليفاع لعلني | أرى نار ليلي أو يراني بَصيرُها
يقولُ رجالٌ لا يضيرك نأيُها | بَلى كلُّ ما شفَّ النفوسَ يضيرُها
بَلى قد يَضير العينَ أن تُكْثِر البكا | ويُمنع منها نومُها وسرورُها
وقد زعمتْ ليلى بأني فاجرٌ | لنفسي تُقاها أو عليها فجورُها

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذي رابَه من سفورِك ؟ فقالت : أيها الأمير، كان يلم بي كثيرا ، فارسل الي يوما انّي آتيكِ ؛ وفطن الحي فأرصدوا له ؛ فلما أتاني سفرتُ عن وجهي ؛ فعلم ان ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع ؛ فقال : لله درك ! فهل رأيت منه شيئا تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذي اسأله ان يصلحكَ ، غير انه قال مرة قولا ظننتُ انه قد خضع لبعض الأمر ، فانشأتْ تقول :

وذي حاجة قُلْنا له لا تَبُحْ بها | فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي ان نخونَه | وانت لأخرى صاحبٌ وحليلُ

فلا والله الذي اسأله ان يصلحكَ ، ما رأيتُ منه شيئاً حتى فرق الموت بيني وبينه ؛ قال : ثم مه ! قالت : ثم لم يلبث ان خرج في غزاة له فأوصى ابن عم له : اذا أتيتَ الحاضر من بني عبادة فنادِ بأعلى صوتِك :

عفا الله عنها هل أبيتَن ليلةً | من الدهر لا يسري اليّ خيالُها

وأنا أقول :

وعنه عفا ربي وأحْسَنَ حالَهُ | فَعَزّتْ علينا حاجةٌ لا يَنالُها

قال : ثم مه ! قالت : ثم لم يلبث ان مات فأتانا نعيه ؛ فقال : أنشدينا بعض مراثيكِ فيه : فأنشدتْ :

لِتَبْكِ عليه من خفاجَةَ نِسْوَةٌ | بماءِ شؤون العبرة المتحدر

قال لها فأنشدينا ؛ فأنشدته :

كَأنَّ فتى الفتيان توبة لم يُنِخْ ... قلائِصَ يفحصن الحصى بالكراكر

فلما فرغت من القصيدة قال محْصَنْ الفقعسي – وكان من جلساء الحجاج – : مَن الذي تقول هذه فيه ؟ فوالله اني لأظنها كاذبة ؛ فنظرتْ اليه ثم قالت : أيها الأمير ، ان هذا القائل لو رأى توبة لسرّه ألاّ تكون في داره عذراء إلاّ هي حامل منه ؛ فقال الحجاج : هذا وأبيك الجواب وقد كنتَ عنه غنياً ، ثم قال لها : سَلي يا ليلى تُعْطَيْ ؛ قالت : أعطِ فمثلكَ أعطى فأحسن ؛ قال لك عشرون ؛ قالت : زِدْ فمثلكَ زاد فأجمل ؛ قال : لك أربعون ؛ قالت : زِدْ فمثلكَ زاد فأكمل ؛ قال : لك ثمانون ؛ قالت زد فمثلك زاد فتمّم ؛ قال : لك مائة ، واعلمي انها غَنَم ؛ قالت : معاذ الله أيها الأمير ! أنت أجْوَدُ جوداً ، وأمْجَدُ مجداً ، وأوْرى زنداً ، مَن أن تجعلها غَنَماً ؛ قال : فما هي ويحكِ يا ليلى ؟ قالت : مائة من الابل برعاتها ؛ فأمر لها بها ، ثم قال : ألَكِ حاجةٌ بعدها ؟ قالت : تدفع اليّ النابغة الجعدي ؟ قال : قد فعلت ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ؛ فبلَغ النابغة ذلك ، فخرج هاربا عائذا بعبد الملك ؛ فاتبعته الى الشام ؛ فهرب الى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج الى قتيبة ، فماتت بقومس[٣] ويقال : بحلوان .

الامالي

(٣) قومس : اسم موضع .

كلام تميم بن جميل بين يدي المعتصم

قال أحمد بن أبي داود : ما رأينا رجلا نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب ان يفعله الا تميم بن جميل[1] فإنه كان تغلّب على شاطىء الفرات ، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مَثُلَ بين يديه ، دعا بالنطع والسيف ، فَأُحْضِرا : فجعل تميم بن جميل ينظر اليهما ولا يقول شيئا ، وجعل المعتصم يصعّد النظر فيه ويصوّبه ، وكان جسيماً وسيماً ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره ؛ فقال ؛ يا تميم ، إنْ كان لك عذر فأتِ به ، أو حجة فأدل بها ؛ فقال : أما إذْ قد اذن لي أمير المؤمنين فإني أقول : الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا أمير المؤمنين ، ان الذنوب تُخرِس الألسنة ، وتُصدّع الافئدة ، ولقد عَظُمَتْ الجريرة ، وكَبُرَ الذنب ، وساء الظن ولم يبق الا عفوك او انتقامك ، وأرجو ان يكون أقربهما منك وأسرعهما اليك أولاهما بامامتك وأشبههما بخلافتك ، ثم انشأ يقول :

أرى الموتَ بين السيفِ والنِّطعِ كامناً ... يلاحظُني من حيثما اتَلَفَّتُ

وأكْبَرُ ظنّي انكَ اليوم قاتِلي ... وأيُّ امرىء مما قضى الله يفلتُ

ومَن ذا الذي يُدلي بعذرٍ وحجة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مصلَتُ

يَعزّ على الأوس بن تغلب موقفٌ ... يُسَلُّ عليّ السيفُ فيه وأسْكَتُ

وما جَزَعي مِنْ أنْ أموتَ وانّني ... لأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ مؤقّتُ

ولكنّ خَلفي صبيةٌ قد تركْتُهم ... وأكْبادُهُمْ من حسرةٍ تتفتّتُ

كأني أراهُمْ حين أُنْعى اليهم ... وقد خَمَشوا تلك الوجوه وصوّتوا

فإن عشْتُ عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الرّدى عنهم وإن متُّ موّتوا

فكم قائلٍ : لا يُبْعِدُ اللهُ روحَه ... وآخرُ جذلانٌ يُسَرُّ ويشمَتُ

قال : فتبسم المعتصم ، وقال : كاد والله يا تميم ان يسبق السيف العذل ، اذهب فقد غفرت لك الصبوة ، وتركتك للصبية .

العقد الفريد

---

(١) في معجم البلدان عند الكلام على رحبة مالك بن طوق ان هذه القصة كانت بين مالك بن طوق والرشيد . وقد وردت في زهر الاداب (ج ٣ ص ٢٠٠) وفي ثمرات الأوراق بهامش المستطرف (ج ٢ ص ٢٦ طبع المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٨ هـ) متفقة مع الأصول في أنها كانت بين تميم والمعتصم .

محاسن مجالس ابي العباس السفاح في المفاخرة
حكاية خالد بن صفوان

البيهقي *

قيل : كان أبو العباس يطيل السهر ويعجبه الفصاحة ومنازعة الرجال ، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مضر وفهر وفيهم خالد بن صفوان بن الأهتم التميمي[1] وناس من اليمن فيهم ابراهيم بن مخرمة الكندي ، فقال أبو العباس : هاتوا واقطعوا ليلتنا بمحادثتكم . فبدأ ابراهيم بن مخرمة وقال : يا أمير المؤمنين ان أخوالكم هم الناس وهم العرب الأُوَل الذين دانت لهم الدنيا وكانت لهم اليد العليا ، ما زالوا ملوكا وأربابا ، توارثوا الرئاسة كابراً عن كابر وآخراً عن أول ، يلبس آخرهم سرابيل أولهم ، يعرفون بيت المجد ومآثر الحمد ، منهم النعمانات والمنذرات والقابوسات ، ومنهم غسيل الملائكة ، ومنهم من اهتز لموته العرش ، ومنهم مُكَلّم الذئب ، ومنهم مَن كان يأخذ كل سفينة غصباً ويحوي في كل نائبة نهبا ، ومنهم أصحاب التيجان وكماة الفرسان ، ليس من شيء وإنْ عَظُمَ خَطَرُهُ وعُرِفَ أثرهُ من فرس رائع وسيف قاطع أو مجن واقٍ أو درع حصين أو درة مكنونة الا وهم أربابها وأصحابها ، إنْ حَلَّ ضيفٌ أقْروه ، وإنْ سألهم سائل أعطوه ، لا يبلغهم مكاثر ولايطاولهم مطاول ولا مفاخر ، فمَن مثلهم يا أمير المؤمنين ؟ البيت يمان والحجر يمان والركن يمان والسيف يمان . فقال أبو العباس : ما أرى مضر تقول بقولك هذا وما أظن خالدا يرضى بذلك . فقال خالد : ان أذِنَ أمير المؤمنين وأمِنْتُ المواخذة تكلمتُ . فقال ابو العباس : تكلم ولا ترهب أحداً . فقال خالد : يا أمير المؤمنين خابَ المتكلم واخطأ المتقحِّم اذ قال بغير علمٍ ونطق بغير صواب ، أوَيُفْخَرُ على مضر ومنها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من أهل بيته ؟ وهل أهل اليمن يا أمير المؤمنين إلا دابغٌ جلداً وقائدٌ قرداً وحائكٌ برداً ؟ دَلَّ عليهم الهدهُد وَغَرَّقَهم الجُرَذُ وملكتهم أم ولد من قوم ، والله يا أمير المؤمنين ما لهم ألسِنَة فصيحة ولا لغة صحيحة ولا حجة تدل على كتاب ولا يعرف بها صواب ، وإنهم منا لاحدى الخلتينِ إنْ حازوا ما قصدوا أُكلوا وإن حادوا عن حكمنا قُتلوا . ثم

---

* ابراهيم بن محمد البيهقي : لم يكتب عنه في كتب التراجم والأدب ، وكل ما عرف عنه انه عاش في القرن الخامس الهجري ، ومنهم من قال انه عاش ونبغ في عهد الخليفة المقتدر .

(١) خالد بن صفوان : هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري . ولد في البصرة . اشتهر بفصاحته ، وكانت له مجالس مع عمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، وأدرك خلافة أبي العباس السفاح . جمعت بعض أقواله في كتاب . مات نحو عام ٧٥٠ م .

التفت الى الكندي فقال : أتفخر بأكرم الأنام وخيرها محمد صلى الله عليه وسلم وبه افتَخَرَ مَنْ ذَكَرْتَ ، فَالمَنُّ من الله عز وجل عليكم ان كنتم اتباعَه واشياعَه فمنا نبي الله المصطفى وخليفة الله المرتضى ولنا السؤدد والعلى وفينا الحلم والحجا ولنا الشرف المقَدَّم والركن المكرَّم والبيت المعظَّم والجناب الأخضر والعدد الأكثر والعز الأكبر ، ولنا البيت المعمور والمشعر المشهور والسقف المرفوع وزمزم وبطحاؤها وجبالها وصحراؤها وحياضها وغياضها واحجارها واعلامها ومنابرها وسقايتها وحجابتها وسدانة بيتها ، فهل يعدلنا عادل ويبلغ فخرنا قائل ، ومنا أعْلَمُ الناس ابن عباس أعْلَم البشر الطيبة أخباره الحسنة آثاره ، ومنا الوصي وذو النور ، ومنا الصدّيق والفاروق ، ومنا أسد الله وسيف الله ، ومنّا سيد الشهداء وذو الجناحين ، ومنا الكماة والفرسان ، ومنا الفقهاء والعلماء ، بنا عُرِف الدين ومن عندنا أتاكم اليقين ، فَمَنْ زاحَمَنا زاحمناه ومَنْ عادانا اصطلمناه ومَنْ فاخَرَنا فاخرناه ومَن بدل سُنَّتنا قتلناه . ثم التفتَ الى الكندي وقال : كيف علْمُكَ بلغات قومك ؟ قال : أنا بها عالِم . قال : ما الجَحْمَة في لغتكم ؟ قال : العين ، قال : فما المِيْزم ؟ قال : السن . قال : فالشّناتر ؟ قال : الأصبع . قال : فالصنانير ؟ قال الآذان . قال : فما القلوب ؟ قال : الذئب . قال : فما الزُّبّ ؟ قال : اللحية . قال : افتقرأ كتاب الله عزّ وجل ؟ قال : نعم . قال : فإن الله عز وجل يقول : « انا انزلناه قرآنا عربياً » وقال : « بلسان عربي مبين » وقال جل ذكره : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » وقال عز وجل : « العين بالعين » ، ولم يقل الجحمة بالجحمة ، وقال : « جعلوا أصابعهم في آذانهم » ولم يقل شناترهم في صنانيرهم ، وقال « السن بالسن » ؛ ولم يقل الميزم بالميزم ، وقال : « فأكله الذئب » ؛ ولم يقل القلوب ، وقال : « لا تأخذ بلحيتي » ولم يقل بزبّي ، وانا سائلك يا ابن مخرمة عن ثلاث خصال فَإنْ أنتَ أقْررْتَ بها قُهِرْتَ وان جَحَدتَها كَفَرْتَ وإنْ انكرْتَ قُتِلْتَ . قال : وما هي ؟ قال : أتعلم أن فينا نبي الله المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : اللهم نعم . قال : أتعلم أنّ فينا كتاب الله تعالى قال : اللهم نعم . قال : أفتعلم أنّ فينا خليفة الله المرتضى ؟ قال : اللهم نعم . قال : فأي شيء يَعْدِلُ هذه الخصال ؟ قال ابو العباس : اكففْ عنه فوالله ما رأيتُ غلبة أنْكَرَ منها ، والله ما فَرَغْتَ من كلامك يا أخا مضر حتى أنّه سَيُعْرَجُ بسريري الى السماء . ثم أمر لخالد بمائة الف درهم .

المحاسن والمساوىء

المقامة المكية

الحريري*

حكى الحارث بن هَمّام قال : نهضتُ من مدينة السلام(1) لحجة الاسلام . فلما قضيتُ بعون الله التفثَ . واستبحتُ الطيبَ والرفثَ صادفَ موسم الخيف . معمعان الصيف . فاستَظْهرتُ للضرورة . بما يقي حرَّ الظهيرة . فبينما انا تحت طراف . مع رفقة ظراف . وقد حمي وطيس الحصباء . وأعشى الهجير عين الحرباء . اذ هجم علينا شيخ متسعسع . يتلوه فتى مترعرع . فسلم الشيخُ تسليم أديب أريب . وحاور محاورة قريب لا غريب . فأعْجَبَنا بما نشر من سمطه . وعجبنا من انبساطه قبل بسطه . وقلنا له : ما أنْتَ . وكيفَ وَلَجْتَ وما استَأذنْتَ ؟ فقال : أما أنا فعاف . وطالب اسعاف . وسرٌ ضري غير خاف . والنظر الي شفيع لي كاف . وأما الانسياب .الذي علق به الارتياب . فما هو بعجاب . اذ ما على الكرماء من حجاب . فسألناه : أنّى اهتدى الينا . وبم استدل علينا ؟ فقال : إن للكَرَم نشرا تنم به نفحاته . وترشد الى روضه فوحاته . فاستدللتُ بتأرج عَرْفِكم . على تبلج عُرْفكم ! وبشرني تضوع رَندكم . بحسن المنقلب من عندكم ! فاستخبرناه حينئذ عن لبانته . لنتكفل بإعانته . فقال : ان لي مأربا . ولفتاي مطلبا . فقلنا له : كلا المرامين سيُقْضى . وكلاكما سوف يَرضى . ولكن الكُبْرَ الكُبْر . فقال : أجل ومن دحا السبّعَ الغُبْر . ثم وثب للمقال . كالمنشط من العقال . وانشد :

إنــي امــرؤٌ أبْدِعَ بــي	بَعْدالـوجـى والـتـعـبِ
وشُـقّتي شـاسِـعة	يَقْـصـر عـنـهـا خَبَـبي
ومـا مـعـي خَرْدَلـة	مَطـبـوعـةٍ مـن ذهـب
فـحـيـلَتـي مُنسَـدّةٌ	وَحـيـرتـي تـلْعَبُ بـي
إنْ ارْتَحَـلْتُ راجـلا	خـفـتُ دواعـي العطـبِ

* الحريري : هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان ، أبو محمد الحريري البصري. ولد عام ١٠٥٤ م في (المشان – بالقرب من البصرة) وكان دميم الخلقة ، كثير العلم . لقب بالحريري نسبة الى صنع الحرير أو بيعه . مات في البصرة عام ١١٢٢م . من آثاره : (مقامات أبي زيد السروجي) وهو ما يعرف باسم (المقامات الحريرية) و (درة الغواص في أوهام الخواص) و (ملحة الاعراب) و (صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور) وهو في التاريخ و (توشيح البيان) و (ديوان رسائل) وديوان شعر .

(١) مدينة السلام : بغداد . السلام : اسم دجلة .

وإنْ تَخَلَّفْتُ عـن الـرفـ ـقة ضـاق مـذهـبـي
فَزَفْرَتـي فـي صُعُدٍ وعـبـرتـي فـي صـبـبِ
وأنـتـم مُنْتَجَعُ الـرا جـي ومـرمـى الـطـلـبِ
لُهـاكُم مـنـهـلـة ولا انـهـلالُ الـسُّحُبِ
وجـارُكُم فـي حَرَمٍ وَوَفْرُكُم فـي حَرَبِ
مـا لاذ مـرتـاعٌ بـكـم فـخـافَ نـاب الـنُّوَبِ
ولا اسْتَدَر آمـلٌ حـبـاءكـم فـمـا حُبي
فـانْعـطِفـوا فـي قـصـتـي وأحْسِنـوا مُنْقَلَبـي
فَلَوْ بَلَوْتُم عـيـشَتـي فـي مـطـعـمـي ومـشـربـي
لـسـاءَكُم ضـري الـذي أسْلَمَنـي لـلـكُرَبِ
لـو خـبـرْتُم حَسَبـي ونَسـبـي ومـذهـبـي
ومـا حَوَتْ مـعـرفـتـي مـن الـعـلـوم الـنـخَبِ
لـما اعـتَرتْكُم شـبـهـة فـي ان دائـي أدبـي
فـلـيـتَ أنـي لـم أكُنْ أُرْضِـعْتُ ثَدْيَ الادَبِ
فـقـد دهـانـي شـؤمُه وعـقَّنـي فـيـه أبـي

فقلنا له : أما أنتَ فقد صرَّحَتْ ابياتُك بفاقتك ، وعطب ناقتك ، وسنمطيك ما يوصلك الى بلدك . فما مأربة ولدك ؟ فقال له : قم يا بني كما قام أبوك ، وفه بما في نفسك لافُضَّ فوك ، فنهض نهوض البطل للبراز ، وأصلت لسانا كالعضب الجُراز ، وانشأ يقول :

يـا سـادة فـي الـمـعـالـي لـهـم مَبـانٍ مَشـيـده
ومَن إذا نـاب خَطْبٌ قـامـوا بـدفـع الـمكـيـده
ومَن يـهـونُ عـلـيـهـم بَذْلُ الـكـنـوز الـعـتـيـده
أريـدُ مـنـكـم شِواءً وجَردَقـاً وَعَصـيـده
فـإنْ غـلا فَرقـاقٌ بـه تُوارى الـشَّهـيـده[1]
أو لَم يـكـن ذا ولا ذا فَشِبْعـة مـن ثَريـده
فـإن تَعَذَّرْنَ طُرَّاً فـعـجـوة ونَهـيـده[2]

(١) الشهيدة : الهريسة

(٢) النهيدة : صنف من طبيخ العرب وهي الزبدة التي لم يتم روب لبنها

فاحْضروا ما تَسَنَّى — ولو شَظًى من قديده

وروِّجوه فنفسي — لِما يَروجُ مُريده

والزّاد لا بد منه — لرحلة لي بَعيده

وأنتم خير رهط — تُدعَوْنَ عند الشديده

أياديكُم كُلَّ يوم — لها أيادٍ جَديده

وراحُكُمْ واصلاتٌ — شَمْلَ الصِّلات المُفيده

وبُغْيَتي في مطاوي — ما تَرفِدون زهيده

وفيَّ أجرٌ وَعُقْبى — تَنْفيسُ كربي حَميده

ولي نتائج فكر — يَفْضَحْنَ كل قَصيده

قال الحارث بن همام : فلما رأينا الشبل يشبه الأسد ، أرْحَلْنا الوالد وزوَّدْنا الولد ، فقابلا الصنع بشكر نشر أرْديته ، وأدّيا به ديته ، ولما عزما على الانطلاق ، وعقدا للرحلة حبك النطاق ، قلت للشيخ : هل ضاهت عِدّتُنا عدة عرقوب ، أو هل بقيت حاجة في نفس يعقوب ؟ فقال : حاش لله وكلا ، بل جل معروفكم وجلى ، فقلت له : فَدِنَّا كما دنّاك ، وأفِدْنا كما أفَدْناك ، أين الدويرة ، فقد ملكتنا فيك الحيرة ؟ فتنفس تنفس من ادّكر أوطانه ، وأنشد والشهيق يلعثم لسانه :

سروج داري ولكن — كيف السبيل إليها ؟

وقد أناخَ الاعادي — بِها وأخْنوا عليها

فَوَ الّتي سِرْتُ أبغي — حَطَّ الذنوبِ لديها[1]

ما راقَ طرفي شيءٌ — مذ غِبْتُ عن طَرفيها

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، وآذنت مدامعه بالدموع ، فكره ان يستوكفها ، ولم يملك ان يكفكفها ، فقطع انشاده المستحلى ، وأوجز في الوداع وولى .

مقامات الحريري

(١) هذا قسم ، والمقسم به الكعبة

المقامة البغداذية

بديع الزمان الهمذاني*

حَدَّثَنَا عيسى بنُ هشامٍ قَال :

اشْتَهَيْتُ الأزَاذَ ، وَأنا بِبَغْداذَ ، ولَيْس معي عَقْدٌ ، على نَقْدٍ(١) ، فَخَرَجْتُ أنْتَهِزُ مَحَالَّهُ حَتَّى أحَلَّنِي الكَرْخَ(٢) ، فإذا أنا بِسَوادِيٍّ(٣) يَسُوقُ بِالجَهْدِ حمَارَهُ ، وَيُطَرِّفُ بِالعَقْدِ إزارَهُ ، فقلتُ : ظَفِرْنا واللهِ بِصَيْدٍ(٤) ، وَحَيَّاكَ اللهُ أبا زيدٍ ، مِنْ أيْنَ أقْبَلْتَ ؟ وأيْنَ نَزَلْتَ ؟ ومتى وافيتَ ؟ وهَلُمَّ إلى البيتِ ، فقال السَّوَادِيُّ : لستُ بأبي زيدٍ ، ولكنّي أبو عُبيدٍ ، فقلتُ : نعم ، لَعَنَ اللهُ الشَّيطان ، وأبْعَدَ النِّسيانَ ، أنْسانيكَ طولُ العهدِ ، واتِّصالُ البُعْدِ(٥) ، فكيف حالُ أبيكَ ؟ أشابٌّ كَعهدي ، أمْ شابَ بَعْدي ؟ فقال : قد نَبَتَ الرَّبيعُ على دِمْنَتِه(٦) ، وأرجو أن يُصيِّره اللهُ إلى جنَّته ، فقلتُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وَمَددتُ يدَ البِدارِ ، إلى الصِّدارِ ، أُريدُ تَمزيقَهُ(٧) ، فقبضَ السَّواديُّ على خصري بِجُمْعِه ، وقال : نَشدْتُكَ الله لا مزَّقْتَهُ ، فقلتُ : هَلُمَّ إلى البيتِ نُصِبْ غداء ، أو إلى السُّوقِ نَشْتَرِ شواء ، والسُّوقُ أقربُ ، وطعامُهُ أطيبُ ، فاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَمِ ، وعطَفَتْهُ عاطفةُ اللَّقَمِ(٨) ، وطَمِعَ ، ولَمْ يَعْلَم أنَّهُ وَقَعَ ، ثُمَّ أتيْنا شَوَّاءً يتقاطرُ شِواؤهُ عرَقاً ، وَتتسايلُ جُوذاباتُهُ(٩) مَرَقاً ، فقلتُ : افْرِزْ لأبي زَيْدٍ مِنْ هذا الشِّواء ، ثُمَّ زِنْ لهُ من تلكَ الحلواء ،

---

* الهمذاني : هو أحمد بن الحسين بن يحي الهمذاني ، أبو الفضل . ولد في همذان عام ٩٦٩م وانتقل الى هراة ثم الى نيسابور . التقى أبا بكر الخوارزمي ، ووقع شجار بينهما دفع بهما الى المساجلة ، فكانت نتيجة ذلك أن ذاع صيت الهمذاني ، وعلت مكانته . أما أكثر مقاماته فانها مرتجلة ارتجالاً ، ويروى انه كان يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطر من سطوره ومنتهيا بالسطر الأول ، فيخرجه ولا عيب فيه . توفي عام ١٠٠٨م .

(١) الأزاذ : نوع من التمر الجيد . النقد : المسكوك من الذهب والفضة

(٢) الكرخ : محل ببغداد ، والضمير في « أحلني » راجع الى الأزاذ

(٣) السواد : ريف العراق وقراه ، وقد سمي بالسواد لاكتساء أرضه بالخضرة من نبات وأشجار . والنسبة إليه سوادي

(٤) أراد بالصيد ذلك السوادي ، ثم أقبل عليه يحادثه ويكالمه ، ويتدخل معه ليرزأه بشيء يناله منه

(٥) أخذ يدخل بحيلته في روع السوادي أنه أليف قديم وصاحب من عهد بعيد ، فلما أخطأ تكنيته وخشي ألا تجوز حيلته ، عمد إلى انتحال المعاذير ، بطول أمد الفراق ، وبعد عهد التلاق

(٦) المراد بالدمنة القبر

(٧) البدار : المبادرة والمسارعة ، والصِّدار : ثوب يلبس مما يلي الجسد ، والمعنى أنه حين سمع بموت أبيه بادر إلى ثوبه ليمزقه ، إظهاراً للجزع ، وتأكيداً للحيلة بأنه صديق أبيه

(٨) استفزته : استهوته وحركته بشدة ، والحمة في الأصل : إبرة العقرب التي تلسع بها ، ثم حملت على الشدة مطلقاً ، والقرم : الشهوة البالغة لأكل اللحم ، واللقم : السرعة في الأكل ، والمعنى أن شدة حبه للطعام وعظيم شوقه إليه أسرعا به إلى موافقتي

(٩) الجوذابة : رغيف يخبز وفوقه طائر أو قطعة لحم

واخْتَرْ لهُ من تلك الأطباق ، وانضدْ عليها أوراق الرُّقاق ، ورُشَّ عليه شيئاً من ماء السُّمَّاق ليأكُلَهُ أبو زيدٍ هنيًا ، فانحنى الشوَّاءُ بساطوره ، على زُبْدة تنُّوره ، فجعلها كالكُحْل سَحْقاً ، وكالطَّحْن دقًّا ، ثُمَّ جلس وجلستُ ، ولا يئسَ ولا يئستُ حتى استَوْفَيْنا ، وقلتُ لصاحب الحَلْوى : زِنْ لأبي زيدٍ من اللُّوزينج رطلينِ فهو أجْرى في الحلُوقِ ، وأمْضى في العروق ، وليكُنْ ليليَّ العُمْر ، يوميَّ النُّشر[١٠] ، رقيقَ القِشْرِ ، كثيف الحَشْو ، لؤلؤيَّ الدُّهْنِ ، كوكبيَّ اللون ، يذوبُ كالصَّمْغ ، قبْلَ المضغ ، ليأكُلَهُ أبو زيد هنيًا ، قال : فوزنهُ ثمَّ قعد وقعدتُ ، وجرَّدَ وجرَّدْتُ[١١] ، حتى استوفيناهُ ، ثمَّ قلتُ : يا أبا زيدٍ ما أحْوجَنا إلى ماءٍ يُشعْشِعُ بالثلج ، ليقْمَعَ هذه الصَّارَّة ، ويفثأ هذه اللُّقَمَ الحارَّة[١٢] ، اجلسْ يا أبا زيد حتَّى نأتيكَ بسقَّاءٍ ، يأتيكَ بِشَرْبَةِ ماء ، ثُمَّ خرجْتُ وجَلَسْتُ بحيثُ أراهُ ولا يراني أنْظُرُ ما يصنعُ ، فلمَّا أبْطأتُ عليه قام السَّواديُّ إلى حماره ، فاعتلق الشوَّاءُ بإزاره ، وقال : أيْنَ ثَمَنُ ما أكلْتَ ؟ فقال أبو زيد : أكَلْتُهُ ضيفاً ، فلَكَمَهُ لكمةً ، وثنَّى عليه بلطْمة ، ثُمَّ قال الشوَّاءُ : هاكَ ، ومتى دعوناك ؟ زِنْ يا أخا القِحَةِ عشرينَ[١٣] ، فجعل السَّواديُّ يبكي ويَحُلُّ عُقَدَهُ بأسْنانِه ويقولُ : كم قلتُ لِذاكَ القُرَيْدِ[١٤] ، أنا أبو عبيدٍ ، وهوَ يقولُ : أنتَ أبو زيدٍ ، فأنْشَدْتُ :

أعْمِلْ لرزْقِكَ كُلَّ آلهْ	لا تقْعُدَنَّ بِكُلِّ حالهْ[١٥]
وانْهض بِكُلِّ عظيمةٍ	فالمَرْءُ يَعْجِزُ لا مَحالَهْ[١٦]

مقامات الهمذاني

(١٠) اللوزينج : نوع من الحلوى ، ومعنى كونه ليلي العمر أنه صنع ليلا ، ونهاري النشر أنه قد ظهر نهاراً ، ليكون قد شرب دهنه وعسله

(١١) جرد : أي شمر عن ساعده ليسرع في الأكل

(١٢) يشعشع : يخلط . الصارة : شدة الحر ، ويفثأ يكسر ويخفف

(١٣) هاك : اسم فعل بمعنى خذ . القحة : الوقاحة وسوء الأدب ، ومعنى زن عشرين : أعط وزن عشرين درهماً .

(١٤) العقد : جمع عقدة . أي شرع بحل عقدة كيسه ليخرج منه الدراهم . والقريد : تصغير قرد

(١٥) المعنى لا تكن خائر القوى فتقعد عن طلب الرزق وأنت تعلم أنه لا يأتيك حتى تعمل له ، بل أجهد نفسك ، واسع في تحصيله .

(١٦) أي أنه لا بد أن يأتي على المرء يوم يعجز فيه عن القيام بحاجته ؛ فانتهز فرصة شبابك وقوتك وقم بجلائل الأمور .

المقامة المضيرية

بديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال:

كُنتُ بالبصرةِ، ومعي أبو الفتح الأسكندريُّ، رجلُ الفصاحة يدعوها فتُجيبُهُ، والبلاغة يأمُرُها فتُطيعُهُ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقُدِّمت إلينا مَضيرة تثني على الحضارة[1]، وتترجرجُ في الغضارة، وتُؤذِنُ بالسّلامة، وتشهدُ لمعاوية رحمهُ اللهُ بالإمامة، في قَصعَةٍ يزِلُّ عنها الطّرفُ، ويموج فيها الظّرْفُ، فلمّا أخذَتْ من الخُوانِ مكانها، ومن القُلوب أوطانها، قامَ أبوالفتح الإسكندريّ يلعنُها وصاحبَها، ويمقُتُها وآكلَها، ويثلبها وطابخَها وظنّنّاهُ يمزحُ، فإذا الأمرُ بالضدِّ، وإذا المزاحُ عينُ الجدِّ، وتنحّى عن الخُوانِ، وترك مساعدةَ الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القُلوب، وسافرت خلفَها العيُونُ، وتحلّبَت لها الأفواهُ وتلمظّت لها الشّفاهُ، واتّقدت لها الأكبادُ، ومضى في إثرها الفُؤادُ، ولكنّا ساعدناهُ على هجرها، وسألناهُ عن أمرها. فقال: قِصتّي معها أطولُ من مُصيبتي فيها، ولو حدَّثتكم بها لم آمن المقتَ، وإضاعة الوقت، قُلنا هاتِ. قال: دعاني بعضُ التُّجارِ إلى مَضيرة وأنا ببغداد، ولزمني مُلازمة الغريم، والكَلْبِ لأصْحابِ الرَّقيم[2]، إلى أنْ أجَبْتُهُ إليْها، وَقُمْنَا فجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْني على زَوْجَتِه، ويُفدّيها بمُهْجَتِه، وَيَصِفُ حِذْقَهَا في صَنْعَتِهَا، وتَأنُّقها في طَبْخِهَا. وَيَقُولُ: يا مَوْلايَ لَو رَأَيْتَهَا، والخِرْقَةُ في وسَطِها، وهي تدور في الدُّورِ، مِنَ التَّنُّورِ إلى القُدُورِ وَمِنَ القُدُورِ إلى التَّنُّورِ، تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدِيها الأبْزَارَ. وَلَوْ رَأيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غبَّرَ في ذلك الوَجْهِ الجَميلِ، وَأَثَّرَ في ذَلكَ الخَدِّ الصَّقيلِ، لرأيْتَ مَنْظراً تحارُ فيه العُيُونُ. وَأنا أعْشَقُهَا لأنَّها تَعْشقُني. وَمِنْ سَعَادة المَرْءِ أنْ يُرْزَقَ المُساعَدَةَ مِنْ حَليلَته، وَأنْ يَسْعَدَ بظَعينته[3]، ولا سيّما إذا كانَتْ مِنْ طينَته. وَهيَ ابْنَة عمّي لَحّاً[4]، طينتُهَا طينَتي، وَمَدينَتُهَا مَدينَتي، وَعُمومَتُهَا عُمومَتي، وَأرُومَتُهَا أرُومَتي. لكنّهَا أوْسَعُ منّي خُلْقاً وأحْسَنُ خَلْقاً. وصدّعني بصفات زَوْجَتِه، حتّى انْتَهَيْنَا إلى مَحلّته، ثم قال: يا مولاي، ترى هذه المَحلّة؟ هي أشْرَفُ مَحَالِّ بغْدَادَ يَتَنَافسُ الأخْيارُ في نُزُولها، وَيَتَغاير الكبَار في حُلولها. ثُمَّ لا يسْكُنُهَا غيْرُ التُّجَّار. وإنّما المرْءُ بالْجارِ وداري في السِّطَة[5] من قلادَتِها، والنُّقْطَة من دائرتها، كم

(١) أي: تدلُّ على أن أهل الحضَر أقْدرُ من البدْوِ في صنع المضيرة وهي نوع من الأكل فتشهد لهم بطول الباع في صنع ألوان الطعام.

(٢) أصحاب الرقيم: هم أصحاب الكهف الذين جرى ذكرهم في الكتاب العزيز.

(٣) ظعينته: أراد بها هنا امرأته.

(٤) لحّاً: أي قرابة متصلة.

(٥) السطة: الوسط.

تُقَدِّرُ يا مَوْلايَ أُنْفِقَ على كُلِّ دارٍ منهَا ؟ قُلْهُ تخميناً إنْ لمْ تَعْرِفْهُ يَقيناً . قُلْتُ : الكثير . فقالَ : يا سُبْحانَ الله ! ما أكْبَرَ هذا الغَلَطَ ! تَقُولُ الكثيرَ فَقَط ؟ وَتَنفَّسَ الصُّعَداء ، وَقالَ : سُبْحانَ مَنْ يَعْلَمُ الأشْياء ، وَانْتَهَيْنَا إلى بَابِ دَارِهِ ، فقال : هذه داري ، كم تُقدرُ يا مَوْلاي أنْفَقْتُ على هذه الطَّاقة[٦] ؟ أنْفَقْتُ والله عَلَيْها فَوْقَ الطَّاقة ، وَوَراءَ الفَاقَةِ ، كَيْفَ تَرى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا ؟ أرَأيْتَ بالله مثْلَهَا ! أُنْظُرْ إلى دَقَائِقِ الصَّنْعةِ فيها وتأمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجِها فكأنَّما خُطَّ بالبِرْكار[٧] ، وانْظُرْ إلى حِذْقِ النَّجَّارِ في صَنْعة هذا الباب ، اتَّخذَهُ مِنْ كَمْ[٨] ؟ قُلْ : وَمِنْ أيْنَ أعْلَم . هو ساجٌ من قطْعَةٍ واحدةٍ لا مأروض ولاَ عفن. إذا حُرِّك أنَّ ، وإذا نُقِرَ طَنَّ . مَن اتَّخَذَهُ يا سيدي ؟ اتَّخذَهُ أبُو إسْحاق بن محمد البَصْرِيّ ، وَهُوَ واللــه نَظيفُ الأثْواب ، بَصيرٌ بصَنْعة الأبْواب ، خفيفُ اليَد في العَمَلِ ، لله درُّ ذَلِكَ الرَّجُلِ ! بِحَياتي لا اسْتَعَنْتَ إلاَّ به على مثْله ، وَهذه الحَلَقَةُ تَرَاها اشْتَرَيْتُهَا في سوق الطَّرائف مِنْ عمْرَان الطرائفيّ بِثَلاثَة دَنَانيرَ مُعِزِّيَّة[٩] وكَم فيها يا سيدي من الشَّبَه[١٠] ؟ فيها ستَّة أرطال ، وهي تَدورُ بلَوْلَبٍ في الباب . بالله دوِّرْها ، ثم انْقرهَا وأبْصِرْهَا ، وبحياتي عَلَيْكَ لا اشْتَرَيْتَ الحَلَقَ إلاَّ مِنْهُ ، فَلَيْسَ يبيعُ إلاَّ الأعْلاق[١١] ، ثم قَرَعَ البَابَ وَدَخَلْنَا الدِّهْليزَ وقال : عمَّرَك اللهُ يا دار ، ولا خَرَّبَكَ يا جدار ، فما أمْتَنَ حيطانَك وَأوْثَقَ بُنْيانَك ، وأقْوى أسَاسَك ! تَأمَّلْ بالله مَعَارِجَها وَتَبَيَّنْ دَوَاخِلَهَا وَخَوارِجَهَا ، وَسَلْني : كَيْفَ حَصَّلْتَهَا ، وكَمْ مِنْ حيلةٍ احْتَلْتَهَا ، حتى عقدْتَها ؟ كانَ لي جارٌ يُكنَّى أبا سُلَيْمان يسكُنُ هذه المَحلَّةَ وله من المَالِ ما لا يسعه الخَزْنُ ، ومن الصامت[١٢] ما لا يحْصُرُهُ الوَزْنُ ، ماتَ رَحِمَهُ اللهُ وَخَلَّفَ خَلَفاً أتْلَفَهُ بيْنَ الخَمْرِ والزَّمْر ، ومزَّقهُ بين النَّرْدِ والقَمْرِ وَأشْفَقْتُ أن يَسُوقَهُ قَائِدُ الاضطرارِ ، إلى بَيْعِ الدَّارِ ، فَيَبيعَهَا في أثْنَاء الضَجَر ، أوْ يَجْعَلَهَا عُرْضَةً لِلْخَطَر . ثم أراها ، وقد فَاتَني شراها ، فأتَقَطَّعُ عَلَيْهَا حَسَرات ، إلى يَوْمِ المَمات . فعَمَدْتُ إلى أثْوابٍ لا تنصُّ تجَارَتُهَا ، فَحمَلْتُهَا إليه وَعَرضْتُها عَلَيْه ، وَسَاوَمْتُهُ على أنْ يَشْتريها نَسيَّةً[١٣] ، وَالمُدْبِرُ يحْسَبُ النَّسيَّةَ عَطيَّة ، وَالمتَخلِّف يعْتَدهَا هَديَّة ، وَسَأَلْتُهُ وثيقةً بأصْلِ المَال ، فَفعل وَعَقَدَهَا لي : ثم تَغَافَلْتُ عن اقْتضائه[١٤] حتَّى كادَتْ حاشيَةُ حاله تَرِقُّ فأتَيْتُهُ فاقْتَضيْتُهُ ، واسْتَمْهلني فأنظرْتُهُ ، والتَمَس غيْرَهَا من الثِّيابِ فأحْضرْتُهُ ، وَسألْتُهُ أنْ يجْعَلَ دارَهُ رهينةً لديّ ، وَوَثيقةً في يدي ، فَفعَلَ . ثم درَّجْتُهُ بالمُعامَلات إلى

(٦) الطاقة : أراد بها النافذة

(٧) البركار أي البيكار

(٨) يريد : منْ كم قطعة صنع النجار هذا الباب ؟

(٩) الدنانير المُعزيّة : المنسوبة الى المُعزّ لدين الله الفاطمي

(١٠) الشَّبه ، بفتحتين : النحاس الأصفر

(١١) الأعْلاق : النفائس

(١٢) الصامت : الذهب والفضة ونحوهما

(١٣) النسيّة : تأخير الثمن ، وأصله نسيئة – بالهمزة – فقلب الهمزة ياء ثم أدْغم

(١٤) اقتضاؤه : مطالبته بالدين الذي عليه

بَيْعها حتى حَصلَتْ لي بِجَدٍّ صَاعِد ، وَبخْتٍ مُساعد و قوَّة سَاعد ، وَرُبَّ سَاعٍ لقَاعد ، وأنا بحَمْد الله مجدودٌ [١٥] ، وفي مثل هذه الأحوال محْمود ، وَحَسْبُكَ يا مولاي ، أنّي كنتُ منذ ليال نائماً في البَيْت مع من فيه إذ قُرِعَ علينا البَابُ ، فقلتُ : من الطَّارق المُنْتاب[١٦] ! فإذا امرأة معها عقْدُ لآل[١٧] ، في جِلْدَة مَاءٍ ورقّة آل ، تعْرضُهُ للبيْع ، فأخذْتُهُ منْها إخْذة خَلْس ، واشْتَرَيْتُهُ بثَمَنٍ بَخْس ، وَسَيَكونُ له نَفْعٌ ظَاهرٌ ، وَرَبحٌ وافرٌ ، بعَوْنِ الله ودَوْلتِكَ ، وإنّما حدَّثْتُكَ بهذا الحديث لتعلَمَ سعادَةَ جَدّي في التِّجارة ، والسَّعادَةُ تُنْبطُ الماء من الحجارَة ، اللهُ أكبر لا يُنْبئكَ أصْدق من نَفْسكَ ، ولا أقْرب من أمْسكَ ، اشْتَرَيْتُ هذا الحصير في المُنادات ، وقد أُخْرِجَ من دور آل الفُرات ، وقت المُصادَرات وزمَنَ الغارات[١٨] وكُنْتُ أطْلُبُ مثْلَهُ منْذُ الزمن الأطْول فلا أجد ، والدَّهرُ حُبْلى ليس يُدْرى مَا يَلد ، ثُمّ اتَّفقَ أني حَضرْتُ بابَ الطَّاق ، وهذا يُعْرضُ في الأسواق ، فَوَزَنْتُ فيه كذا وكذا ديناراً ، تأمَّلْ بالله دقّتَهُ ولينَه ، وَصنْعَتَهُ ، وَلَوْنَهُ فَهُوَ عظيمُ القَدْر ، لا يَقَع مثْلهُ إلاّ في النَّدْر ، وإن كُنْتَ سمعْتَ بأبي عمْران الحصيريّ ، فَهُوَ عملُهُ ، وله ابنٌ يَخْلفُهُ الآن في حانوته لا يوجدُ أعْلاقُ الحصر إلاّ عنْدهُ ، فبحياتي لا اشْتَرَيْتَ الحُصُرَ إلاّ منْ دُكّانه ، فالمؤمنُ ناصحٌ لإخوانه ، لا سيَّما من تَحَرَّمَ[١٩] بخُوَانه ، وَنَعود إلى حديث المضيرة ، فَقَد حَانَ وَقتُ الظَّهيرة ، يا غُلامُ الطَّسْتَ والماء[٢٠] ، فَقُلْتُ اللهُ أكبر رُبَّما قربَ الفَرَج ، وَسَهُلَ المَخْرَج ، وتَقَدَّم الغُلامُ ، فقال : ترى هذا الغلامَ ؟ إنَّهُ رُوميُّ الأصْلِ عراقيُّ النَّشْء . تَقَدَّم يا غُلام واحْسرْ عن رأسك ، وَشَمِّرْ عن ساقِك ، وانْضُ عن ذراعك ، وافْترَّ عن أسـنانك ، وأقْبِلْ وأدبر ، فَفَعَلَ الغُلامُ ذلك ، وقالَ التَّاجر : باللـه من اشْتراهُ ؟ اشْتَراه واللـه أبو العَبَّاس من النَّخَّاس[٢١] ، ضَعِ الطَّسْتَ ، وهات الإبريق ! فَوَضَعَهُ الغُلامُ وأخَذَهُ التَّاجر وَقَلَّبَهُ وأدارَ فيه النَّظَر، ثم نَقَرهُ ، فقال : انْظُر إلى هذا الشَّبَه كأنَّهُ جذْوَةُ اللَّهَب ، أو قطْعَةٌ من الذَّهب ، شبَه الشَّام، وَصنْعَةُ العراق ، ليْسَ من خُلْقان الأعْلاق[٢٢] ، قد عَرَفَ دورَ المُلوك ودارها ، تأمَّلْ حُسْنَهُ وسَلْني : متى اشْتَرَيْتُهُ ؟ اشْتريتُه والله عامَ المجاعةِ ، وادَّخرْتُهُ لهذه السَّاعة ، يا غُلامُ ، الإبريق ، فَقَدَّمه ، وأخَذَهُ

---

(١٥) مجدود : أي محظوظ

(١٦) المنتاب : الذي يأتي دارك في وقت لا يأتي فيه الناس

(١٧) لآل : أصله لآلىء ، وهو جمع لؤلؤة ، ثم سهلت الهمزة فجرى مجرى قاضي ، والآل : السراب ، وهو الذي يظهر لك في الفَلَوات من بعيد كأنه ماء ، والمعنى : إن هذا العقد في الصفاء واللمعان يشبه الماء ، وفي الرقة يشبه الآل

(١٨) المنادات أي (المزاد) . أما دور الفرات ، فهي منازل أسرة كان لها هذا اللقب ، وكان بعضهم وزيراً للمقتدر بالله العباسي ، وهو علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ، وأصلهم من صريفين من أعمال دجيل وكانوا أجلّ الناس فضلاً ونُبْلاً ووفاء

(١٩) حَرَمُ الإنسان وحريمه : ما يحميه ويقاتل عنه ويمنع دونه

(٢٠) الطست والماء مفعولان لفعل مضمر . أي ت بهما

(٢١) النخاس : الذي يبيع العبيد ، ويطلق العبد على الأبيض والأسود بالسواء ، ولا يختص نوعاً دون نوع

(٢٢) خُلْقان : جمع خَلَق وهو البالي ، والأعلاق : جمع عِلْق وهو النفيس

التَّاجِرُ فقلَّبـه ، ثم قال : وأنْبوبُه منْهُ ، لا يَصلُحُ هذا الابريقُ إلاّ لهذا الطَّسْت ولا يَصلُحُ هذا الطَّسْت إلاّ مع هذا الدَّسْت[٢٣] ، ولا يَحْسُنُ هذا الدَّسْتُ إلاّ في هذا البيت ، ولا يَجْمُلُ هذا البيت إلاّ مع هذا الضَّيْف ، أرْسل المَاءَ يا غُلام ، فقَدْ حانَ وَقْتُ الطَّعام ، بالله تَرَى هذا المَاءَ ما أصْفاه ، أزْرق كَعَين السِّنَّوْر[٢٤] ، وَصاف كقضيب البِلَّوْر، استُقي من الفُرات واستُعمل بعد البيات فجاءَ كَلسان الشَّمْعَة ، في صفاءِ الدمْعة ، وليس الشَّأنُ في السَّقاء ، الشَّأنُ في الإناء ، لا يَدُلُّكَ على نظافَة أسْبابه ، أصْدَق من نَظافَة شَرَابه ، وهذا المَنْديل سلني عن قصتَّه ، فهْو نَسْجُ جُرْجان ، وَعَملُ أرَّجان ، وَقع إليَّ فاشْتَرَيتُه ، فاتَّخذَت أمْرأتي بَعْضه سرَاويلا ، واتَّخذَت بَعْضَهُ منديلا : دَخَل في سراويلها عشْرونَ ذراعاً ، وانْتزَعْتُ من يَدها هذا القَدْرَ انتزاعاً وأسْلَمْتُهُ إلى المُطرِّز حتَّى صَنعهُ كما تراهُ وَطرَّزه ، ثم ردَدْتُهُ من السُّوق ، وَخزَنْتُهُ في الصُّندوق ، وادَّخرْته للظِّراف من الأضْياف ، لم تُذلَّهُ عَرَبُ العامَّة بأيديها[٢٥] ، ولا النِّساءُ لمآقيها ، فلكُل علْق يَوْم ، ولكل آلة قوْم ، يا غُلامُ الخوان ، فَقَدْ طَالَ الزَّمان ، والقصاع ، فقَد طَال المصاع[٢٦] ، والطَّعام ، فقد كَثُرَ الكلام . فأتى الغُلامُ بالخُوان ، وَقلَّبَه التَّاجر على المكان ، وَنقرَهُ بالبنان ، وَعَجَمَهُ بالأسنان[٢٧] ، وقال : عمَّرَ اللهُ بغداد فما أجْوَدَ مَتَاعَها ، وأظْرف صنَّاعها ، تأمَّل بالله هذا الخُوان ، وانْظر إلى عَرْض مَتْنه ، وخفَّة وزْنه ، وصلابة عوده ، وحُسن شكله ، فقلتُ : هذا الشَّكل ، فمتى الأكل ؟ فقال : الآن ، عَجِّلْ يا غُلام الطَّعامَ ، لكنَّ الخُوان قوائمُه منْه[٢٨] ، قال ابو الفتح الاسكندريُّ : فَجاشَتْ نَفْسي وَقلْتُ : لقد بقي الخبز وآلاتُه ، والخُبز وصفاتُه[٢٩] ، والحنْطةُ من أين اشْتُريَتْ أصْلا ، وَكيف اكترى لها حمْلاً ، وفي أيِّ رحىً طَحَنَ ، وإجَّانة عَجَنَ ، وأي تَنُّور سَجَر ، وخبَّاز استأجر . وبقي الحطَبُ من أين احتُطبَ ، ومتى جُلبَ ؟ وكيفَ صُفِّفَ حتى جُفِّفَ ، وَحُبس حتى يبس ، وَبَقيَ الخَبَّازُ وَوَصفُهُ ، والتِّلْميذُ وَنَعتُهُ ، والدَّقيقُ وَمَدحه والخمير وَشَرْحُه ، والمِلْحُ وَمَلاحتُه ، وَبَقيت السُّكُرَّجات[٣٠] مَن اتَّخذها ، وكيفَ انْتقدها ؟ ومن استعْمَلها؟ ومَن عملَها ؟ والخَلُّ كيفَ انْتُقيَ عنَبُهُ ، أو اشْتُري رُطَبُهُ ، وكيف صُهْرِجَت معصرَتُه ؟ واستُخلِصَ لُبُّه ؟ وكيف قُيِّر حُبُّهُ[٣١] ؟ وكم يُساوي دَنُّه ؟ وبقيَ البَقْلُ كيفَ احتيل له حتى قُطفَ ،

---

(٢٣) الدَّست : صدْرُ الدار

(٢٤) السنور :القط

(٢٥) أي لم أخرجه لأحد حتى تتبذَّله العامة فتذله ، وكأنَّه جعل استعمال غير الظرف له مَذَلَّة وهواناً

(٢٦) المصاع – بكسر أوله – أصله المجالدة ، وما أشبه هذا الحديث البارد والكلام المُملَّ بالمقاتلة والمكافحة

(٢٧) أي عضه بها ليخبره . والمعنى أنه قد فعل هذه الأفعال كلها ليمتدحه

(٢٨) أي أن ظهره وقوائمه قطعة واحدة

(٢٩) المعنى : انه قد بقي أن يتكلم حينما يجيء الطعام ، على كيفية الخَبْز ويشرح كيف اشترى آلاته ، ويصفها وصفاً يطيل الأمد ، ويزيد الكمد

(٣٠) السُّكُرَّجات : جمع سكُرَّجة وهي الصحفة ، وجمعها صحاف كجفنة وجفان وزناً ومعنى

(٣١) الحُبُّ : بالضم هنا ، بمعنى الخابية كالدَّنّ ، وقُيِّر : طلى بالقار الذي هو القطران

وفي أيِّ مبْقلة[٣٢] رُصِفَ ؟ وكيف تُؤنِّقَ حتى نُظِّفَ ؟ وبَقيت المضيرةُ كيف اشتُري لَحْمُها ؟ ووُفِّيَ شحْمُها ؟ ونُصِبتْ قدْرها ، وأُجِّجتْ نارُها ، ودُقَّت أبْزارُها ، حتى أجيد طبْخُها وعُقِدَ مرَقُها ؟ وهذا خَطْبٌ يطمُّ[٣٣] ، وأمْرٌ لا يتمُّ ، فقُمت ، فقال : أيْنَ تُريد ؟ فقُلت : حاجة أقْضيها ، فقال : يا مولايَ تريدُ كنَيفاً يُزْري بربيعيِّ الأمير وخريفيِّ الوزير ، قد جُصِّصَ أعْلاه وصُهْرِجَ أسفلُه ، وسُطِّحَ سَقْفُه وفُرِشَتْ بالمَرمَر أرْضُه ، يَزِلُّ عن حائطه الذَّرُّ[٣٤] فلا يَعْلق ، ويمشي على أرضه الذُّبَاب فيزْلق ، علَيْه بابٌ ، غيرانُه[٣٥] من خليطَيْ ساجٍ وعاج ، مُزْدَوِجَيْنِ أحسنَ ازدواج ، يتمنَّى الضَّيْفُ أنْ يأكُلَ فيه ، فقلتُ : كُلْ أنتَ من هذا الجِراب ، لم يكنِ الكنيفُ في الحِساب ، وخرجتُ نحو الباب ، وأسرعتُ في الذَّهاب ، وجعلتُ أعْدو وهو يتبعُني ويصيح : يا أبا الفَتْحِ المَضيرة . وظنَّ الصِّبيانُ أن المَضيرة لقبٌ لي فصاحوا صياحه ، فرميْتُ أحدَهُم بحَجَر ، من فرْط الضَّجر ، فلقي رجلٌ الحجر بعمامته فغاصَ في هامته . فأُخِذْتُ من النِّعال بما قَدُمَ وحَدُثَ ، ومن الصَّفْعِ بما طابَ وَخبُثَ ، وحُشِرْتُ إلى الحبس ، فأقمْتُ عامين في ذلك النَّحس ، فنذَرْتُ أنْ لا آكلَ مَضيرَةً ما عِشْتُ ، فهل أنا في ذا يا لَهَمْدانَ ظالمُ[٣٦] ؟

قال عيسى بنُ هشام : فَقَبِلْنا عُذْره ، ونَذَرْنا نَذْرَهُ ، وقلنا : قديماً جَنَتِ المضيرةُ على الأحْرار ، وقدَّمت الأراذلَ على الأخْيارِ .

مقامات الهمذاني

(٣٢) المَبْقَلَة : مكان البقل الذي يزرع فيه

(٣٣) يطم : يشتد ويعظم

(٣٤) الذر : جمع ذرة ، وهي أصغر النمل

(٣٥) غيرانه : أي الفواصل بين ألواحه

(٣٦) أي : هل ظلمتكم حين أنكرت عليكم أكل المضيرة ما دام هذا هو السبب ؟ أو هل ظلمت في نَذْري هذا ؟

حديث معاذة العنبرية

الجاحظ *

حَدَّثَ شيخ فقال : لم أرَ في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أهدى اليها العام ابنُ عمٍ لها اضحية . فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة وليس لي قَيِّم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي . وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولستُ أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . ولقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه . ولكنّ المرءَ يعجز لا محالة . ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنّه يجر تضييع الكثير .

أما القرن فالوَجه فيه معروف ، وهو أن يُجعل منه كالخطاف ، ويُسَمر في جذع من أجذاع السقف ، فيُعلق عليه الزبل والكيران ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المندفة ، وبِنا الى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أنْ يكْسَر بعد أنْ يعرق ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم يرَ الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه . وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر ، لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الاهاب فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لا تُعد. وأمّا الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب .

ثم قالت : بقي الآن علينا الإنتفاعُ بالدم . وقد علمت أنّ الله – عزَّ وجلَّ – لم يُحَرِّم من الدم المسفوح إلاّ أكله وشربه ، وإنّ له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإنْ أنا لم أقعْ على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيَّةً في قلبي وقَذَىً في عيني ، وهَمّاً لا يزال يعودني .

قال : فلم ألْبَثْ أنْ رأيتها قد طلقَتْ وتبسمَتْ . فقلتُ : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم . قالت : أجَلْ ذكرتُ أنَّ عندي قدورا شامية جددا . وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزْيَد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم . وقد استرحْتُ الآن ، إذْ وقع كل شيء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك ؟ قالت بأبي أنْتَ ! لم يَجِىءْ وقت القديد بعد . لنا في الشحم والالية والجنوب والعظم المعرق وفي غير ذلك معاش . ولكل شيء ابان .

---

* الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، أبو عثمان . ولد في البصرة عام ٧٨٠ م . من أئمة الأدب واللغة ، ومن زعماء المعتزلة . أصيب بمرض الفالج في أواخر أيامه ، وانهارت فوقه مجلدات الكتب فقتلته عام ٨٦٩ م . من آثاره : (الحيوان) و (البيان والتبيين) و (سحر البيان) و (التاج) و (البخلاء) و (المحاسن والأضداد) و (النساء) و (الجواري) و (الفرق في اللغة) وغير ذلك الكثير .

وحديث آخر في البخل

... وحديث سمعناه على وجه الدهر . زعموا أنّ رجلا قد بلغ في البخل غايته ، وصار إماما ، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفدّاه واستبطأه . وكان مما يقول له : « كم مِن ارض قد قطعْتَ ، وكم من كيس قد فارَقْتَ ، وكم من خامل رَفَعْتَ ، ومن رفيع قد أخملْتَ . لك عندي ان لا تَعْرى ولا تضحى » ثم يلقيه في كيسه ويقول له : « اسكن على اسم الله في مكان لا تُهان ولا تُذل ولا تُزعج منه » . وانه لم يُدخل فيه درهما قط فأخرجه .

وإنّ أهله ألحّوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في انفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . ثم حمل درهما فقط . فبيناه ذاهب إذ رأى حَوّاء قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أَتْلِفُ شيئاً تُبذَلُ فيه النفس ، بأكلة أو شربة ؟ والله ما هذا الا موعظة لي من الله . فرجع الى أهله ، ورد الدرهم الى كيسه ، فكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت ، والحياة بدونه .

فلما مات وظنوا انهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه ، فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : « ما كان أدم ابي ؟ فان أكثر الفساد انما يكون في الإدام » قالوا : « كان يتأدم بجبنة عنده » . قال : « أرونيها » . فاذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة .

قال : « ما هذه الحفرة ؟ » قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وانما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى . قال : « فبهذا أهلكني ، وبهذا أقعدني هذا المقعد . ولو علمت ذلك ما صليتُ عليه » . قالوا : « فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ » قال : « أضعها من بعيد ، فأشير اليها باللقمة » .

البخلاء

حكايات من بخل مروان بن أبي حفصة وأبي العتاهية

ابن حمدون*

كان أبو العتاهية[1] ومروان بن أبي حفصة بخيلين يُضْرَب بهما المثل ، ويحسن فيهما قول أحمد بن أبي فنن :

وإنَّ أحقَّ الناسِ باللّومِ شاعِرٌ يلومُ على البُخْلِ الرِّجالَ ، ويَبْخلُ

وكان سَلم الخاسر سمحا ، فكان يأتي باب المهدي وعليه الثياب الجميلة ، ورائحة الطيب تفوح منه ، وتحته برذون فاره ، وكان مروان يأتي وعليه فرو كَبْلٌ منتن الرائحة وكان لا يأكل اللحم حتى يَقْرَمَ اليه ، فاذا همَّ بأكله اشترى رأسا ، فقيل له في ذلك فقال : أعرف سعره فآمن خيانة الغلام فيه ، وآكل منه ألواناً ، آكل من غلصمته لوناً ، ومن عينيه لوناً ، ومن دماغه لوناً .

* * *

وقال مروان : ما فرحتُ بشيء قط فرحي بمائة الف درهم وهبها اليّ المهدي فوزنتها فزادت درهما فاشتريت به لحما .

* * *

واشترى لحما بدرهمَ فلما وضعه في القدر وكاد أنْ ينضج دعاه صديق له ، فرده على القصاب بنقصان دانق ، فشكه القصاب وجعل ينادي : هذا لحم مروان ، وظن أنه يأنف لذلك ، فبلغ الرشيد فقال : ويلك ما هذا ؟ قال : أكره الإسراف .

* * *

ولما قال أبو العتاهية :

تعالى اللهُ يا سَلْم بن عمرو أذلَّ الحرْصُ اعناقَ الرجالِ
هَبْ الدنيا تصير اليك عفواً أليْسَ مَصيرُ ذاكَ إلى زوالِ

---

* ابن حمدون : هو محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون ، أبو المعالي بهاء الدين البغدادي . ولد عام ١١٠٢ م . كان عالماً بالأخبار ، والأدب . نادم المستنجد العباسي ، وتولى (ديوان الزمام) ولقب (كافي الكفاة) . لكن الزمان انقلب عليه ، إذ ان المستنجد قبض عليه ، وحبسه ، وبقي كذلك إلى أن توفي عام ١١٦٧ م . من آثاره : (التذكرة / خمسة أجزاء) .

(١) أبو العتاهية : اسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العَنَزي . ولد عام ٧٤٨ م في (عين التمر) بالقرب من الكوفة ، وعاش في بغداد . كان شاعراً مكثراً ، ويعد من طبقة بشار بن برد وأبي نواس . اتصل بالخلفاء ، وعلت مكانته عندهم . توفي في بغداد عام ٨٢٦ م ، وله ديوان شعر.

قال سلم : ويلي على الجرّار ابن الفاعلة قد كنز الكنوز لا يُنْفِقُ منها وينسبني الى الحرص ، ولا أملك غير ثَوْبيٍّ هذين ؟!

* * *

واجتاز مروان بامرأة من العرب فأضافتْهُ ، فقال لها : عليَّ إنْ وهب لي أمير المؤمنين مائة الف درهم أنْ أهَبَ لك درهما ، فأعطاه سبعين الفا ، فأعطاها اربعة دوانيق .

* * *

قال ثُمامة بن أشرس : أنْشَدَني أبو العتاهية :

إذا المرءُ لم يعْتِقْ من المالِ نفسَه — تَمَلَّكَهُ المالُ الذي هـو مـالِكـه
ألا إنّما مالي الذي أنـا مُنْفِقٌ — وليس لي المالُ الذي أنا تاركه
إذا كُنْتَ ذا مالٍ فبادِرْ به الذي — يـحـق وَإلاّ استَهْلَكَتْهُ مـهـالِكُه

فقلت له : من أين قضيتَ بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لك مِن مالك إلاّ ما أكَلْتَ فأفنيْتَ ، أوْ لَبِسْتَ فأبْليتَ ، أوْ أعْطيتَ فأمْضيْتَ .

فقلتُ له : هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قلت : فَلِمْ تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك لا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إنّ ما قلْتَ لَهُوَ الحق ، ولكني أخافُ الفقر والحاجة الى الناس ، قلتُ : وبماذا يزيد حال من افتقر على حالك ، وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري اللحم الا من عيد الى عيد ؟ فترك جوابي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريتُ في يوم عاشوراء لحما وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فأضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكتُ عنه ، وعلمتُ أنه ممن لم يشرح الله صدره للاسلام .

* * *

وقال له بعض اخوانه : أتزكّي مالك ؟ فقال : والله ما أنْفِقُ على عيالي إلاّ من زكاة مالي ، فقال : سبحان الله ، إنّما ينبغي أنْ تُخرج زكاة مالك الى الفقراء والمساكين . فقال لي : لو انقطعتْ عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الأرض أفْقرَ منهم .

* * *

وقيل له : مالك تبخل بما رزقك الله تعالى ؟ فقال : والله ما بخلتُ بما رزقني الله قط ، قيل له : وكيف ذلك ، وفي بيتك من المال ما لا يُحصى ؟ قال : ليس ذلك رزقي ، ولو كان رزقي انفقته .

التذكرة الحمدونية

محاورة بين ابن الأنباري وابن المعتز

الحصري*

وها هنا مساجلة جرت بين ابي بكر محمد بن القاسم الانباري[1] وأبي العباس عبد الله بن المعتز[2] ، لها في هذا الموضع موقع وهي طويلة اختصرتُ منها موضع الحاجة :

كتب ابن الانباري اليه : جرى في مجلس الأمير ذكْرُ الحسن بن هانىء والشعر الذي قاله في المجون وأنشده وهو يؤُم قوما في صلاة ؛ وهو أنّ لكل ساقطة لاقطة ، وان لكلام القوم رواة ، وكل مَقول محمول . فكان حق شعر هذا الخليع ألاَّ يتلقاه الناس بألسنتهم ؛ ولا يدوّنونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم الى متأخرهم ؛ لأن ذوي الأقدار والأسنان يَجِلّونَ عن روايته ، والأحداث يُغَشّون بحفظه ؛ ولا ينشد في المساجد ، ولا يتحمّل بذكره في المشاهد ؛ فإن صُنِع فيه غناء كان أعظم لبليته ؛ لأنه إنّما يظهر في غلبة سلطان الهوى ، فيهيج الدواعي الدنيئة ، ويقوي الخواطر الرديئة ؛ والانسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان القوى ؛ ونفسه الأمّارة بالسوء ، والنفس في انصبابها الى لذّاتها بمنزلة كوة منحدرة من رأس رابية الى قرار فيه نار ، إنْ لم تُحبس بزواجر الدين والحياء أدَّاها انحدارها الى ما فيه هلكتها .

والحسن بن هانىء ومَن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرناه شُطّار كشفوا للناس عَوَارهم ، وهتكوا عندهم أسرارَهم ، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم ، وحسنوا ركوب القبائح .

فعلى كل متدين أنْ يذم أخبارهم وأفْعالهم ، وعلى كل متصور أنْ يستقبح ما استحسنوه ، ويتنزه من فعله وحكايته . وقول هذا الخليع : تَرْكُ ركوب المعاصي إزْراء بعفو الله تعالى حَضٌ على المعاصي ان يُتَقَرَّب الى الله عز وجل بها تعظيما للعفو ، وكفى بهذا مجونا وخَلْعا داعيا الى التهمة لقائله في عظم الدين ، وأحسنُ من هذا وأوضح قول أبي العتاهية :

يَخافُ مَعاصِيه مَنْ يَتوبُ فَكَيْفَ تَرى حالَ مَنْ لا يَتوبُ

---

* ابراهيم بن علي الحصري : هو ابراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ، أبو اسحاق الحصري ، ونسبته الى عمل الحصر . وهو أديب وناقد من أهل القيروان . توفي عام ١٠٦١م . من آثاره : (زهر الآداب وثمر الألباب) و (المصون في سر الهوى المكنون) و (جمع الجواهر في الملح والنوادر) وهو صاحب قصيدة (يا ليل الصب) .

(١) ابن الانباري : هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار ، أبو بكر الأنباري . ولد في الأنبار على الفرات عام ٨٨٤ م ، وكان عالماً باللغة والأدب . يروى أنه كان يحفظ ثلاثمائة الف شاهد في القرآن : توفي في بغداد عام ٩٤٠ م . من آثاره : (الزاهر) و (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) و (ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل) و (غريب الحديث) و (الأمالي) وغير ذلك .

(٢) عبدالله بن المعتز : هو عبدالله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباس ، أبو العباس. ولد في بغداد عام ٨٦١ م ، وأصبح خليفة لمدة يوم وليلة فقط ، اذ خلع ومات خنقاً عام ٩٠٩م . من آثاره : (البديع) و (أشعار الملوك) و (طبقات الشعراء) و (الجوارح والصيد) . له ديوان شعر .

فأجابه ابن المعتز : لم يقل أبو نواس تَرْكُ المعاصي إزراءً بعفو الله تعالى ، وإنّما حكى ذلك عن متكلم غيره ، والبيت الذي أُنْشِدَ له بحضرتنا :

لا تَحْظُر العَفْوَ إنْ كُنْتَ امْرءاً حَرِجاً فإنَّ حَظْرَكَهُ بالدِّين إزْراءُ

وهذا بيت يجوز للناس جميعا استحسانه والتمثل به ، ولم يؤسس الشعر بانيه على أن يكون المبرِّز في ميدانه مَن اقتصر على الصدق ولم يغْوَ بصبوة ، ولم يُرَخِّص في هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يُغْرِق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ويكسبه معارضَ الحق ؛ ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وعدي بن زيد العبادي ؛ إذْ كانا أكثر تذكيرا وتحذيراً ومواعظ في اشعارهما من امرىء القيس والنابغة . فقد قال امرؤ القيس :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ ما نامَ اهْلُها سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ
فأصْبَحْتُ مَعْشوقاً وأصْبَحَ بَعْلُها عَلَيْه القَتامُ سيِّءَ الظَّنِّ والبالِ
يَغُطُّ غطيطَ البكْرِ شُدَّ خناقُهُ ليَقْتُلني والمَرْءُ لَيْسَ بِقتَّالِ

وقال النابغة :

وإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ اخْثَمَ رابياً مُتَحَيِّزاً بمكانِه مِلْءَ اليدِ
وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في مُسْتَهدفٍ رابي المجَسَّةِ بالعَبير مُقَرْمَدِ

وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تَعَيْهُرِهِم ومهاجاة جرير والفرزدق إلاّ على ملأ الناس و (في) حلَق المساجد ؟ وهل يروي ذلك إلاّ العلماء الموثوق بصدقهم . وقد نفى حسان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فما بلغنا ان النبي صلى الله عليه وسلم انكر ذلك عليه في هجائه حيث يقول :

وأنْتَ زَنيطٌ نيطَ في آل هاشِمٍ كما نيطَ خَلْفَ الرَّاكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

وقد زعم بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث : أنت من خير أهلي . وما نهى النبي صلى الله عليه وسلم ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن انشاد شعر عاهر ولا فاجر .

ولقد أنشد سعيد بن المسيب وغيره من نظرائه تهاجي جرير وعمر بن لجأ فجعل يقول : أكله أكله . يعني أكله جرير ولم ينكر شيئا مما سمعه .

فأجابه ابن الأنباري : قد صدق سيدنا ـ أيده الله – في كل ما قاله من الأشعار التي عدل

قائلوها عن سنن المؤمنين المتقين ، ولم أكُنْ أجْهَلُ أكثر ذلك ، إلاّ انه لم يخطر ببالي ذكرُ ما كنتُ أعرف منه في وقت كتابتي ما كتبت به ، وما كل ما يعرف الانسان يحضره ، ولا تتواتى كل وقت خواطره ؛ على أنّ الذي جرى في هذا الأمر إنّما هو على سبيل التعلم والتفهم . يذكر الذاكر شيئا قد تقدم صوابه ، فيحتج له ، وعليه فيه حجة قد تركها ، فيكشف السامع لها غطاءه مستبصرا ومذكرا ، فإنْ كان الحق ضالته وجد ما ابتغى ، وغنم ما وجد ، وإنْ أنفَ من الرجوع ، واشتد عليه النزوع ، جحد ما علم ، واحتج لما جهل ؛ لأنّ كل مطالب بباطل لا يخلو من جهل بما يدعي ، أو جهل بما يعرف ، ولم يُعْقَد - أعز الله الأمير - مجلسٌ لمناظرة في علم يعطى النظر فيه حقه الا فاز المرء فيه باستفادة صواب كان يجهله ، ورجوع عن خطأ كان يعتقده .

ولستُ أعز الله الأميرَ بمعصوم ، ومَن لم يكن معصوما لم يكن صوابه بمضمون ، ولا زلله بمأمون . وعلى حسب ما جرى تعلق قلبي بمعرفة ما تضمَنتْهُ رقعتي هذه من الأمير ، فإنْ كان لامتنانه بتعريفي ذلك في جواب عنها وجيه جرى فيه على عادة طَوْله وفضله إن شاء الله .

فأجابه ابن المعتز : إنّما أحْبَبْتُ - أعزك الله - أنْ تكون من الاخوان الذين يتجانون ثمر التناصح فيتذاكرون فيتذكرون ، ويتدارسون فيفيدون ويستفيدون ، ففتحت بيني وبينك هذا الباب آذنا لك بالولوج عليّ منه ، واثقا بكمال عقلك في المسارعة اليه ، وَصُنْتُ مودتنا عن استحسان مزور ، وتَعَمُّد الجحد في إقراره ، ومَلَق مكاشر يظهر التصديق بلا إنْكار . ولا يزال الإخوان يسافرون في المودة حتى يلقوا الثقة فتُلقى عصا التسيار ، وتطمئن بهم الدار ، وتقبل وفود النصائح ، وتؤمن خبايا الضمائر ، وتلقى ملابس التخلّق ، وتُحَل عُقَدُ التحفظ ، وقد أبعدك الله تعالى من الخطأ لما أشرق نور الصواب ، ولم لا وبلى يصطرعان على الحق ، وبالتعب وطىء فراش الراحة ؟ وبالبحث تستخرج دفائن العلوم ، ولا فرق بين إنسان يقاد وبهيمة تنقاد .

ولولا أن الناس اختلفوا متفرقين لاختلفوا متشاحّين ، ولما قصدوا بالسكنى إلاّ بقعة من الدنيا يتنافسون فيها ، ويتفانَوْن عليها ؛ وخير الاختلاف ما اجتنب معنى التمادي على الباطل فاهتدى فيه بالتبصير . كما روي أنّ عليا رضي الله عنه حاجَّ عمر رضي الله عنه في المرأة التي وضَعَتْ لستة أشهر ، فأراد عمر رجمها فقال له : قد قال الله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » . فرجع عن ذلك عمر وامضاه .

وبالتقليد هلك مُتْرَفو الكفار القائلون : «إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون » . وقال بعضهم : إذا سرَّكَ ان تعرفَ خطأ مؤدِّبك فجالس غيره . وقال عمر رضي الله عنه : ليس شيء أضرّ بالمرء من لجاجة في جهل . وانما كان يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائلَ والبحثَ لشفقته على امّته من نزول مُعْتَرِضٍ يثقل عليهم فيما يُسألون عنه ، ثم كره عمر وعلي رضوان الله عليهما ما كان يجري على سبيل التعنّت ، ويُفارق سبيل التفقّه ولذلك قال علي رضي الله عنه لابن الكوّا : سَلْ تَفَقُّهاً ولا تَسَلْ تَعَنُّتاً .

من أمثال العرب

المبرِّد *

قال أبو العباس : من أمثال العرب : لَمْ يَذْهَبْ مِن مالكَ ما وعَظَكَ . يقول : إذا ذهب من مالك شيء ، فحذرك أنْ يحل بك مثله فتأديبه إياكَ عوَضٌ من ذهابه .

ومن أمثالهم : رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثا . وتأويله أنّ الرجل يعمل العمل فلا يحكمه للاستعجال به ، فيحتاج الى أنْ يعود فينقضه ثم يستأنف ، والريث الابطاء ، وراث عليه امره إذا تأخر .

ومن أمثال العرب : عَشِّ ولا تَغْتَرَّ . وأصل ذلك أنْ يمر صاحب الإبل بالارض المكلئة فيقول : أدَعُ انْ اعَشّي إبلي منها حتى أردَ على أخرى ، ولا يدري ما الذي يرد عليه .

وقريب منه قولهم : « انْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ اكْيَس » . وتأويله أنْ يمر الرجل بالماء فلا يحمل منه اتكالا على ماء آخر يصير إليه فيقال له : انْ تحمل معك ماء احْزَمُ لك ، فإنْ أصَبْتَ ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحمل فخفقْتَ من الماء عَطِبْتَ .

ومن أمثالهم : « قد احْزِمُ لو اعْزِمُ » ، يقول : أعرف وجه الحزم فإنْ عزمتُ فأمضيتُ الرأي فأنا حازم ، وإنْ تركتُ الصوابَ وأنا أراه وضيعتُ العزم لم ينفعني حزمي ، ومثله قول النابغة الجعدي :

أبى لي البلاء وانّي امرؤ ... إذا ما تَبَيَّنْتُ لَمْ ارتَبِ

وقال أعرابي يمدح سَوّارَ بنَ عبد الله :

وأوقف عِنْدَ الأمْرِ ما لم يَضِحْ له ... وأمضي إذا ما شَكَّ مَن كان ماضيا

فالذي يُحمد امضاء ما تبين رشده ، فأما الإقدام على الغرر وركوب الأمر على الخطر فليس بمحمود عند ذوي الألباب ، وقد يَتَحَسَّنُ بمثله الفُتّاكُ ، كما قال :

عليكُمْ بداري فاهْدِموها فإنّها ... تُراثُ كَريمٍ لا يَخافُ العواقِبا

إذا هَمَّ ألقى بَيْنَ عَيْنيهِ عَزْمَه ... وَأعْرَضَ عَن ذِكْرِ العَواقب جانبا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ في رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسه ... وَلَمْ يَرْضَ إلاّ قائمَ السيفِ صاحبا

---

* المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالي الأزدي ، أبو العباس ، المعروف بالمبرِّد . ولد في البصرة عام ٨٢٦ م . كان أحد أئمة الأدب ، والأخبار ، وإمام العربية في بغداد في زمانه . توفي في بغداد عام ٨٩٩ م . من آثاره : (المذكر والمؤنث) و (المقتضب) و (التعازي والمراثي) و (شرح لامية العرب) و (اعراب القرآن) و (طبقات النحاة البصريين) وغير ذلك .

فهذا شأن الفُتاكِ وقال الآخر :

غُلامٌ إذا ما هَمَّ بالفتك لَمْ يبل الامَتْ قليلا أمْ كَثيراً عواذِلُه

وقال آخر :

وما العَجْزُ إلاّ أن تُشاوِرْ عاجِزاً وما الحَزْمُ إلاَّ أنْ تَهُمَّ فَتَفْعَلا

فأما قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مَنْ أكْثَرَ الفِكْرَةَ في العواقب لم يَشْجُعْ ، فتأويله أنّه من فكّر في ظفر قرنه به ، وعلوه عليه لم يُقدم وإنّما كان الحزم عند علي رضي الله عنه أنْ يَخْطُرَ أمْرُ الدين ثم لا يفكر في الموت . وقد قيل له : أتَقْتُل أهْلَ الشام بالغداة ، وتظهر بالعشيّ في إزار فقال لي : صَدَقْتَ ، كان أبي يقول : خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وذلك أنّه إذا كان كذلك اتقى على نفسه من السَّرَقِ لئلا يُقْطَعْ ، ومن القتل لئلا يُقاد ، ومن الزنا لئلا يُحَد ، فسلم الناس منه باتقائه على نفسه .

باب من الخطب القصار
من خطب السلف ومواعظ النساك
(وصية للأديب)

الجاحظ*

قال رجل لابي هريرة النحوي : أُريد أنْ أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ؟! قال : كفى بترك العلم إضاعة . وسمع الأحنف رجلا يقول : التعلم في الصغر كالنقش في الحجر . فقال الأحنف : الكبيرُ أكبرُ الناس عقلا ولكنه أشغلُ قلبا . وقال أبو الدرداء : مالي أرى علماءَكُم يذهبون وجُهالَكم لا يتعلمون ...؟!

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يَقْبِضُ العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلماء حتى اذا لم يَبْقَ عالم اتخذ الناس رؤساءَ جُهّالا فَسُئلوا فأفْتوا بغير علم فَضَلّوا وأضَلّوا » ولذلك قال عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه حين دُلّي زيد بن ثابت في القبر : مَن سَرَّهُ أنْ يَرى كيفَ ذَهابُ العلمِ فلينظر ، فهكذا ذَهابه . وقال بعض الشعراء لبعض العلماء :

أَبْعَدْتَ مِن يومِكَ الفِرارَ فما جاوزتَ حيثُ انتهى بكَ القدرُ
لو كانَ يُنْجي مِن الرَّدى حَذَرٌ نَجّاكَ مما أصابَكَ الحَذَرُ
يَرْحمُكَ اللهُ من أخي ثِقةٍ لَمْ يَكُ في صَفْوِ وُدِّه كَدَرُ
فهكذا يفسدُ الزمانُ ويفنى العلمُ منه وَيَدْرُسُ الاثرُ

وقال قتادة : لو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام اذ قال للعبد الصالح : « هل أتَّبِعُكَ على أنْ تُعلِّمَني ممّا عُلِّمتَ رُشدا » ؟

أبو العباس التميمي قال : قال طاوس : الكلمة الصالحة صدقة .

وعن عبد الله بن ثمامة بن أنس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فَضْلُ لِسانك تُعَبِّر به عن أخيك الذي لا لسانَ له صدقة » .

وقال الخليل : تَكَثَّرْ من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ . وقال الفُضَيل : نعمت الهدية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها الى أخيه . وكان يقال : اجعل ما في الكتب رأس مال ، وما في قلبك للنفقة . وكان يقال : يكتبُ الرجل أحْسَنَ ما سمع ، ويحفظ أحسن ما كتب . وقال أعرابي: حرف في قلبك خير من عشرة في طومارك وقال عمر بن عبد العزيز : ما قرن شيء بشيء أفضل

* تقدمت ترجمته فيما سبق

من علم إلى حلم ومن عفو إلى قدرة . وكان ميمون بن سَيّاه إذا جلس إلى قوم قال : إنا قوم منقطع بنا فحدثونا أحاديث نتجمل بها . وفخر سليم مولى زياد بزياد عند معاوية فقال معاوية : اسكت فوالله ما أدْرَكَ صاحبك شيئا بسيفه إلاّ وقد أدركتُ أكثرَ منه بلساني . وضرب الحَجّاج أعناق أسرى فلما قَدّموا اليه رجلا ليضرب عنقه قال : والله لَئِنْ كنا أسَأنا في الذَّنْبِ فما أحسنتَ في العفو ؟ فقال الحجاج : أفٍّ لهذه الجيف ، أما كان فيها أحد يحسنُ مثلَ هذا ؟ وأمسك عن القتل .

وقال بشير الرحال : إنّي لأجد في قلبي حراً لا يذهبه الاّ برد العدل أو حر السنان . وقدموا رجلا من الخوارج الى عبدالملك بن مروان لِتُضْرَبَ عنقه - ودخل على عبدالملك ابن صغير له قد ضربه المعلم وهو يبكي - فهم عبدالملك بالمعلم فقال : دعه يبكي فانه افتح لِجِرْمِه واصَحّ لبصره وأذهب لصوته ؟ فقال له عبدالملك : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال : ما ينبغي للمسلم أنْ يشغله عن قول الحق شيء .. ؟! فأمر بتخلية سبيله . وقال إبراهيم بن أدهم : أعْربنا في كلامنا فما نلحن حرفا ، ولحنّا في أعمالنا فما نُعرب حرفا وأنشد :

نُرَقِّعُ دُنيانا بتمزيق ديننا فَلا دينُنا يَبقى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال زياد على المنبر : إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة ما يقطع بها ذَنَبَ عنز مُصور لو بلغت إمامه سفك بها دمه . وعزل عمر زيادا عن كتابة أبي موسى في بعض قدْماته فقال له زياد : أعَنْ عجز أم عن خيانة ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك . وبلغ الحجاج موت اسماء بن خارجة فقال : هل سمعتم بالذي عاش ما شاء ومات حين شاء .. ؟!

وكان يقال : كدر الجماعة خير من صَفْو الفُرقة . قال ابو الحسن : مر عمر بن ذر بعبد الله ابن عياش المنتوف ، وقد كان سفه عليه ثم أعرض عنه فتعلق بثوبه فقال : يا هناه ، إنا لم نجد لك إذا عَصَيْتَ الله فينا خيرا من أنْ نطيع الله فيك !

وهذا كلام أخذه عمر بن ذر عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين قال عمر : إنّي والله لا أدَعُ حقا لله لشكاية تظهر ولا لغضب يحتمل ولا لمحاباة بَشَر ، وإنّك والله ما عاقبت مَن عصى الله فيك بمثل أنْ تطيع الله فيه . وكَتَبَ عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص : يا سعد ، سعد بني أهيب ، إنّ الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أنّ ما لك عند الله مثل الذي لله عندك .

ومات لعمر بن ذر ابن فقال : إي بني شغلني الحزن لك عن الحزن عليك ! وقال رجل من مجاشع : كان الحسن يخطب في دم فينا فأجابه رجل فقال : وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم ! فقال الحسن : لا تقل هكذا بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وآجركَ الله .

ومر رجل بأبي بكر رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله . فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاكَ الله !

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا عن شيء فقال : الله أعلم . فقال عمر : لقد شَقينا إنْ كنا لا نعلم أنّ الله أعلم ، إذا سُئِل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل : لا علم لي . وكان أبو الدرداء يقول : أبغضُ الناس إليّ أنْ أظْلمَهُ مَن لا يستعين عليّ بأحد الا بالله .

وذكر ابن ذر الدنيا فقال : كأنكم إنّما زادكم في حرصكم عليها ذم الله عز وجل لها . ونظر أعرابي إلى مال له كثير من الماشية وغيرها فقال يُنعة ، ولكل يُنعةٍ استحشاف . فباع ما هنالك من ماله ثم لزم ثغرا من ثغور المسلمين حتى مات فيه . وتمنى قوم عند يزيد الرُّقاشي فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنه . قال : ليتنا لم نخلق ، وليتنا إذْ خلقنا لم نَعْصِ ، وليتنا إذْ عصينا لم نَمتْ ، وليتنا إنْ متنا لم نُبعث ، وليتنا إذْ بعثنا لم نُحاسب ، وليتنا إذْ حوسبنا لم نُعذب ، وليتنا إذْ عُذبنا لم نخلد .

وقال الحجاج : ليت الله إذْ خلقنا للآخرة كفانا أمرَ الدنيا فرفع عنا الهَمَّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح ، أو ليته إذ وقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه . فبلغ كلامهما عبد الله بن حسن بن حسن ، أو علي بن الحسين ، فقال : ما علما شيئا في التمني ، ما اختار الله فهو خير . قال ابو الدرداء : مِن هَوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى الا فيها ولا يُنال ما عنده الا بتركها . قال شريح : الحدة كنايةِ عن الجهل . وقال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البذاء .

واذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل ، واذا قالوا للعامل مُستَقْصٍ ، فهو كناية عن الجَوْر . وقال حبيب بن أوس الشاعر أبو تمام الطائي :

كَذبْتُم ليس يزْهى مَنْ له حَسَبٌ ومَنْ لَهُ نَسَبٌ عمن له أدَبُ
إنـي لَذو عَجَبٍ منكـم أرَدِّدُه فيكم وفي عَجَبي مِن زَهْوِكُمْ عَجَبُ
لجاجَةٌ بي فيكم ليس يُشْبِهُها إلاّ لجاجَتُكُمْ في أنكم عَرَبُ

وقيل لاعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك عن ابنك ؟ قالت : إنّ مصيبته أمْنَتْني من المصائب بعده . وقال سعيد بن عثمان بن عفان لطويس المغني : أيُّنا أسَنُّ ؟ أنا أو أنت يا طويس ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ، لقد شهدتُ زفافَ أمك المباركة الى أبيك الطيب ! فانظر الى حذقه والى معرفته بمخارج الكلام كيف لم يقل : بزفاف أمك الطيبة الى أبيك المبارك ؟ وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى .

وقال رجل من أهل الشام : كنت في حلقة ابي مسهر في مسجد دمشق فذكرنا الكلام وبراعته والصمت ونبالته ، قال : كلا إنّ النجم ليس كالقمر ، إنك تصف الصمت بالكلام ولا تصف الكلام بالصمت . وقال الهيثم بن صالح لابنه وكان خطيبا : يا بني ، إذا أقللتَ من الكلام أكْثَرْتَ من الصواب واذا أكْثَرْتَ من الكلام أقْلَلْتَ من الصواب ، قال : يا أبه ، فإنْ أنا أكثرتُ وأكثرتُ ؟! يعني

كلاما وصوابا ، قال: يا بني ما رأيتُ موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك !

وقال ابن عباس : لولا الوسواس ما باليت ان لا أكلم الناس .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما تستبقوا من الدنيا تجدوه في الآخرة . وقال رجل للحسن : إني أكره الموت . قال : ذلك لانك أخَّرتَ مالك ولو قدَّمته لسرَّكَ أنْ تلحق به . وقال عامر بن الظرب العدواني : الرأي نائم والهوى يقظان ، فمن هنا يغلب الهوى الرأي . وقال : مكتوب في الحكمة : أُشكُرْ لمن أنْعَمَ عليك ، وأنْعم على من شكر لك . وقال أبو الدرداء : أيها الناس ، لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أنْ تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

وقال عبد الملك على المنبر : الا تنصفوننا يا معشر الرعية ؟ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر ؟! نسأل الله أنْ يعين كُلاً على كلّ . وقال رجل من العرب : أربع لا يَشْبَعنْ من أربع : أنثى من ذكر ، وعين من نظر ، وأرض من مطر ، وأذُنٌ من خبر .

وقال موسى عليه السلام لأهله « امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بخبر » فقال بعض المعترضين : فقد قال : « أو آتيكم بشهاب قَبَس » قال ابو عُقيل : لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل ، ومن الجائع المقرور . وقال لبيد بن ربيعة :

وَمَقامٍ ضَيِّقٍ فَرَّجْتُهُ ... بِبيانٍ ولِسانٍ وَجَدَلْ

لو يقوم الفيلُ أو فَيَّالُهُ ... زَلَّ عن مثل مَقامي وَزَحَلْ

ولدى النعمان مِنّي موطنٌ ... بين فاثورٍ أفاقٍ فالدَّحَلْ

إذْ دَعَتْني عامرٌ أنصُرُها ... فَالْتقي الالسنَ كالنَّبْلِ الدُّوَلْ

فرميتُ القومَ رشْقاً صائِباً ... ليس بالعَصْلِ ولا بالمقتَعَلْ

وانْتَضلنا وابنُ سلمى قاعِدٌ ... كعتيق الطير يُغضي وَيُجِلْ

وقَبيلٌ مِنْ لُكَيزٍ شاهِدٌ ... رَهْطَ مَرْجومٍ وَرَهْطَ ابن المُعِلْ

وقال :

وأبيضُ يجتاب الخُروقَ على الوَجى ... خَطيبا اذا التَفَّ المجامِعُ فاصلا

وقال لبيد :

لو كانَ حَيٌّ في الحياة مُخَلَّداً ... في الدهر ادركَهُ أبو يَكْسوم

بكتائبٍ خُرْسٍ تَعَوَّدَ كَبْشُها ... نَطْحَ الكِباش شَبيهَةٍ بُنجوم

ولقد بلوتُكَ وابتَلَيْتَ خَليقتي ... ولقد كَفاكَ مُعَلِّمي تعليمي

وقال لبيد :

ذهب الذين يُعاشُ في أكْنافهم   وبقيتُ في خَلْفٍ كَجِلد الأجرب
يتأكَّلون مَغالةً وخيانةً   ويُعابُ قائلهم وإنْ لم يَشْغَبِ

وقال زيد بن جندب في ذكر الشغب :

ما كانَ أغنى رِجالاً ضَلَّ سَعْيُهُم   عن الجدال وأغناهُم عن الشَغَبِ

وقال آخر في الشغب :

إني إذا عاقبتُ ذو عقاب   وإنْ تُشاغِبْني فذو شِغاب

وقال ابن احمر بن العَمَرد :

وَكَمْ حَلَّها مِن تيِّحان سَمَيذَعٍ   مُصافي النَّدى ساقٍ بسهماءَ مُطْعِمِ
طَوِي البطنِ مِتلافٍ اذا هَبَّت الصَّبا   على الأمر غَوّاصٍ وفي الحي شَيْظَمِ

وقال :

هل لامَني قومٌ لموقِفِ سائِلٍ   أو في مخاصَمَةِ اللَّجوجِ الاصْيَدِ

وقال في التطبيق :

فلما انْ بَدا القعقاعُ لَجَّتْ   على شَرَكٍ تُناقِلُهُ نِقالا
تعاوَرْنَ الحديثَ وطَبَّقْنَهُ   كما طَبَّقْتَ بالنَّعْلِ المِثالا

وهذا التطبيق غير التطبيق الأول :

وقال آخر :

لو كنتُ ذا عِلْمٍ عَلِمْتُ وكيف لي   بالعِلْمِ بعد تَدَبُّرِ الامْرِ

وقال المعترض على أصحاب الخطابة والبلاغة :

قال لقمان لابنه : يا بني ، اني قد ندمتُ على الكلام ولم أندم على السكوت :

وقال الشاعر :

ما انْ نَدِمْتُ على سكوتي مَرَّةً   ولقد نَدِمْتُ على الكلام مِراراً

وقال آخر

خَلِّ جَنْبَيْكَ لِرامٍ   وامْضِ عَنْهُ بِسَلامِ
مُتْ بداءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ   لكَ مِن داءِ الكلامِ
انما المسلم مَنْ   الْجَمَ فاهُ بِلِجامِ

وقال آخر في التحذير والاحتراس :

اخْفِضِ الصوتَ إنْ نطقتَ بليلٍ والْتَفِتْ بالنَّهارِ قبلَ الكلامِ

وقال في مثل ذلك :

لا أسال عمّا في ضمائرهم ما في ضميري لهم مني سيكفيني

وقال حمزة بن بيض :

لم يَكُنْ عن جنايةٍ لَحِقَتْني لا يساري ولا يميني جَنَتْني
بل جَناها اخٌ عليَّ كريمٌ وعلى أهْلِها براقشُ تَجْني

لان هذه الكلبة – وهي براقش – انما نبحت غزيا وقد مروا من ورائهم وقد رجعوا خائبين مخفقين ، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوها ولو سكتت كانوا قد سلموا ، فضرب ابن بيض بها المثل . وقال الأخطل :

تَنِقُّ بلا شيء شيوخُ مُحاربٍ وَما خِلْتُها كانت تَريشُ ولا تَبْري
ضَفادعُ في ظَلماء ليلٍ تَجاوبَتْ فَدَلَّ عليها صوتُها حَيَّةَ النَّهْرِ

وقالوا : الصمت حكم وقليل فاعله ، وقالوا . استَكْثَرَ من الهيبة صامتٌ . وقيل لرجل من كلب طويل الصمت : بحق ما سمتكم العلماء خُرس العرب ! فقال : أسْكُتُ فأسْلَم وأسْمَعُ فأعلم . وكانوا يقولون : لا تعدلوا بالسلامة شيئا ، (فإنك) لا تسمع الناس يقولون : جُلد فلان حين صمتَ ولا قُتِل حين سكَتَ ، وتسمعهم يقولون : جُلد فلان حين قال كذا وكذا وقُتل حين قال كذا وكذا . وفي الحديث المأثور : رحم الله مَن سكتَ فَسَلِمَ أو قال خيرا فَغَنِمَ . والسلامة فوق الغنيمة لأن السلامة أصْل والغنيمة فَرع .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله يَبْغَضُ البليغَ الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها » .

وقيل : انْ كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين : انما عاب النبي صلى الله عليه وسلم المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، وهو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر ، فَمَن تكلف ذلك منهم فهو أعيب والذم له ألزم . وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ولم يكن الناس جميعا يتمثلون بها إلاّ لما فيها من المرفق والانتفاع ، ومدار العلم على الشاهد والمثل . وإنّما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل . ولعمري إنّ الناس الى الكلام لأسرع ، لأن في أصل التركيب أنّ الحاجة الى القول والعمل أكثر من الحاجة الى ترك

العمل والسكوت عن جميع القول . وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت . وقد قال الله عز وجل « سمّاعون للكَذِب أكّالون للسُّحْتِ » فجعل سمعه وكذبه سواء . وقال الشاعر :

بني عَدِيٍ ألا يُنْهى سفيهكم إنَّ السَّفيهَ إذا لَمْ يُنْهَ مَأمورُ

وقال آخر :

فإنْ أنا لَمْ آمُرْ وَلَمْ أنْهَ عنكما ضحكتُ له حتى يَلِجَّ وَيَستشري

وكيف يكون الصمت أنفع والايثار له أفضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ! والرواة لم يرووا سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين . وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت . ومواضع الصمت المحمودة قليلة ومواضع الكلام المحمودة كثيرة . وطول الصمت يفسد البيان . وقال بكر بن عبد الله المزني : طول الصمت حُبْسَةٌ كما قال عمر ترك الحركة عُقْلَةٌ . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلّدت نفسه وفسد حسّه وكانوا يُروون صبيانهم الارجاز ويعلّمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب لأن ذلك يفتق اللَّهات ويفتح الجرم . واللسان إذا اكثرتَ تحريكه رَقّ ولان واذا اقللتَ تقليبَه وأطَلْتَ اسكاتَهُ جسا وَغَلُظ . وقال عُبابة الجُعْفيّ : لولا الدُّربة وسوء العادة لأمرتُ فتياننا ان يماري بعضهم بعضا . واية جارحة منعتَها الحركة ولم تمرنها على الأعمال اصابها من التعقد على حسب ذلك المنع .

فلِمَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنابغة الجعدي : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاك » ولم قال لكعب بن مالك : « ما نسي الله لك مقالك ذلك » ولم قال لهيذان بن شيخ : « رُبَّ خَطيب من عَبْسٍ » ؟ ولم قال لحسّان لما هيج الغطاريف على بني عبد مناف : « والله لَشِعْرُكَ أشَدُّ عليهم من وَقع السهام في غَبَشِ الظلام » ؟

وما نشك انه صلى الله عليه وسلم قد نهى عن المراء وعن التزيد والتكلف وعن كل ما ضارع الرياء أو السمعة والنفج والبذخ وعن التهاتر والتشاغب وعن المغالبة والمماتنة . فأما نفس البيان فكيف ينهى عنه وأبْيَنُ الكلام كلام الله وهو الذي مدح التبيين وأهل التفصيل !؟ وفي هذا كفاية إن شاء الله .

قال دَغفل بنُ حنظلة : إنَّ للعلم أربعا : آفة ونكداً وإضاعة واستجاعة ، فآفته النسيان ونكده الكذب وإضاعته وضعه في غير موضعه واستجاعته أنك لا تشبع منه . وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء ولخرق سياسة أكثر الرواة ، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالإزدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه وتدبر ما قد دونوه كان ذلك الإزدياد داعيا إلى النقصان ، وذلك الربح سببا للخسران .

وقد جاء في الحديث « مَنْهومان لا يشبعان منهومٌ في العلم ومنهومٌ في المال » وقالوا : علِّم علمَك وتعلم علمَ غيرك ، فاذا أنت قد علمتَ ما جهلتَ وحفظتَ ما علمتَ . وقال الخليل بن أحمد : إجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لك على ما ليس عندك . وقال بعضهم ،

وأظنه بكر بن عبد الله المزني : لا تكدوا هذه القلوب ولا تُهملوها فخير الكلام ما كان عقب الجمام ومَن أكْرَهَ بصرَهُ عَشى وعاودوا الفِكْرَ عند نَبْوات القلوب واشحذوها بالمذاكرة ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتُحنتُم ببعض الاستغلاق فإنَّ مَنْ أدامَ قرع الباب ولج . وقال الشاعر :

إذا المرءُ أعْيَتْهُ المروءةُ ناشِئاً فمطلَبُها كَهْلاً عليه شَديدُ

وقال الأحنف : السؤدد مع السواد . وتقول الحكماء : مَن لم ينطق بالحكمة قبل الاربعين لم يبلغ فيها . وأنشد :

ودونَ الندى في كلِّ قَلبٍ ثنيةٌ لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلُ
وَوَدُّ الفَتى في كلِّ نَيْلٍ يُنيلُهُ إذا ما انقضى لَوْ أنَّ نائِلَهُ جَزْلُ

وقال الهُذَلي :

وانَّ سِيادَةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لَها صُعَداءُ مَطْلَبُها طَويل
أتَرْجو أنْ تَسود وَلَنْ تَعَنَّى وكيفَ يَسودُ ذو الدَّعةِ البَخيلُ

وعن عُتْبَةَ بنِ عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : ما رأيت عقول الناس الا قريبا بعضها من بعض ، إلاَّ ما كان من الحَجَّاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . أبو الحسن قال : سمعتُ أبا الضمري الحارثي (؟) يقول : كان الحَجَّاج أحمق بنى مدينة واسط في بادية النَّبَط ثم قال لهم : لا تدخلوها ، فلما مات دَلَفوا اليها من قريب . سمعتُ قَحطبةَ الجُشَميَّ يقول : كانَ أهل البصرة لا يشكّون أنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عبيد الله ابن الحسن وعبيد الله بن سالم . وقال معاوية لعمرو بن العاص : إن أهل العراق قد قرنوا بك رجلا طويل اللسان قصير الرأي ، فأجد الحز وطبق المفصل واياك أنْ تلقاه برأيك كله ؟

البيان والتبيين

مـن رسالة التوابع والزوابع

صاحب أبي تمام

ابن شهيد *

ثمَّ انصرفنا ، وركضنا حتى انتهينا إلى شجرةٍ غيْناء[1] يتفجّرُ من أصلها عينٌ كمقلةٍ حوراء . فصاح زهير : يا عتّابُ بنَ حَبْناء ، حلَّ بك زُهيرٌ وصاحبُه ، فبعَمْروٍ والقمرِ الطّالع ، وبالرُّقعة المفكوكة الطّابِع[2] ، إلا ما أريْتَنا وجْهك ! فانفلق ماء العين عن وجه فتىً كفلقة القمر ، ثمَّ اشتقَّ الهواءَ صاعداً إلينا من قعْرها حتى استوى معنا . فقال : حيّاكَ اللهُ يا زهير ، وحيّا صاحبَك ! فقلتُ : وما الذي أسكنكَ قَعْرَ هذه العين يا عتّاب ؟ قال : حيائي من التّحَسُّن باسمِ الشِّعر وأنا لا أُحسنهُ . فصحتُ : ويلي منه ، كلامُ مُحْدَثٍ[3] وربِّ الكعْبة ! واستنشدَني فلم أُنْشِدْه إجلالاً له ، ثم أنشدتُه :

أبكَيْتَ ، إذ ظَعَنَ الفَريقُ ، فِراقَها[4]

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي :

إنّي امْرُؤٌ لَعِبَ الزّمانُ بهمّتي ،	وسُقيتُ من كأس الخُطوبِ دهاقَها
وكبَوتُ طِرفاً في العُلى ، فاستَضحكَتْ	حُمُرُ الأنامِ ، فما تَريمُ نُهاقَها[5]
وإذا ارتَمَتْ نحوي المُنى لأنالَها ،	وقَفَ الزّمانُ لها هُناك فعَاقَها
وإذا أبو يَحْيَى تأخّرُ نَفسُهُ ،	فمتى أؤمِّلُ في الزّمانِ لَحاقَها ؟[6]

فلمّا انتَهيْتُ قال : أنشِدْني من رِثائك . فأنشَدتُه :

---

* ابن شهيد : هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد من بني الوضاح من أشجع من قيس عيلان ، أبو عامر الأشجعي . ولد في قرطبة عام ٩٩٢م ، وكان وزيراً ، وهو من كبار الاندلسيين علماً وأدباً . مات في قرطبة عام ١٠٣٥م . من آثاره : (كشف الدك وايضاح الشك) و (حانوت عطار) وله ديوان شعر .

(١) الغيناء : الشجرة الخضراء

(٢) الطابع بفتح الباء وبكسرها : الخاتم يطبع به ، يشير إلى قول أبي تمام :

يا عمرو ، قل للقمر الطالع :	اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حامل	لرقعة مفكوكة الطابع

(٣) محدث : أي من الشعراء المحدثين ، والمراد بهم العباسيون الذين يميلون إلى تزويق الكلام وتمويهه

(٤) الفريق : الجماعة من الناس

(٦) طرفاً : فرساً كريماً ، منصوب على الحال . ما تريم : أي ما تترك

(٧) نفسه : همته . ورواية يتيمة الدهر : تأخر سعيه . لحاقها : الضمير يعود الى المنى ، في البيت السابق

أعينَا امْرأً نَزَحَتْ عَيْنُهُ ، ولا تَعْجبا مِنْ جُفُونٍ جِمادِ[8]
إذا القلبُ أحْرَقَهُ بَثُّهُ ، فإنَّ المدامعَ تِلْوُ الفُؤاد
يَوَدُّ الفتى مَنْهلاً خالياً ، وسَعْدُ المنيّةِ في كلّ وادِ[9]
ويَصْرفُ للكونِ ما في يديه ، وما الكَونُ إلاّ نذيرُ الفَسادِ[10]
لَقَدْ عَثَرَ الدَّهْرُ بالسّابقينَ ، ولم يُعجِزِ الموتَ رَكْضُ الجَوادِ
لَعَمْرُكَ ما رَدَّ رَيْبَ الرّدى أريبٌ ، ولا جاهدٌ باجْتهاد
سهامُ المنايا تُصيبُ الفتى ، ولَوْ ضَرَبوا دُونَه بالسِّدادِ
أصَبْنَ ، على بَطْشِهِمْ ، جُرْهُماً ، وأصْمَيْنَ ، في دارِهِمْ ، قومَ عادِ
وأقْعصْنَ كلباً على عِزِّهِ ، فما اعتزَّ بالصّافناتِ الجِيادِ[11]

الى أن انتهيت فيها الى قولي :

ولكنّني خانَني مَعْشَري ، وَرُدْتُ يَفاعاً وبِيلَ المرادِ[12]
وهل ضَرَبَ السَّيْفُ من غير كفٍّ وهل ثَبَتَ الرّأسُ في غير هاد ؟

فقال : زِدْني من رِثائك وتحريضك ؛ فأنشدتُه :

أفي كلّ عامٍ مَصْرَعٌ لعَظيمِ ؟ أصابَ المَنايا حادثي وقَديمي
هَوى قمرا قيسِ بنِ عَيْلانَ آنفاً ، وأوحَشَ مِنْ كلبٍ مكانُ زعيمِ[13]
فكيفَ لِقائي الحادثاتِ إذا سَطَتْ ، وقد فَلَّ سَيْفي مِنهُمُ وعزيمي ؟
وكيف اهْتدائي في الخُطُوبِ إذا دجَت وقد فقَدَتْ عَيْنايَ ضَوءَ نُجُومِ ؟
مضى السَّلَفُ الوَضّاحُ إلاّ بَقيّةً ، كغُرَّةِ مُسْوَدِّ القميصِ بَهيمِ[14]

---

(٨) نزحت : نفد ماؤها . جماد : جمع جمد بفتح فسكون ، بمعنى جامد ، سمي بالمصدر .
(٩) في كل واد : إشارة إلى المثل السائر : بكل واد بنو سعد . قيل إن الأضبط بن قريع السعدي تحول عن قوم ، وانتقل في القبائل ، فلما لم يحمد جوارهم رجع إلى قومه ، وقال المثل .
(١٠) يصرفه : يفلته ، ويجعله ينصرف ، أو هو بمعنى ينفقه .
(١١)أقعصن : قتلن . كلب : هو كلب بن وبرة أبو قبيلة يمانية مشهورة . الصافنات : صفة للخيول إذا قامت على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة .
(١٢) ردت ، من راد : طلب الكلأ . اليفاع : التل . وبيل : وخيم المرعى . المراد : الموضع الذي يطلب فيه الكلأ .
(١٣) : قيس بن عيلان : صوابه قيس عيلان ، وهو أبو قبيلة مضرية مشهورة ، وعيلان اسم فرسه ، مضاف اليه واسم قيس الناس بن مضر ، وأخوه إلياس المعروف باسم خندف ، والمراد بالقمرين قيس وعيلان .
(١٤) الغرة : ليلة استهلال القمر ، ومن الهلال طلعته ، مسود القميص : أي الليل . البهيم : الأسود . هذه القصيدة قالها في رثاء أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبيدة ، وزير عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة .

ومنها :

رَمَيْتُ بها الآفاقَ عَنّي غريبةً ، نتيجةَ خَفّاقِ الضلوعِ كَظيم

لأبدي إلى أهلِ الحجى من بَواطني ، وأُدْلي بعُذرٍ في ظواهرِ لُوم [15]

أنا السّيفُ لم تَتعبْ به كَفُّ ضاربٍ ، صَرومٌ إذا صادَفتْ كَفٌّ صَرُوم

سَعَيتُ بأحرارِ الرِّجالِ ، فَخانَني رجالٌ ، ولمْ أُنجَدْ بِجِدٍّ عَظيم

وضَيَّعني الأمْلاكُ بَدْءاً وعودَةً ، فضِعتُ بدارٍ منهُمُ وحَريم

فقال : إن كُنتَ ولا بُدَّ قائلاً ، فإذا دعتْكَ نفسُك إلى القولِ فلا تَكُدَّ قريحتك ، فإذا أكْمَلْتَ فَجَمامُ ثلاثةٍ[16] لا أقلُّ . ونَقِّحْ بعدَ ذلك ، وتذكَّرْ قولَه[17] :

وجَشَّمَني خَوفُ ابنِ عَفّانَ رَدَّها ، فَثَقَّفتُها حَولاً كَريتاً ومَرْبَعا [18]

وقَد كانَ في نفسي عليها زيادَةٌ ، فَلَمْ أرَ إلاَّ أنْ أُطيعَ وأسمَعا

وما أنتَ إلاَّ مُحسنٌ على إساءةِ زمانِكَ . فقبَّلْتُ على رأسِه ، وغاصَ في العين .

---

(١٥) اللوم : مخفف اللؤم .

(١٦) فجمام ثلاثة : أي فراحة ثلاثة أيام .

(١٧) قوله : أي قول سويد بن كراع العكلي ، وهو شاعر أموي هجا بعض قومه ، فاستعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلبه ليضربه ويحبسه ، فهرب منه ولم يزل متوارياً حتى عفا عنه .

(١٨) ردها : الضمير لقصيدة الهجاء . حول كريت : سنة تامة . المربع : الموضع يقيمون فيه أيام الربيع ، والمراد هنا مدة الإقامة فيه . ورواية الأغاني : ورعيتها صيفاً جديداً ومربعا .

صاحب بديع الزمان

وكان فيما يقابلُني من ناديهم فتىً قد رماني بطَرْفه ، واتّكأ لي على كفّه ، فقال : تَحَيَّلٌ على الكلام لطيفٌ ، وأبيك ! فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أوَ ما علمتَ أنَّ الواصفَ إذا وصَفَ شيئاً لم يُتقدّم إلى صفته ، ولا سلّط الكلامَ على نَعْته ، اكتفى بقليل الإحسان ، واجتزى[1] بيسير البيان ؟ لأنه لم يتقدَّمْ وصفٌ يُقْرَنُ بوصفه ، ولا جَرى مَساقٌ يُضافُ إلى مساقه . وهذه نُكتةٌ بغْدَاذيّة ، أنّى لكَ بها يا فتى المغرب ؟

فقلتُ لزُهير : مَنْ هذا ؟ قال : زُبْدةُ الحِقَب ، صاحب بديع الزمان . فقلتُ : يا زُبْدةَ الحِقَب ، اقترِح لي . قال : صِفْ جاريةً . فوصفْتها . قال : أحسنتَ ما شئتَ أن تُحسِن ! قلتُ : أسمِعْني وصفَك للماء[2] . قال ذلك من العُقْم[3] . قلت : بحياتي هاته . قال : أزرقُ كعين السِّنّور، صافٍ كقضيب البلّور ؛ انتُخِبَ[4] من الفُرات[5] واستُعمِل بعد البيات[6] ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة .

فقلتُ : انظُرْه ، يا سيّدي ، كأنّه عصيرُ صباح ، أو ذَوبُ قمرٍ لَيَاح[7] ؛ يَنصبُّ من إنائه ، انصبابَ الكوكبِ من سمائه ؛ العينُ[8] حانُوتُه ، والفمُ عفريتُه ، كأنّه خيطٌ من غَزْل فَلَق ، أو مِخْصَرٌ[9] يُضرَبُ به من وَرِق[10] ؛ يُرفَعُ عنكَ فتردى[11] ، ويُصدَعُ[12] به قلبُكَ فتحْيا .

فلمّا انتهَيتُ في الصِّفة ، ضرَب زُبدةُ الحقَبِ الأرضَ برِجْله ، فانفرجتْ له عن مثل بَرَهُوت[13] ، وتدَهْدى[14] إليها ، واجتمعتْ عليه ، وغابت عينُه ، وانقطع أثرُه . فاستضحك الأستاذان من فِعله ، واشتدَّ غيظُ أنف النّاقة عليَّ .

(١) اجتزى : اكتفى ، لغة في اجتزأ .
(٢) وصف الماء لبديع الزمان في المقامة المضيرية .
(٣) من العقم : أي لا يولد شبيه له .
(٤) انتخب : في المقامة المضيرية : استقي .
(٥) الفرات : الماء العذب ، أو لعله أراد به دجلة ، لأن قصة المضيرة وقعت في بغداد ، يقال الفراتان ، أي الفرات ودجلة .
(٦) البيات : أي أن يبيت الماء في إناء تحت السماد ليبرد ، ويصفى .
(٧) لياح : أبيض ناصع .
(٨) العين : أي عين الماء .
(٩) المخصر : رواية يتيمة الدهر : المخصرة ، وهي قضيب كان الأمير يأخذه بيده ، يشير به ويصل به كلامه .
(١٠) الورق : الفضة .
(١١) تردى : أي تهلك عطشاً .
(١٢) يصدع : يشق .
(١٣) برهوت : واد أو بئر بحضرموت .
(١٤) تدهدى : تدحرج .

من رسالة الغفران

مع زهير بن أبي سلمى

أبو العلاء المعري*

وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقول في نفسه : لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما ؟ فإذا قرب إليهما رأى على أحدهما مكتوباً : « هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزنيّ » وعلى الآخر : « هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي »[1] فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية ، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء ؛ وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غفر لهما . فيبتدىء بزهير فيجده شاباً كالزهرة الجنية ، قد وهب له قصر من ونية[2] ، كأنه ما لبس جلباب هرم ، ولا تأفّف من البرم . وكأنه لم يقل في الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعشْ ثمانين حولاً ، لا أباً لك ، يسأم !

ولم يقل في الأخرى :

ألم ترني عمِّرت تسعين حجّةً ، وعشراً تباعاً عشتها ، وثمانيا ؟

فيقول : جير جير[3] ! أأنت أبو كعب وبجير ؟ فيقول : نعم . فيقول ، أدام الله عزه : بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس همل[4] ، لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول : كانت نفسي من الباطل نفوراً ، فصادفت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم جبلاً نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الأرض سلم ؛ فعلمت أنه أمر من أمر الله ، فأوصيت بني وقلت لهم عند الموت : إن قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين . وقلت في الميمية ، والجاهلية على السكنة ، والسفه ضارب بالجران[5] :

---

* أبو العلاء المعري : هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري . ولد في معرة النعمان عام ٩٧٣م ، وأصيب بالعمى في الرابعة من عمره ، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . سافر الى بغداد عام ٣٩٨ هـ ، وأقام هناك سنة وسبعة أشهر ، ومات في معرة النعمان عام ١٠٥٧م فوقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . اشتهر بارتدائه خشن الثياب ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . من آثاره : ديوان شعر في ثلاثة أجزاء هي : (لزوم ما لا يلزم / اللزوميات) و (سقط الزند) و (ضوء السقط) ومن مؤلفاته أيضاً : (الايك و الغصون / أكثر من مائة جزء) و (تاج الحرة) و (عبث الوليد) و (رسالة الملائكة) ، وغير ذلك .

(١) الأبرص الأسدي : هو أحد مشاهير شعراء الجاهلية وقد قتله المنذر بن ماء السماء لأنه قدم اليه في يوم بؤسه . وهو من بني أسد بن خزيمة بن مدركة .

(٢) ونية : اللؤلؤة .

(٣) جير : نعم .

(٤) همل : شأنهم مهمل ليس لهم من يرعاهم .

(٥) السفه ضارب بالجران : أي ثابت ومقيم . كقولك : ضارب الأطناب .

فـلا تكتمـنَّ اللـــه ما في نفوسكم ليخفـى، ومهما يكـتـم اللــه يعـلـم
يـؤخر ، فـيوضـع فـي كـتـابٍ ، فـيدْخـر ليـوم الحساب ، أو يـعـجـل فـينـقـم

فيقول ألست القائل :

وقــد أغــدوا عـلـى ثـبـةٍ كــرامٍ نشـاوي واجـديــن لـمـا نشـاء[٦]
يــجــرّون الــبــرود وقــد تمـشّتْ مــحـيًا الـكـأس فـيـهـم والـغـنـاء

أفأُطلقت لك الخمر كغيرك من أصحاب الخلود ؟ أم حرمت عليك مثلما حرِّمت على أعشى قيس ؟ فيقول زهير : إن أخا بكر[٧] أدرك محمداً فوجبت عليه الحجة ، لأنه بُعث بتحريم الخمر ، وحظر ما قبح من أمر ؛ وهلكت أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يشربها أتباع الأنبياء ، فلا حجة علي .

فيدعوه الشيخ الى المنادمة ؛ فيجده من ظراف الندماء ، فيسأله عن أخبار القدماء .

ومع المنصف[٨] باطية من الزمرد ، فيها من الرحيق المختوم شيء يمزج بزنجبيل ، والماء أُخذ من سلسبيل . فيقول ، زاد الله في أنفاسه : أين هذه الباطية من التي ذكرها السروي في قوله :

ولــنــا بـاطـيــةٌ مـمــلــوءةٌ جـونـةٌ ، يتبعـهـا بـرذيـنـهـا[٩]
فــإذا مــا حــاردت أو بــكــأت فـتّ عن خـاتم أخـرى طـيـنـهـا ![١٠]

---

(٦) ثبة : جماعة من القوم .
(٧) المقصود به الأعشى .
(٨) المنصف : الخادم .
(٩) برذينها : اناؤها الذي يستعمل لشرب الماء .
(١٠) حاردت : تنحّت واعتزلت . – بكأت : قلّت .

مـع الامـام عـلـيّ

فأظهرت الوله والجزع ، فقال أمير المؤمنين : لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة ؟ فقلت : نعم ، قاضي حلب وعدولها . فقال : بمن يُعرف ذلك الرجل ؟ فأقول : بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب ، حرسها الله ، في أيام شبل الدولة فأقام هاتفاً يهتف في الموقف : يا عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدولة هل معك علم من توبة علي بن منصور بن طالب الحلبي الأديب ؟ فلم يجبه أحد . فأخذني الهلع[1] والقل ، أي الرعدة ، ثم هتف الثانية ، فلم يجبه مجيب . فليح بي عند ذلك ، أي صرعت الى الأرض ، ثم نادى الثالثة فأجابه قائل يقول نعم قد شهدت توبة علي بن منصور ، وذلك بأخرة من الوقت وحضرت متابه عندي جماعة من العدول ، وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها ، والله المستعان . فعندها نهضت وقد أخذت الرمق[2] ، فذكرت لأمير المؤمنين ، عليه السلام ، ما ألتمس ، فأعرض[3] عني وقال : انك لتروم حدداً[4] ممتنعاً ، ولك أسوة بولد ابيك آدم .

وهممت بالحوض فكدت لا أصل اليه ، ثم نغبت[5] منه نغبات لا ظمأ بعدها واذا الكفرة يحملون انفسهم على الورد ، فتذودهم[6] الزبانية بعصي تضطرم ناراً ، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده وهو يدعو بويل وثبور[7] .

---

(١) الهلع : الخوف .
(٢) الرمق : تنفس الصعداء .
(٣) أعرض : أدار وجهه .
(٤) حدداً : حدوداً .
(٥) نغبت : شربت .
(٦) تذودهم : تدفعهم
(٧) ثبور : العذاب .

وأما الذين ذكرهم من المصحفين ، فغير البررة ولا المنصفين . وما زال التتفل[1] يعرض لأذاة الأسد ، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد ، فاذا ادلج ورد[2] هموس ، تشقى به التامكة[3] ، أو اللموس ، فثعالة به منذر ، كأنه للمفترس مخذر ، ولا يراه الضيغم موضعاً للعتاب ، ويجعل أمره فيما يحتمل من الخطب المنتاب . وكم من أغلب مثار ، يسهد لغناء الطيثار[4] ، واذا هو بليل تغنى ، فالقَسْوَرُ به معنى :

– ما يضر البحر أمسى زاخراً   أن رمى فيه غلام بحجر

* * *

– أو كلما طن الذباب أروعه ؟   ان الذباب اذاً عليّ كريم !

وما زال الهمج يقولون ، ويقصرون عن المكرمة فلا يطولون ، وانهم عما أثل[5] متثاقلون ، وطلاب الأدب في جباله واقلون[6] .

من انفرد بفضيلة أثيرة ، فانه يتقدم بمناقب كثيرة ، وان حساد البارع لكما قال الفرزدق :

فان تهْجُ آل الزبرقان ؛ فانما   هجوت الطوال الشم من آل يذبل

وقد ينبح الكلب النجوم ودونها   فراسخ تقصي ناظر المتأمل

يعدو على الحاسد حسده ، ويذوب من كبت جسده :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم   أباً عن كليبٍ ، أو أباً مثل دارم ؟

فأما ما ذكره من قول أبي الطيب : « أذم الى هذا الزمان أهيله »

فقد كان الرجل مولعاً بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير ؛ كقوله :

من لي بفهم أهيل عصر يدعي   ان يحسب الهندي فيهم باقل ؟[7]

وقوله : « حُبيِّبتا قلبي ، فؤادي هيا جمل »

(١) التتفل : الثعلب .
(٢) ورد : اسم آخر للأسد .
(٣) التامكة : الناقة العظيمة السنام .
(٤) الطيثار : البعوض .
(٥) أثل : عمر وابتنى .
(٦) واقلون : صاعدون .
(٧) باقل هو الذي يضرب به المثل في العيي .

وقوله : « مقالي للأحيمق يا حليم »

وقوله : « ونام الخويدم عن ليلنا »

وقوله : « أفي كل يوم تحت ضبني شويعر »

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه ، ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطبع ، فما حسن بها مألوف الربع ، ولكنها تغتفر مع المحاسن ، والشام[8] قد يظهر على المراسن[9] .

وهذا البيت الذي أوله : « أذم الى هذا الزمان أهيله »

انما قاله في علي بن محمد بن سيار بن مكرم بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان ، والشعراء مطلق لهم ذلك، لأن الآية شهدت عليهم بالتخريص[10] وقول الأباطيل : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

وأهلٌ كلمةٌ أصل وضعها للجماعة ، فيقال : ارتحل أهل الدار ، فيعلم السامع ان المتكلم لا يقصد واحداً بما قال ؛ الا أن هذه الكلمة قد استعملت للآحاد ، فقيل : فلان أهل الخير وأهل الاحسان ؛ قال حاتم الطائي :

ظلتْ تلـوم علـى بكـرٍ سمحت بـه ان الرزيئة في الدنيا ابـن مسعود[11]

غـادره القـوم بالمعـزاء منجـدلاً ، وكـان أهـل النـدى والحـزم والجـود[12]

وكأن هذه اللفظة أصلها أن تكون للجمع ، ثم نقلت الى الواحد ، كما أن صديقاً وأميراً ونحوهما انما وضعن في الأصل للأفراد ، ثم نقلن الى الجمع على سبيل التشبيه . وكذلك قولهم : بنو فلان أخ لنا . ويقال : أهل وأهلة ، وأهلات في الجمع ، قال الشاعر :

فـهـم أهـلات حـول قـيس بن عـاصـم اذا أدلجـوا بـالـليـل ، يـدعـون كـوثـرا

وقال بعض النحويين في تصغير آل الرجل : يجوز أويل وأهيل كأنه يذهب الى أن الهاء في أهل أبدلت منها همزة ، فلما اجتمعت الهمزتان جعلت الثانية ألفاً ، ومثل هذا لا يثبت . والأشبه أن يكون آل الرجل ، مأخوذاً من آل يؤول ، اذا رجع ، كأنهم يرجعون اليه أو يرجع اليهم .

وأما ما ذكره من حكاية القطربلي وابن أبي الأزهر فقد يجوز مثله ، وما وضح أن ذلك الرجل[13] حبس بالعراق ، فأما بالشام فحبسه مشهور .

وحُدِّثتُ أنه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال : هو من النبوة ، أي المرتفع من

---

(٨) الشام : الخال

(٩) المراسن : الخد .

(١٠) التخريص : التخرص : النفاق .

(١١) البكر : فتي الإبل .

(١٢) المعزاء : الأرض الصلبة .

(١٣) المقصود هنا المتنبي .

الأرض ، وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه . وانما هي مقادير ، يديرها في العلو مدير ، يظفر من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق .

وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألهاً ، ومثل غيره من الناس متدلهاً ، فمن ذلك قوله :

ولا قابلاً الا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزي بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

واذا رجع الى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً ، وانما يجعل ذلك تزيناً ، يريد أن يصل به الى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة[١٤] أمُّ الفناء ، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون ، وفيما بطن ملحدون .

(١٤) الخالبة : الخادعة .

من النثر العربي الحديث

مستودع الذخائر

أحمد أمين*

أين – تظن – مستودع الذخائر للأمة ؟

قد تجيب على الفور : إنه المطارات ، ومخازن الأسلحة ، ومستودع القنابل ، وما إلى ذلك من أماكن تكدس فيها آلات القتال وأدوات الحرب .

إن أجبت بذلك فقد أجبت بالعرض دون الجوهر ، وبالمجاز دون الحقيقة . وقد تتفلسف قليلا ، فتقول : ان ذخيرة الأمة هي جيشها المسلح بعدده وعُدده ، ومرانه وتجهيزه ، وفنونه وتشكيله .

ان قلتَ ذلك فقد قاربتَ الصواب ولم تقله ، وحُمْتَ حوله ولم تقع عليه . فما قيمة الذخائر اذا لم تجد رجالاً ؟ وما ينفع السيف اذا لم تك قتّالا ؟ ان السيف في يد الغر والحاذق كالقلم في يد الأمي والكاتب ؛ بل ما ينفع الجندي المسلح ، ان لم يكن بين جنبيه قلب لا يهاب ونفس لا تفزع ؟

* * *

الاجابة الحقة هي أن مستودع الذخائر للأمة ، قلب المرأة ، قلب المرأة هو الجيش الأول الذي لا قيمة لقنابل ، ولا طيارات ، ولا غوّاصات ، ولا دبابات ، بدونه . وان شئت فقل هو الطابور الخامس الذي لا يوقع الرعب والفزع في قلوب الأعداء شيء مثله .

لقد خُلقت المرأة من ضلع من أضلاع الرجل ، ولكن سرعان ما تغير الحال فخلق قلب الرجل من قلب المرأة .

* * *

يخطىء من يظن أن لبن الأم ليس الا نسبة معينة من الدسم ، ونسبة معينة من الماء ، وما الى ذلك ؛ فليس هذا كله الا تحليلا للمادة ، وليست المادة كل شيء في اللبن ؛ وانما قصر تحليل

---

* أحمد أمين : هو ابن الشيخ ابراهيم الطباخ . ولد في القاهرة عام ١٨٧٨ م وتوفي فيها عام ١٩٥٤ م . درس في الأزهر الشريف ، ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، وعمل مدرساً فيها ، وتولى القضاء في بعض المحاكم الشرعية . عمل بعد ذلك مدرساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وأصبح عميدها عام ١٩٣٩ م ثم مديراً للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية عام ١٩٤٧ حتى وافته المنية . أشرف على « لجنة التأليف والترجمة والنشر » في مصر مدة ثلاثين عاماً . من آثاره : (فيض الخاطر) ويقع في ستة أجزاء هي مجموع مقالاته التي كتبها في المجلات والصحف وخاصة مجلتي الرسالة والثقافة . وهو صاحب (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) و (ظهر الاسلام) و (يوم الاسلام) و (النقد الأدبي / جزآن) و (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) و (الى ولدي) و (حياتي) و (قاموس العادات) و (الصعلكة والفتوة في الاسلام) كما ترجم كتاب (مبادىء الفلسفة) .

الكيمياويين فقصرت نتائجهم . ان في اللبن صفات خلقية ، وصفات عقلية ، وصفات روحية ، وراء الصفات المادية ، يرضعها الطفل كما يرضع مادة اللبن ، فتتغذى بها روحه ، وتتشكل منها نفسه ؛ وليست هذه الصفات الروحية متطابقة دائماً مع الصفات المادية ، فقد يحلل اللبن في معامل الكيمياء فيتبين من تحليله أنه المثل الأعلى للبن ، وهو مع ذلك سم خلقي ينفث الجبن ، ويشيع الفساد ، ويبعث الفزع والخور ؛ على حين أن لبناً آخر ينقصه الدسم ويعيبه التحليل الكيماوي ؛ وهو مملوء روحا ، ومملوء شجاعة ونشاطا ، ومملوء قوة ؛ ومن أجل ذلك صدق الشاعر اذ يقول :

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزْدَريهِ ... وَفي أَثْوابِهِ أَسَدٌ مَزيرُ
وَيُعْجِبكَ الطَّريرُ فَتَبْتَليهِ ... فَيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

ثم الى اللبن الذي ترضعه الأم أولادها توعز اليهم الجبن أو الشجاعة بسلوكها ؛ فإن هي ربتهم تربية الأرانب فأدفأتهم وأشبعتهم ، وأحاطتهم بكل ضروب العناية ، ولم تسمح لهم أن يجربوا وأن يخاطروا وأن يجازفوا ، ثم حدثتهم من الأحاديث ما يخلع قلوبهم ، ويحبب اليهم الحياة بأي ثمن ، وعلمتهم أن لا قيمة للعقيدة بجانب حياتهم ولا للوطن بجانب سلامتهم ، وصاحت وولولت يوم يجندون ، وفقدت رشدها يوم يسلحون ، فهناك ترى صورة جند ولا جند ، وترى أشكال الرجال ولا رجال ، وترى أجساماً ضخاماً وقلوباً هواء . وان هي ربتهم من صغرهم على المخاطرة والمجازفة ، وحدثتهم أحاديث الأبطال وعظماء الرجال ، وعودتهم مكافحة الحياة والتغلب على الصعاب ، وعلمتهم ان المبادىء فوق الأشخاص ، والوطن فوق حياة الأفراد ، وعيرتهم يوم يفرون من واجب ، وأنّبتهم يوم يأتون بنقيصة ، وفخرت بهم يوم يضحون لمبدأ ، واعتزت بهم يوم يخاطرون لأمة ، فهناك الرجال ، وهناك العزة ، وهناك الشرف .

ألست ترى معي بعد أن قلب المرأة هو الذي يخلق قلب الرجل ؟

ويخطىء من يظن أنه يستطيع أن يؤسس جيشا من رجال بإعدادهم وتسليحهم من غير أن يدعمه بجيش من قلوب النساء ؛ فالجيش بدون قلوب آلات جوفاء ، وسراب ولا ماء ؛ بل كل مظاهر القوة في الأمة من جيوش وأساطيل ، ومجلس وزراء ، ومجالس نيابية ، ومصانع ومعامل ، ألعاب بهلوانية ما لم يدعمها قلب المرأة .

* * *

قلّب صفحات التاريخ إن شئت ، فحيثما رأيت للأم قلباً رأيت للرجل قلباً ، فإذا انخلع قلبها انخلع قلبه .

ان هندا بنت عتبة التي تخاطب الجيش بقولها :

إنْ تُقبلوا نعانِقِ أو تُدْبروا نفارِقِ فراقَ غير وامِقِ

هي التي انجبت معاوية .

وأسماء بنت أبي بكر التي قالت لابنها : يا بني لا ترضى الدنية ، فإن الموت لا بد منه . فلما قال لها : إني أخاف ان يُمَثل بي ، قالت : ان الكبش اذا ذُبِحَ لا يؤلمه السلخ – هي التي انجبت عبدالله بن الزبير .

والتاريخ مملوء بهذه الشواهد في كل أمة .

وظلت المرأة العربية على شهامتها ومعرفتها بأمور الدنيا ، ومشاركتها الرجل في كل شؤون الحياة ، حتى تقدم العصر العباسي فانشىء لها "الحريم" وحبست فيه ، وجهلت الدنيا وأحوالها ، وأخذ الرجال يجهلون الحرائر ويعلمون الاماء ، حتى أصبحت المرأة ليست إلا رمزاً للمتعة أو رمزاً للكيد ؛ وتجادل الشعراء ، فمنهم من يقول :

إنَّ النِّساءَ رَياحينٌ خُلِقْنَ لَنا   وَكُلُّنا نَشْتَهي شَمَّ الرياحين

ومنهم يقول :

إنَّ النِّساءَ شَيَاطينٌ خُلِقْنَ لَنا   نَعوذُ بِاللهِ مِنْ شرِّ الشَّياطين

وكلا النظرين سخيف قاصر ؛ فليست المرأة ريحانة فحسب ، ولا شيطانة فحسب ؛ وانما هي فوق ذلك مَرْبى للرجال ومحصنة للقلوب ومستودع للذخائر .

بمثل هذه النظرات البلهاء فقدنا المرأة ففقدنا الرجل ؛ فإن أردنا تنظيم حياتنا على أسس جديدة وجب أن يكون أولها وأولاها خلق قلب المرأة .

ليس ما يمنع ان تحيا المرأة حياة الجمال ، بل هو واجب أن يكون ؛ وما قيمة الدنيا اذا لم تقم فيها دولة الجمال ، ودولة الفن والأدب ؟ ولكن يجب أن يكون بجانب الجمال الحسي جمال معنوي ؛ فيه جمال حديث المرأة ، وجمال رقيها وخبرتها وجمال شجاعتها وجمال قلبها ، فعند ذلك نجد المرأة فنجد الرجل .

انظر الآن دور المرأة الغربية في الحرب ، ولا أقص عليك الا مثلا واضحاً تلمسه في كثير مما يدور من قصص وما يتلى من أخبار ، وهو أن الشبان والرجال يتعيرون كل العار أن يُروا في بلادهم أيام الحرب وهم لا يحملون السلاح ، ولا يشتركون في القتال أو وسائل القتال ، ويحز في نفوسهم أنْ قد أصيبوا بعاهة أو منعهم مانع جسمي عن أن يؤدوا لوطنهم خدمة ولأمتهم عملاً ؛ ومن يقوم بهذا الدور الخطير من تأنيب وتعبير غير نساء الأمة ؟ فتكفي نظرة من احداهن ليفضل الرجل الموت على الحياة ، وخطر الحرب على أمن السلم ، وعيشة القتال على عيشة الدعة .

كل هـذا يلخص لنا الأمر في جملة : شـجعت المرأة فشـجع الرجـل ، وماعت المرأة فمـاع الرجل .

* * *

ليست تُعَد الأمة راقية تستحق البقاء الا اذا أرسلت الأم إبناءها الى ميادين القتال وهي تبتسم ، وودعت الزوجة زوجها الى الحرب وهي تملؤه أملاً بالعيشة السعيدة بعد النصر ، وقالت الأمهات لابنائهن ما قالت "أسماء" : "ان ضربة بسيف في عز خير من لطمة في ذل" .

* * *

ان وراء كل جيش في الأمة جيشاً غير منظور من قلوب نسائه ، ووراء كل جيش صاخب جيش المرأة الصامت ، ووراء البنود والاعلام والجنود والذخائر ذخيرة أسمى وأرقى وأقوى وأغلى ، وهي "قلب المرأة" .

فيض الخاطر

الامتحانات وتيسير الامتحانات العامة

طه حسين*

وهناك مشكلة عسيرة الى أبعد حدود العسر ، سخيفة الى أقصى غايات السخف ، يتأثر بها تعليمنا كله على اختلاف أنواعه وألوانه أشد التأثر ، فيفسد بها أعظم الفساد ، وهي لا تفسد التعليم وحده ولكنها تفسد معه الأخلاق ، وتكاد تجعل بعض المصريين لبعض عدوا ، وهي لا تفسد التعليم والأخلاق فحسب ولكنها تفسد السياسة أيضا وتكاد تجعل التعليم خطرا على النظام الاجتماعي نفسه ، وأظنك قد عرفت هذه المشكلة ، ولم تحتج الى أن أسميها لك ، فهي مشكلة الامتحان .

وكل ما أرجوه منك الا تظن بي الغلو والاسراف ، وأن تفكر معي مستأنياً متمهلاً . وأنا واثق بأنك ستشعر بما أشعر به ، وستؤمن معي بأن مشكلة الامتحان في مصر قد أصبحت خطراً على التعليم وعلى الاخلاق وعلى السياسة ، وعلى أشياء أخرى قد تستبين أثناء هذا الحديث .

الأصل في الامتحان أنه وسيلة لا غاية ، وأنه مقياس تعتمد عليه الدولة لتجيز للشاب أن ينتقل من طور الى طور من أطوار التعليم ، وهو مستعد لهذا الانتقال استعداداً صحيحاً أو مقارباً . هذا هو الاصل . ولكن أخلاقنا التعليمية جرت على ما يناقض هذا أشد المناقضة ، ففهمنا الامتحان على أنه غاية لا وسيلة ، وأجرينا أمور التعليم كلها على هذا الفهم الخاطيء السخيف ، وأذَعْنا ذلك في نفوس الصبية والشباب ، وفي نفوس الأسَرِ ، حتى أصبح ذلك جزءاً من عقليتنا ، وأصلاً من أصول تصورنا للأشياء وحكمنا عليها . فالأسرة حين ترسل ابنها الى المدرسة تفكر في تعليمه من غير شك ، ولكنها لا تفهم هذا التعليم الا مقروناً بالامتحان الذي يدل على انتفاع الصبي به ونجاحه فيه . وهي من أجل ذلك تعيش مُعَلَّقة بآخر العام ، وبهذه الورقة التي ستأتيها من المدرسة أو من الوزارة لتنبئها بأن الصبي أو الفتى قد جاز الامتحان فنجح أو أخفق فيه .

---

* طه حسين : هو طه بن حسين بن علي بن سلامة . ولد في قرية الكيلو من محافظة المنيا في الصعيد المصري عام ١٨٨٩ م . حينما بلغ الثالثة من العمر، أصيب بمرض الجدري ، فكف بصره . بدأ حياته في الأزهر عام ١٩٠٢ م ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة ، فحصل منها عام ١٩١٤ علي شهادة الدكتوراة ، وسافر الى باريس فتخرج من جامعة السوربون عام ١٩١٨م وعاد الى مصر ليعمل محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فعميداً لها ، فوزيراً للمعارف ، ومن أبرز انجازاته خلال عمله كوزير للمعارف هو انجازه لمجانية التعليم الثانوي والفني . من أعماله : (ذكرى أبي العلاء) و (في الأدب الجاهلي) و (في الشعر الجاهلي) و (حديث الأربعاء / ثلاثة أجزاء) و (مع أبي العلاء في سجنه) و (مع المتنبي / جزآن) و (قادة الفكر) و (على هامش السيرة / ثلاثة أجزاء) و (أحاديث) و (الأيام) و (فلسفة ابن خلدون) وترجم الى العربية (نظام الاثينيين لارسطو) و (آلهة اليونان) و (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) وله أيضا (دروس التاريخ القديم) و (مستقبل الثقافة في مصر / جزآن) و (عثمان) و (علي وبنوه) و (رحلة الربيع والصيف) وغير ذلك كثير . توفي عام ١٩٧٣ م .

ولا يكاد الصبي يبلغ المدرسة ويستقر فيها أياما حتى يشعر بأن أمامه غاية يجب أن يبلغها ، وهي أن يؤدي الامتحان وينجح فيه .

يشعر بهذا في المدرسة من معلمه ومن أترابه ، ويشعر بهذا في البيت من أبويه اللذين قد يجهلان من أمور التعليم كل شيء الا أنه ينتهي الى الامتحان .

واذاً فالصبي منذ يدخل المدرسة مُوَجَّه الى الامتحان أكثر مما هو مُوَجَّه الى العلم ، مهيأ للامتحان أكثر مما هو مهيأ للحياة . واذاً فليس المهم عند الصبي ان ينتفع بالدرس ، وان يجد فيه اللذة والمتعة ، وان يستزيد منهما ، وانما المهم أن يستعد للامتحان والنجاح فيه ليتفوق على أترابه أو ليحتفظ بمكانته بينهم ، وليرضي أبويه ويسرهما ويحقق ما يعقدان به من أمل ، وينوطان من رجاء ، وليظفر بما يمنيانه من مكافأة وجزاء .

والصبي ليس مبالغاً في شيء من هذا ، وانما هو صورة لرأي الأسرة ورأي المعلمين ورأي الأتراب ورأي وزارة المعارف بنوع خاص . واذاً فقد استحالت المدرسة الى مصنع بغيض يهيء التلاميذ للامتحان ليس غير . وقد يجوز أن يجني التلاميذ من هذا المصنع شيئاً آخر غير الاستعداد للامتحان ، ولكني أؤكد لك أن هذا ليس من عمل المدرسة ، وانما هو نتيجة لطبيعة الأشياء ، فطبيعة العقل الانساني والملكات الانسانية كلها انها تتأثر بما تزاول من الأشياء ، وطبيعة العلم مهما يكن ممسوخاً جافاً مشوهاً أنه يفيد الملكات الانسانية اذا اتصل بها .

فالتلاميذ يتعلمون في المدرسة أحياناً ولكنهم يتعلمون برغمهم وبرغم المدرسة وبرغم المعلمين .

وعلى هذا النحو تمضي حياة التلميذ منذ يدخل المدرسة الابتدائية الى أن يخرج من المدرسة الثانوية . فأما التعليم العالي فله قصة أخرى .

وأظنك توافقني على أن هذا كله شيء وأن التعليم شيء آخر ، وأظنك توافقني أيضا على أن تَصَوُّر الامتحان على هذا النحو قَلْبٌ للأوضاع ، وجَعْل التعليم وسيلة بعد أن كان غاية ، وجعل الامتحان غاية بعد أن كان وسيلة . وحسبك بهذا فساداً للتعليم . ولكن هذا لا يفسد التعليم وحده كما قلت ، بل هو يفسد العقل والخلق أيضا . وما رأيك في الصبي الذي ينشأ على اعتبار الوسائل غايات والغايات وسائل ، فيفهم الأشياء فهماً مقلوباً ، ويحكم عليها حكماً معكوساً !؟ أتظنه يستطيع أن يفهم أموره الدراسية هذا الفهم المقلوب ويحكم عليها هذا الحكم المعكوس ، ثم يفهم أمور الحياة فهما صحيحاً ويحكم عليها حكماً مستقيماً !؟ كلا ، لأن الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه ، ولا عقلين في رأسه ، وانما جعل له قلباً واحداً وعقلاً واحداً . فاذا أفسدت المدرسة هذا العقل وذلك القلب فقد أفسدت التلميذ كله ، وقضت عليه بأن يفكر تفكيراً معوجاً وأن يشعر شعوراً مختلطاً وأن يسير في الحياة سيرة ملائمة لهذا الاختلاط وذلك الاعوجاج .

ومن هنا لا ينبغي أن ننكر ما نراه من عناية شبابنا بالتافه من الأمر، واكبارهم للسخيف، واعراضهم عن عظائم الأمور، بل عجزهم عن الشعور بعظائم الأمور والأشياء ذات الخطر، لا ينبغي أن ننكر ذلك، لأن هؤلاء الشباب ينشأون على العناية بالامتحان وهو تافه، وعلى اكبار الشهادة وهي سخيفة، وعلى الاعراض عن العلم وهو لب الحياة وخلاصتها.

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد، فما دام الامتحان غاية فالنجاح فيه هو غاية الغايات. اذاً فموسم الامتحانات هو من أهم المواسم الوطنية أثراً في حياتنا وتغلغلا في أعماق هذه الحياة. وهو من هذه الناحية يمس السياسة من قريب جداً فأين الحكومة التي لا تحفل بإرضاء الجمهور ولا تسلك الى هذه الغاية كل سبيل؟ وأين الحكومة التي لا تتجنب اسخاط الجمهور ولا تبتغي الى ذلك ما وسعها من الوسائل؟ فاذا ظهرت نتيجة الامتحان رديئة غير مرضية لكثرة التلاميذ وكثرة الأسر بالطبع، شاع السخط وعمت الشكوى واشتد الضغط على الحكومة واضطرت الحكومة الى أن تفكر في الأمر وتلتمس له علاجاً، وعلاجاً ديماجوجياً يتملق شهوة الأسرة في نجاح ابنائها بالحق وبغير الحق. وأنواع العلاج كثيرة، منها المقبول المحتمل، ومنها الذي يُقْبَلُ على كره وبشيء من المضض، ومنها الذي لا يُطاق.

أنواع العلاج كثيرة فقد يجوز أن يعاد الامتحان في أول العام الدراسي المقبل للذين رسبوا في آخر هذا العام حتى لا تضيع عليهم سنة من حياتهم.

وقد يجوز ان يعاد الامتحان للراسبين في بعض المواد دون بعضها الآخر: في المواد التي رسبوا فيها مثلاً أو في المواد التي يختارونها إنْ كانوا قد رسبوا في المجموع، ولم يرسبوا في مادة بعينها. وهناك طريقة أخرى أيسر وأهون وأحَبُّ الى التلاميذ والأسر، وهي تخفيض الدرجات التي ينجح بها الطلاب في الامتحان، وهناك طريقة أخرى أيسر وأهون من هذه وأحب الى التلاميذ والأسر أيضاً، وهي تخفيض درجات النجاح بعد أن يتم الامتحان بحيث ينجح الراسبون بأمر من الحكومة لا بقرار من لجنة الامتحان. وكل هذه الطرق قد جربناه وبلونا حُلْوَه ومُرَّه، وعرفنا نتائجه في قيمة التعليم والتربية، وفي الاخلاق، وفيما يكون بين المعلمين والمتعلمين من صلة ثم في السياسة والنظام آخر الأمر.

والغريب – بل لا غرابة في ذلك – أننا أخذنا نجرب هذه الطرق الخطرة على التعليم والأخلاق والسياسة منذ مَنَّ الله علينا بالنظام الديمقراطي وبالحياة النيابية التي نحبها ونفتديها بالمهج والنفوس! وتعليل ذلك يسير. فالسياسة في الحياة الديمقراطية محتاجة الى الجمهور، وهي مضطرة الى أن ترضيه، فاذا كانت حاجتها الى الشباب، والى الشباب الذي يختلف الى المدارس بنوع خاص، كان الأمر أظهر من أن يحتاج الى بيان. ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون شنيعاً منكراً، مفسداً للتعليم، مفسداً للأخلاق، مفسداً للسياسة، مسيئاً للسمعة الوطنية في الخارج أيضا.

وكل هذا يأتي من أننا أكبرنا الامتحان أكثر مما ينبغي، وجعلناه غاية وحقه أن يكون

وسيلة ، وسيلة هينة ضئيلة الشأن .

وليس هذا كل ما في الامتحان من شر. فللامتحان آثار سيئة تصل الى الاخلاق من طريق قريبة يسيرة جدا ، أظهرها الغش الذي يأتي مـن حرص التلميذ على أن ينجح بأي حال من الأحوال .

وليس الغش هو الذي يقترف ويضبط أثناء الامتحان فحسب ، بل هناك غش آخر لعله أشد من هذا خطراً ، غش خفي نحسه ولا نكاد ندل عليه ، ولعل أخلاقنا الدراسية أن تبيحه أحيانا . غش يشترك فيه المعلمون والمتعلمون حين يهيىء المعلمون تلاميذهم تهيئة خاصة لأداء الامتحان ، وحين يقفون بهم فيطيلون الوقوف عند هذا الجزء أو ذاك من أجزاء البرنامج ، وحين يعيدون معهم المقرر فيلحون عليهم في استذكار هذه المسألة أو تلك وحين يخضعونهم لامتحان التجربة أو الامتحان الأبيض كما يقول الفرنسيون قبل الامتحان النهائي ، وحين ينشرون لهم الكتب التي تشتمل على نماذج للأسئلة التي يمكن أن تعرض في الامتحان .

كل هذا غش يختلف قوة وضعفاً ، ولكنه مفسد للتعليم ، ومفسد للأخلاق أيضا . وأنا أعلم أن الامتحان شر لا بد منه ، ولكن الغريب اننا لا نتخفف من هذا الشّر ولا نكتفي منه بأقل قدر ممكن . وانما نتزيد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين، فنضطرهم الى الشر ما وسعنا ذلك .

وهناك شر آخر ليس أقل من هذا كله خطراً ، لأنه يفسد رأي المعلم في نفسه وفي تلاميذه وفي الوزارة وفي التعليم قبل كل شيء . وهذا الشر يأتي من تصور وزارة المعارف للامتحان ، ومن هذه العناية الهائلة التي تهبها له وتقفها عليه . فالامتحان في وزارة المعارف عمل خطير يوشك أن يكون مقدسا ، قوامه الحذر الذي لا يوصف ، والحرج الذي لا حد له ، والشك في كل شيء وفي كل انسان . فكيف تريد من المعلم أن يثق بنفسه اذا شَكَّتْ فيه الوزارة الى الحد الذي يعرفه كل من مارس شؤون الامتحان في مصر ؟

وقد تسألني عن هذه المشكلة بعدُ أن صورتها هذا التصوير البشع المخيف : كيف السبيل الى حلها ؟ فأجيبك بأن الامتحان شر لا بد منه ، فلنتخفف من هذا الشر ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ونجعله وسيلة لا غاية ، ولنصطنع بعض الجراءة ، ولنرد الى المعلمين ما هم أهْل له من الثقة ، ولنقدّر آراءهم في تلاميذهم كما نقدّر الامتحان أو أكثر مما نقدّر الامتحان ومعنى ذلك أن نلغي امتحان النقل في مدارس التعليم العام الا أن تقضي به الضرورة ، والمدرسة وحدها هي التي تقرر هذه الضرورة .

وأنا أعلم أن هذا الاقتراح قد يقع من وزارة المعارف موقعا غريبا ، وقد ينكره بعض الفنيين فيها أشد الانكار ، ولكني مع ذلك لا ابتكره ولا اخترعه من عند نفسي ، وانما هو نظام شائع في كثير من البلاد التي سبقتنا الى التعليم الحديث ، وهو النظام المقرر في فرنسا ، وفي المدارس

الفرنسية القائمة بمصر . ومن المحقق اننا نكون سعداء حقا يوم ينتج تعليمنا العام ما ينتجه التعليم العام في أوروبا وفي فرنسا خاصة .

اذا ائتمنت المعلم على التلميذ فامنحه ما يلائم هذه الأمانة من الثقة ، واطلب اليه ان يختبر تلاميذه في المادة التي يدرّسها لهم بين حين وحين مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر ، وأن يمنحهم درجات على الاختبار ، فاذا كان آخر العام فلتراجع هذه الدرجات ليرى أيستحق التلميذ بحكمها أن ينتقل الى الفرقة الأخرى أم لا يستحق .. فان كانت الأولى أقبل التلميذ فرحا مبتهجاً على اجازته الصيفية ، ثم على عامه الدراسي الجديد . وان كانت الثانية امتُحِن التلميذ امتحان النقل في المواد التي لا بد من أن يمتَحنَ فيها ، فان نجح فذاك ، وان رسب أعاد عامه الدراسي .

وأظن ان هذا الاقتراح إن أخذت به الوزارة يريحها ويريح المدارس ويريح المعلمين والتلاميذ والأسر من عبء ثقيل بغيض ، ويتيح للوزارة وللمدارس أن تفرغ للتعليم الذي هو أهم من الامتحان ، ويتيح للتلاميذ أن يفرغوا للتحصيل الذي هو أهم من أداء الامتحان . وحسب الوزارة ان تُعْنى وحدها ، أو مشتركة مع الجامعة بالامتحانات العامة التي يظفر الناجحون فيها بالاجازات . وهذه الامتحانات نفسها كما هي الآن عسيرة معقدة ، تحتاج وتحتمل كثيراً من التيسير والتسهيل إنْ نظرت الوزارة الى الامتحان على أنه وسيلة ، وسيلة يسيرة لا غاية ، وإنْ أخذت الحكومة بالقاعدة التي أخذت بها البلاد الأوروبية من قبل ، التي جعلنا نفكر فيها منذ أعوام ، وهي أن الاجازات الدراسية لا تمنح أصحابها حقوقاً مالية ولا تؤهلهم للمناصب ، وانما تكتسب المناصب بالمسابقات .

مستقبل الثقافة

دعـــاء

قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ : علمني كلمات أتجه بهن الى الله في أعقاب الصلوات الخمس ؛ فإني أجد في نفسي حاجة الى الدعاء في هذه الأيام الشداد .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : سل الله يا بُني أن يعصمك من صلغر النفس الذي تضخم له الأجسام ، ومن ضيق العقل الذي تتسع له البطون ، ومن قصَر الأمل الذي تمتدّ له أسباب الغرور .

وكنت حاضراً هذا الحديث بين الأستاذ الشيخ والطالب الفتى ، فقلت في نفسي : ما أجدَرَ الشباب المصريين أن يتخذوا من هذا الدعاء لأنفسهم برنامجاً وشعاراً !

فـيـض

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسر لي قول القائل «فاض الاناء» .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هذا مَجاز يا بني في كل أمر تجاوز حده حتى أصبح لا يُطاق . ألمْ تسمع قول الشاعر :

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض النفس عند امتلائها

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني أعرف أوعية لا تمتلىء ، وآنية لا تفيض .

قال الأستاذ الشيخ مبتسما : وما ذاك ؟

قال الطالب الفتى : خزائن الأغنياء التي مهما يصب فيها من المال فهي ناقصة ، وجهنم التي يقال لها : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ وعقول العلماء التي لا تبلغ حظاً من المعرفة الا طمعتْ في أكثر منه .

قال الأستاذ الشيخ ضاحكاً : لقد أصبحت حكيماً منذ اليوم ، ولكن تَعلّم ان اناءً واحداً قد يفيض فيصبح مضرباً للأمثال ، ومصدراً للعبر ، وبعيدَ الأثر في حياة الأجيال . الا تذكر سَيْلَ العرم ؟!

تَجَنّ

تلقّاهم من المدارس الثانوية لا يُحسنون شيئاً ، فتعهّدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة ، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات وألقاب .

ثم تعهّدهم حتى اطمأنّوا في الحياة الى ما يُحبون .

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متزيدين ، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم أزورّ عنه السلطان فازورّوا عنه ، وقالوا : جَفَوتّنا حين كان يحسن أن تصلنا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاء أو إعراضاً .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : «ليس المهم أنْ تعرف أو لا تعرف ، وانما المهم أنْ تَعْلَمَ أنّ كلمات التجني والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة عبثا ، وانما وُضِعَتْ لتدل على معان . والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وانما تقوم بأنفس الناس !» .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : «ألَيْسَ قد علّمنا المعلمون في الكتاتيب أن الامام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صرت له عبداً ؟ » .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : «بلى ! ولكن الحياة قد علّمَتْنا أن الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان ؛ فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنى !» .

جنة الشوك

معجزة العصر

يوسف ادريس*

قال لي صديقي الذي لم أره من عشر سنوات ، والذي كان مقدراً أن أفقده هذه المرة – هل رأيت معجزة العصر ؟!.

بلا دهشة سألته – أية معجزة ؟ .

لم يجب .. ولم نضع الوقت في التخمين ، وكان اتفاقا بيننا ، لف ذراعه حول ذراعي وجذبني ، وتبعته صامتاً .. حاولت أن أعرف ان كانت الوصول الى القمر أو ظهور مهدي منتظر ، فكاد يغلق فمه تساؤلاً .. قائلاً – لا تخمن فلن تستطيع أبداً ادراكها ، ولو عرفتها من تلقاء نفسك لكانت معجزة العصر ، انك عرفتها .

وبحماس جذبني بقوة أكبر ، وبعد خطوات كنا علي البلاج ، وكانت الدنيا شتاء ، والشمس صفراء .. تسقط شعاعاتها المريضة على الرمل فيبدو مجرد لون أنيمي شاحب ، جو تتوقع أن يكون البلاج معه فارغاً ، غير انك تفاجأ به عامراً ، مزدحماً وكأننا في اغسطس ، الناس مكدسون على الرمال بالأكوام . والباعة ينادون على جيلاتي طوبة ، وسحلب بؤونة بدندرمة اغسطس ولو أغلقت العين لحسبته مجرد خطأ في ورقة النتيجة فأصوات الصيف هي هي ، وصخب الأطفال هو هو ، حتى ذلك الاحساس الخاص بالصيف ، ذلك الذي تحس وكأن الحياة به أكثر حلاوة ، كان موجوداً .. اذا غضب الله على قوم أمطرهم صيفاً فماذا يكون موقفه تجاههم اذا جعلهم يصيفون في الشتاء .. من الممتع أن تشحذ عواطفنا مشاكل الظواهر الكونية ، فحين اسخط على الدنيا تهطل الأمطار ، وحين احظى برضاء حبيبي تشقشق في الكون ملايين من عصافير الكناريا .. واذا كرهت جاري أطبق على المدينة ضباب حتى لا تكاد ترى ، وأنت واقف على بابك ، باب جارك . والجار أولى بالشفعة ، إلا جاري الذي لم أره من يوم أن قطنت عمارتنا فكلانا وحيد ، وكلانا في المدينة المزدحمة قد فقد الونس حتى أصبح الازدحام مجرد حبل معقود يهدد باحتواء رقبتك فأنت مرعوب منه ، وخائف حتى النخاع ، نفس الاحساس الذي شعرت به وازدحام البلاج يحتويني ، كتل من اللحم البشري مقسمة الى أذرع مختلطة وسيقان ، ويا لمشهد الجسد البشري بعد العشرين حين يكتنز بالشحم وتبرز له الكروش ويبدأ التفكير في صبغ الشعر أو

---

* يوسف إدريس : أديب مصري ، ولد في ١٩ / ٥ / ١٩٢٧ ، وتخرج من كلية الطب عام ١٩٥١ ، ثم عين طبيباً في مستشفى القصر العيني . بدأ كتابة القصة عام ١٩٥٠ في عدد من المجلات المصرية ، كما كتب الرواية والمسرحية . من آثاره : (الحرام) و (العيب) و (رجال وثيران) و (العسكري الأسود) و (البيضاء) ومجموعات قصص قصيرة ، مثل : (أرخص ليالي) و (أليس كذلك) و (البطل) و (حادثة شرف) إضافة الى عدد من المسرحيات ، وكُتب الخواطر والانطباعات .

توزيعه ليغطي الصلعة حتى الجسد يهجرك ويهرب منك وفي هذه الوحدة المزدوجة لا بد أن يهرم الانسان سريعاً فنحن كائنات أرضية لا تنمو بصحة إلا معاً ، إلا كمحصول واحد فاذا ما زرع كل نبات منا بمفرده خنقته الطفيليات .

أتكون المعجزة هى الحصول على دواء يشفي الغربة ويعيد جمع الناس ؟ باء تخميني أيضاً بالفشل ، وفقدت عين الحكمة مع أن الحكمة ثرثرة لا بد حسب قوانين التباديل والتوافيق ان ينتظم بعضها على هيئة أقوال رائعة النضج . ولكنني سعيد وكان مجرد رؤيتي الموشكة للمعجزة سيسلحني بطاقية اخفاء أو بخاتم سليمان قادر على تحقيق المطالب .. الغريب ان الزحام لم يكن ازدحاماً للتجمع ، كان تجمعات للتفرق ، فكل مجموعة مكدسة من الناس تبدو مكانها فاقدة الاحساس بغيرها تماماً ، منصرفة بكليتها الى شيء مشترك يخصها وحدها ، أو ربما تبحث لنفسها هي الأخرى مثلما نبحث عن معجزة عصر ، فأنت تقبل على تجمع يشبه من بعيد شكل الكازينو الذي أُقيم على عجل ولكنك حين تقترب لا تجد كازينو أو حتى مكاناً للجلوس . فالناس اما وقوف منحنون أو في حالة رقاد ، والكل في شغل عنك بما يبدو وكأنه مأساة داخلية طاحنة . لا أحد يلتفت اليك ، الأيدي تلوح في عصبية ، والنقاش حاد كطلقات الرصاص ، وبعضهم ، بمجهود عظيم يضع يديه الاثنتين معاً على فمه محاولاً أن يكتم الضحك فلا يستطيع وتكون النتيجة ان تفلت الضحكة رغماً عنه ، حسبت الصديق يضحك ، ولكنه كان يتوقف ويتطلع حوله ثم يحاول أن يخفي نفاد صبره ، والعرق ، رغم الهواء الساقع قد نبت على جبينه ، والحيرة الكبرى تتملكه ، ويأسه شامل ، يكاد ، لولا الحياء أن يستنجد بالناس ويسألهم أين الطريق لمعجزة العصر ؟ ..

حسبته يضحك ولكنه كان ، فجأة يلكزني ويشير الى كازينو قريب قائلاً وقد تهللت ملامحه وكاد يقفز منها الأمل : وصلنا .

ولم تكن فرحتي هذه المرة لأننا نوشك أن نصل ، فرحتي كانت لأننا نوشك أن نصل الى كازينو حيث نستطيع الجلوس وشرب الماء المثلج والشاي بعد هذا الكدح الطويل من الشاطبي إلى سيدي بشر والمنتزه .

ولكن ما أبشع ما خاب أملي حين لم ينكشف الكازينو إلا عن ازدحام آخر ، واحد من عشرات الازدحامات التي كان يحفل بها البلاج ، نظرت بحدة الى الصديق والى عينيه اللتين كانتا قد احمرتا تعباً أو من يدري ؟ .. ربما غيظاً وربما لهذا انطبقت شفتاه في حدة راسمتين في خطوط قاطعة شكل فمه .

أين رأيت ملامح كهذه مرسومة بحدة كتلك الحدة يا ربي ؟ .. أين ؟ .. والهمهمة الصادرة عن هذا الازدحام نفس هذه الهمهمة وثيقة بنفس الملامح ، وأيضاً بشيء يشبه المعجزة ، أين ومتى حدث لي هذا يا ربي ، لا أعرف !.. هذه اللحظة عشتها قبلاً ، بالتأكيد حدث هذا . ولا بد أنه ذلك الشعور الذي دأب على زيارتي في الفترة الأخيرة .. الشعور بأن الكون يكاد ينتهي ، والصمت المطبق بدأ

يحل ، صمت سيمتد إلى آلاف وملايين السنين المقبلة ، آخر علامات الحياة تختنق ، الحركة الهائلة التي حفل بها الكون طوال وجود الانسان قد انقرضت ، وسيعود السكون الأبدي ولا يبقى إلا الشمس والقمر ، والليل والنهار والريح والرمال . الاجساد متراصة موزعة مختلطة لا تكاد تستطيع تمييز ساق الرجل من ساق المرأة ، تبدو في أحيان كثيرة خالية من الشعر ، والجميع كأنهم يبحثون عن ابرة سقطت في قلب الرمل ليسوا منحنين فقط ولكنهم ممددون تماماً وقد استندوا بأذرعتهم إلى الأرض ، وانكفأوا على الرمال عيونهم تكاد تخرج من محاجرها بحثاً عن شيء لا بد أنه مخبأ بطريقة ما في الرمل .

الأطراف كثيرة ، كل حركة منها تثير ثائرة الرمل يملأ العيون ويسد الأنوف ، وتتصاعد صرخات الاحتجاج لأن شخصاً وقف أو سار وتحرك ، وأثار بحركته زوبعة صغيرة في ساكن الرمال ، المعجزة . معجزة العصر . الشيء الصغير الكائن والموجود في حياتنا منذ وجودها الأول انما لكونه صغيراً فالجميع يعبرون به دون أن يحسوا له بأي انفعال أو احتفال ، أقدامهم تدميه أو تصطدم به دون أن تشعر أو تحس أنها صدمت شيئا أو تعثرت بشيء ، والشيء دائم الصراخ والعويل ، انه كائن وموجود ، دائم الرجاء أن يحظى منها بالتفاتة ، ان يتلقى اشارة واحدة من طفل أبله تفيد أنه رآه أو سمعه أو أحس به بلا فائدة . الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى وأكبر من أن يدعهم ولو للحظة يفيقون الى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال . اننا لم نعد أحراراً في رؤيانا ، أصبحت أنظارنا قصيرة موجهة الى ما نعرفه أو الى ما نود معرفته ، أي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا الا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا وأحلامنا ، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو ، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له أو عليه ، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله ، اليوم نحن لا نرى خارجنا إلا ما نحقق به ما نحس داخلنا ، لا نرى إلا لكي نثبت أو نبرهن به أننا على صواب ، ولكن في العادة دائماً ما يحدث شيء ، حدث يعرض مصادفة ، شيء لا بد رغم ارادتنا يرغمنا على أن نلوي أعناقنا وننظر فنفاجأ أننا أمام حدث خارق للعادة ، اننا أمام شيء وان يكن صغيراً إلا انه بالغ الدلالة ، وحينئذ تفلت من أحدنا صرخة الإدراك الأولى ومعها تجر الانتباهات الى انتباهات ليصبح ذلك الشيء بعد يوم وليلة محور اهتمامنا الأول ونكتشف وندرك كم نحن بحاجة اليه ، وكم كانت تفتقده حياتنا وكم هو لازم حيوي لها ونندفع حينئذ اندفاع من فقدوا العقول نهتم به ، اهتماماً مبالغاً فيه ، ويصبح أمل الانسان منا أن يحظى منه بنظرة ، أو نراه رأي العين. هل أصبتم بخيبة أمل؟ أنا نفسي.. حدث لي ما حدث لكم ولدى الادراكة الأولى كدت أهيم على وجهي يائساً خائب الأمل . لنحاول اذن أن لا نخطىء خطأنا الشهير الأول، الشيء خارج نواتنا ، الشيء لا كما نريده وإنما كما هو موجود وقائم وكما كان يمضي الناس عنه غير مهتمين أو مدركين . انه ليس حشرة غريبة أو قطعة معدن نادر، كان في الحقيقة بشراً مثلي ومثلك له اذنان وعينان وأنف وفم وأسنان ولد بهما جميعاً والمفروض أنه لا يزال الى لحظتنا هذه يمتلكها. أنا لا

أهزل أو أقول غير الحق ، فآلاف المواليد تخرج كل عام على هيئة مواليد شاذة ، بعضها ملتصق ببعض في أحيان ، وأحياناً بطن واحد بصدرين ورأسين من أعلى ومن أسفل بحوضين وأربع سيقان وأرجل .. كل الاختلاف ان الشيء في حالتنا هذه كان جنيناً صغير الحجم وهذا كل ما هنالك .. لا .. لم يكن في حجم كرة القدم ولا حتى في حجم البرتقالة ، ان شئتم الدقة كان في حجم نصف عقلة الأصبع ومع هذا فهو كامل الأعضاء متناسبها باستطاعته ان يصرخ ويرقص ويرضع ، كل ما هنالك انه يصرخ بصوت لا تستطيع سماعه ، عليك لكي تسمعه ان تقربه كثيراً من أذنك ، وحبذا لو وضعته كله داخل اذنك لكي تسمع صراخه أوضح ما يكون ، صراخ عصبي متشنج يحاول النص نص « هكذا سوف نسميه » ان يفرض به ارادته علينا وعلى الحياة . كان صغيراً الى درجة ان أمه لم تلحظ انها ولدته ، انزلق منها مع الماء الذي كان يملأ الرحم دون أن تحس به ، وحسبته الداية قطعة من المشيمة ولكنها حين تناولته وتأملته صرخت صرخة أرعبت سكان المنزل جميعاً ولم تسقط فاقدة النطق وإنما الى الأبد فقدت النطق .

* * *

وما أتعس الأم ، كانت قد حملت به بعد أربعة عشر عاماً من العقم وطوال حمله كادت تجن وهي تصلي الى الله ان يجعله ولداً يقر به عين أبيه . وعلى هذا لم تجرؤ على اطلاعه عما أتت به وزعمت له ان الحمل كان كاذباً وبعد أن كانت قد قررت ان تلقي بالجنين مع الماء القذر ، صعب عليها الضنى وأخفته تحت الوسادة وبالحقنة الرفيعة كانت تستطيع العثور على فمه وتغذيته .. وضبطها الزوج ذات يوم وهي ترضعه ، وانهارت ، واعترفت ، وبعد أن ثاب الأب الى رشده وأيقن ان الخطأ ، ان كان هناك خطأ ، ليس منه أو منها وانه يجب أن يرضى بما قسمه الله ، رضي وسكن . تلك كانت ظروف ولادته .. أما كيف تربى وتعلم ؟ فتلك قصة أخرى . فلقد سمع الأب ذات يوم ان السلطان يهوى جمع التحف النادرة وانه يدفع مكافأة سخية لكل من يحضر له تحفة أصيلة ما امتلكها أحد قبله .

ولم يكن في قلب الرجل للنص نص حب أي حب ، فحب الابن مسألة يتعلمها الوالد ويكتسبها مثلما يتعلم الولد المشي أو النطق وكما يعلم الأب ابنه كيف ينطق فالابن يعلم ابيه كيف يحبه فكيف يستطيع النص نص أن يعلم أباه ، وأبوه يحتاج الى عدسة كي يرى وجهه أو يعرف بطنه من رأسه .. الأم وحدها هي التي كانت تحبه ، ولهذا كان على الأب ان يساهيها ويأخذه وان ينفق جزءاً من المبلغ الذي أعطاه له السلطان في شراء ملابس لها ومصاغ . أما السلطان الذي كان يعاني من الفراغ الممتد في حياته وأمور بلاده يسيرها وزيره ورعيته هادئة سلسة ، فقد وجد في النص نص غايته ومبتغاه والشيء الذي يستطيع أن يكرس ، كل نفسه ووقته ويجد في هذا كل المتعة .

كان عليه أن يعلمه كيف يتكلم وينطق ثم بعد هذا كيف يقرأ ويكتب واعتبر انه لو حقق هذا لأصبح يمتلك تحفة معجزة يستطيع أن يفرج عليها خلانه وأصدقاءه وان يمنحهم ويمنح نفسه بهذا متعة دونها أي متعة أخرى .

كل خوفه كان أن يكبر النص نص بمضي الزمن ويصبح عند البلوغ مثلاً أو اذا أصبح رجلاً مجرد قزم ضئيل الحجم ، ربما يكون أقصر الأقزام وأقلهم حجماً ولكنه حتماً سيفقد أهم ميزاته ، غير ان النص نص كفاه مؤونة القلق ، فلم يكن ينمو مع الأيام أو يزداد حجمه أو حتى تتغير ملامحه ، بل انه حين قارب سن الرجولة لم يحدث له أدنى تغييرسوى أن لحية نبتت له فجأة ، لحية بالضبط فيها عشر شعرات ما كان أسعد السلطان وهو يحلقها له بنفسه أو وهو يجتث منها خمس شعرات ويترك خمساً لتنمو وتكون ذقناً بديعة صغيرة كذقون العلماء .

وتعلم النص نص النطق فأصبح يحسن استخدام الجهاز الترانزستور الذي كان يضخم صوته ويجعله مسموعاً وفي نفس الوقت يقوم بمهمة الأذن له بحيث يخفف من موجات الصوت ويهذبها كي تصل الى أذنه الدقيقة وتصبح في متناول سمعه .

بهذا الاتصال الذي تم مع النص نص أمكن للسلطان أن يعلمه القراءة والكتابة وأن يبدأ معه سلم المعرفة الطويل . وفيما عدا ساعتين كان يقضيهما النص نص في تناول الافطار والتريض ، رياضة عنيفة ، يسير اثناءها فوق المسطرة القدم من أولها الى آخرها ، ويقطعها في رقم قياسي لا يتعدى نصف ساعة أو يزاول العوم لمدة ساعة وأكثر في كوب ماء ويستطيع أن يدور حول محيطه ثلاث مرات وأحيانا أربع مرات .

فيما عدا هذا كان كل وقت النص نص متروكاً للدراسة والتحصيل .. وقد أتاح له السلطان أساتذة كباراً مما جعله ينتهي من المرحلة الابتدائية وهو لم يبلغ الخامسة .. وفي العاشرة انتهى من الدراسة الثانوية واستعد لدخول الجامعة .. هنا فقط بدأت امكانيات النص نص المعجزة تظهر ، فقد وجد أن منهج كلية العلوم التي اختارها ليدرسها أقل بكثير من أن يستغرق كل وقته بل ان الطب والعلوم والزراعة معاً كانت أقل من وقته فأخذ بجوارها الآداب والقانون والفنون . وفي السنة الثانية مثلاً نجح في تشريح ثانية طب وميكانيكا ثانية ميكانيكا وكهرباء ومدني ثانية كهرباء ومدني ، وكل القوانين المقررة على ثانية حقوق ، وفي البكالوريوس قدم في جميع بكالوريوسات الجامعة وليسانساتها ، وبتفوق نجح فيها جميعاً حتى أن خطابات التعيين جاءته ليعين معيداً في أربع عشرة كلية في وقت واحد ، وحين ذهب فرحاً ليتسلم مهام أول مناصبه بدأت أشباح مأساته تتراءى ، إذ لم يجد أحداً يأبه له او يعيره اهتماماً ، أو حين ينجح في إثارة اهتمامه والحديث معه ، ينجح في إقناعه بجدية طلبه . كان الجميع ينظرون اليه نظرتهم الى انسان دفعه حظه السيء الى ان يكون صغير الحجم ليس إلا ، وإنما باعتباره ظاهرة شاذة وكأنه حشرة قد نجحت في النطق كالآدميين .

ظاهرة تدفع الى الاستنكار والاشمئزاز مثلما نستنكر جميعاً أن تقوم الحشرة بدور الانسان في الوقت الذي لا نستنكر فيه مطلقاً من أي انسان ان يقوم بدور الحشرة . وعاد مهموماً الى ولي أمره السلطان الذي أدرك كل شيء بنظرة ، والذي كان قد رتب للأمر، ومن اليوم التالي كان النص نص يحضر لدراسة الدكتوراه ، كان قد انتوى أمراً خطيراً ، ان يدرس اربع عشرة دكتوراه في نفس الوقت وبينما كان زملاؤه يؤدون أعمالاً روتينية ويبدأون في لعن الروتين والسخط على قوانين الاستخدام ، وفي الوقت الذي كان بعض آخر منهم قد يئس من كل شيء ووهب نفسه كلية للتهليس وعب ملذات الحياة عباً .. نذر نفسه هو للدراسة ، وفي ثلاث سنوات كان قد أكمل استعداده ، ولأول مرة في تاريخ الجامعة ، بل في تاريخ الجنس البشري كله تجتمع أربعة عشر لجنة لأربع عشرة مادة مختلفة ، من الرياضة العليا الى هندسة الانتاج الى الجراحة الخاصة لتمتحن النص نص في نفس الوقت . ومن أجل هذا الحدث غير العادي غيرت الجامعة من نظام المناقشة واجلست النص نص في منتصف الحجرة وحوله تناثرت مقاعد المتحنين الذين لم يبد عليهم أي استنكار لحجم النص نص أو شكله فالمجتمع لا يهمه شكلك وأنت تدرس أو أنت تمتحن ، انه فقط يبدأ يدقق ويفحص ويختار حين تتقدم اليه تطلب العمل !!

ولأربع عشرة ساعة راح المتحنون واعضاء اللجان يناقشونه ولم يكتشفوا لدهشتهم انه قد هضم واستوعب تماماً كل مادة من مواد الامتحان انما اكتشفوا اكثر انه بلغ في استيعابه للمواد انه وصل الى نظريات عامة جديدة تماماً في علاقة ألوان العلوم والمعارف بعضها ببعض نظريات أوصلته الى قوانين خطيرة تكشف شيئا فشيئاً عن جذور المعرفة البشرية والقوانين الموضوعية للمادة وأشكالها المختلفة بحيث انه كان يتوصل معهم الى القانون الأول الذي يحكم علاقات الكون كله ، وتحول النقاش حينئذ ، من لجان تمتحن النص نص ، الى تلامذة يخرج لهم النص نص كنوزه ويحدثهم عما وصل اليه وهم حيارى مذهولون قد أدركوا فجأة ، ليس فقط انهم أمام عبقري من طراز نادر ولكنهم اكتشفوا انهم قضوا حياتهم عبثاً وان دراسة الكون كأجزاء منفصلة ، والاغراق في التخصص قد سلبهم القدرة على النظرة الكلية ، وان خير وسيلة للدراسة والمعرفة هو ما فعله النص نص ، هو ان يعود العالم مرة أخرى مثلما كان الحال أيام ابن سينا وابن رشد عالماً في كل شيء ليستطيع ان يصل الى المفتاح السحري للعلم ذلك الذي يفتح كل باب مغلق . وايضاً ، كان لا بد ان يحدث ما حدث ، فرغم ما كانوا غارقين فيه من ذهول ، ورغم أفواههم الفاغرة تتلقى من النص نص وكأنها تتلقى درس الحياة الأول ، ما كادوا ينتهون من نقاشه أو بالأحرى ينتهي هو من القاء الدرس عليهم حتى عادوا يغرقون في المناقشات الحامية حول ما أسموه « الظاهرة النص نصية » وهل هي معجزة فردية لا سبيل الى الوصول اليها . أو هي أسلوب وطريقة باستطاعة أي انسان ان يستعملها ويصل بها الى نفس النتائج . ولما بح صوت النص نص وهو يحاول استخراجهم من النقاش ولفت انظارهم مرة أخرى إليه وهم مستغرقون في عملية انقسموا تجاهها

أيضاً ، هل يمنحونه أربعة عشر دكتوراه منفصلة ، أو يمنحونه درجة علمية جديدة يسمونها دكتوراه الدكتوراهات ، انسل النص نص من وسط الجمع لا يشعر به أحد أو ينتبه اليه أحد أو يوليه اهتمامه ، انسل وحيداً ، مهموم القلب وقد عاد مرة أخرى الى مواجهة واقعه الحزين وحظه السيء وعاد الى بيته ليفاجأ بالمأتم قائماً ومنصوباً ، كان ولي أمره السلطان قد مات ، وكان منذ الغد عليه ان يرحل . ورحل ، لا يمت الى أحد ولا يستطيع حتى أن يمت الى مكان ، فلا صاحب بيت يرضى أن يؤجر له بيتاً ، ولا مدير فندق يرضى أن ينزله بفندقه . نفس الاندهاش والتقزز تمتليء به نفس من يخاطبه ، ويتفرج عليه برهة ثم لا يلبث – كالطفل حين ينتهي من لعبته – أن ينفض منه يده ولا يعود يأبه له أو لتوسلاته .

نفس الاساتذة الذين كانوا يشيدون بعبقريته حين كان يلقاهم منفردين في مكاتبهم ، كانوا لا يملكون له سوى هز الاكتاف وإلا بتبصيره بالعقبات التي تشل أيديهم وتمنع الواحد منهم أن يعهد اليه بعمل ، أي عمل ، لا كدكتور حتى أو كعالم ، وانما كإنسان تجارب عرض نفسه على استاذ علم الأمراض كي يبقيه في قسمه ، مجرد عينة علمية وظاهرة ممكن دراستها للكشف عن هرمونات النمو وامراضه ، اعتذر له الرجل قائلاً : ان قانون الجامعة لا يبيح الاحتفاظ الا بحيوانات التجارب فقط من أمثال الفيران ، والخنزير الغيني ، والأرانب . ولكن القانون لا يوجد به مادة تبيح الاحتفاظ بانسان تجارب ، لو فعلها لحاسبه ديوان المحاسبة حساباً عسيراً ولعاقبته الجامعة . حتى الصحف والتلفزيون والاذاعة ، حين شاعت قصته في الأوساط العليا جرى مندوبو الصحف يبحثون عنه حتى وجدوه عند استاذ من أساتذة الجامعة وأخذوا له عشرات الصور الفوتوغرافية ، واعطى عشرات الأحاديث وعملوا معه أكثر من لقاء . في التلفزيون ، وأمامه وعيني عينك كانوا يحضرون بعض اساتذة الطب ليقولوا رأيهم فيه ، وفي الاستديو كان حين يتكلم يحس بالدنيا كلها منصتة إليه ويبدأ يتفاعل ويفتح لهم صدره ويطلب منهم ان يجدوا له عملاً يتناسب مع مركزه العلمي ومؤهلاته وكان ما يكاد يذكر حكاية العمل وحاجته اليه ويطلبون منه ان يقترح عليهم نوع العمل الذي يريده وما كاد يذكر كلمة مدرس أو معيد أو حتى محضر في معمل ، حتى ينفجروا ضاحكين مقهقهين ، مشيرين اليه وإلى حجمه وسادرين في الضحك ، عليه لا بد . وكالعادة لم تستمر موجة الاهتمام به كثيراً ، بعد اسبوع أو أقل فتر الحديث عنه ، ولم يعد ظهوره في التلفزيون حادثاً كبيراً ، كما كان الأمر في أوله الى درجة أن أحد منتجي القطاع الخاص كان أثناء موجة ازدهاره قد فكر ان ينتج عن حياته فيلماً ، خبر أسعد النص نص وأفرحه فهو على الأقل سيأخذ ما لا يقل عن شهرين أو ثلاثة من العمل والاستعداد ، غير ان هذا الأمل نفسه ما لبث ان خاب حين وجد نفس المنتج ان فكرة الفيلم ممتازة هذا صحيح ، ولكن المستحسن ان يقوم اسماعيل يس ببطولته ويسمونه اسماعيل يس في الجامعة .

وبالعدول عن فكرة الفيلم وانتهاء الحديث عنه في وسائل الاعلام وجد النص نص نفسه بين

يوم وليلة يحيا في فراغ كامل تام . وجد كل الأبواب التي كان يتخيل أنها مفتوحة على مصاريعها في انتظاره تغلق دونه الواحد وراء الآخر بلا سبب معلوم وكأن هناك مؤامرة خفية هدفها ان يفقد عقله أو يرتكب عملاً أحمق . وكان قرران يرتكب هذ العمل وينتحر ، فقد ضاقت به الدنيا حتى أصبحت أضيق من « خي » حبل المشنقة .

ولم يتطلب منه الأمر تفكيراً كثيراً ، وعلى الفور شرع في اتخاذ طريقه الى مبنى المجمع في ميدان التحرير ، وعلى قدميه صعد الطوابق الكثيرة اذ هو لم يكن يستطيع أخذ الاسانسيرات أو ركوب الاوتوبيسات مخافة ان يفعصه أحدهم دون أن يحس أو يشعر . خرج الى سطح المبنى ، وأشرف على حركة المرور الهائلة في الميدان . وراجع حياته وما ينتظره عله يجد قشة أمل يتعلق بها في لحظاته الأخيرة ، ولكن كان واضحاً تماماً ان قصته مع الناس قد انتهت وانه لم يعد بامكانه ان يعيش بالطريقة التي يريدها ، كان يستطيع ان يعيش على هامش الحياة مثلما يحيا الآلاف والملايين غيره ، يأكل كيفما اتفق ، ويسكن كيفما اتفق ، ويوجد كيفما اتفق ، ولكن كنوز المعرفة التي نهل منها جعلته يرفض أي حياة أخرى الا الحياة التي يريدها هو ، الا ان يفرض على الحياة حياته فاذا فشل في هذا الغرض كان عليه في صمت وبطولة ان يموت . واغلق عينيه وقفز من حافة السور الصغير المقام فوق السطح وأحس بنفسه يهوي ويهوي وبوعيه يبهت ويبهت كأنه الشمعة تتعرض لتيار هواء قوي ، حالاً ستنطفىء الشمعة ، ويفقد الوعي تماماً والى الأبد ، غير ان اللحظات طالت ، حتى جرؤ على فتح عينيه فوجد نفسه يقترب من الأرض بسرعة فعاد يغمض عينيه وفي اللحظات التالية بدلاً من فقدان الوعي اصطدم بالأرض ولم يتحرك من مكانه منتظراً الموت غير ان الموت لم يأت . كل ما في الأمر أحس بآلام هائلة ، آه ، كيف فاته وهو العالم الكبير ان سقوط من في وزنه لا يمكن أن يؤدي الى وفاته أو حتى كسر عظامه . هذه المرة غضب . وفي غضبته راح يبحث بسرعة عن وسيلة أخرى يقضي بها على نفسه ، لم يكن أمامه الا ان ينام فوق قضيب السكة الحديد وينتظر القضاء تحت عجلات القطار ، ولكن القضاء لم يحل ، فالهواء الناتج عن القطار القادم تكفل بنفخه حتى طار من فوق القضيب واستقر كالريشة ، على الزلط ، حتى الغرق في النيل جربه ، فوجد نفسه ، وفقط بحجم ما يرتديه من ملابس ، يطفو على سطح الماء ، ولم يفكر في خلع ملابسه مخافة ان تفشل الوسيلة فيضطر الى أن يعيش عارياً وهو مصير لم يكن يتصوره .

تكفل فشل هذه الوسائل جميعها برد بعض التعقل اليه ، وكأن نية الموت لها حد محدود بحيث بعد محاولة أو محاولتين لا يصبح الانسان قادراً على أن يظل منتوياً الموت . وهكذا وهو طاف على سطح ماء النيل بعد فشله الثالث ، قرر أن يحيا ، أن يكافح ليحيا كما يريد ، وينتزع الحياة بأظافره وأسنانه ما دام الناس لا يستطيعون ان يقدموها اليه على طبق من الفضة . ولكي تقرر أن تحيا ، عليك أن تقرر أيضاً ماذا تفعل بحياتك .. وهكذا في نفس اللحظة كان النص نص قد قرر أن يحل بحياته القادمة المقبلة كل ما استعصى على البشرية ، حتى ذلك اليوم ، حله .

ونفس الشــيء الذي كان يقف حائلاً بينـه وبـين حقـه في الحياة كالآخرين ، نفس صغر حجمه ، توسل به كي يحيا كما يريد ، الآن باستطاعته ان يختار أفخر مكان يريد الاقامة فيه وأحسن مكان يعمل فيه ويجرب .. واختار هيلتون ليقيم فيه ، أما رقم حجرته فهو رقم أي حجرة لا يشغلها قاطن ، وان كان الفندق كله مشغولاً فهو رقم حجرة أجمل قاطنة من قاطنيه ، على شرط أن يصحو قبلها ، مخافة أن ترفع البطانية وتكتشف شريكها في الفراش ويغمى عليها من الرعب .. أما العمل فقد اختار معامل الكليات جميعها بعد انتهاء اليوم الدراسي حيث تصبح كلها تحت أمره . والآن وقد توفر له السكن والمعمل والأدوات لم يعد أمامه إلا أن يستغل ما يحفل به عقله من كنوز المعرفة ، ويعمل ، وكان أول موضوع اختاره وأراد أن يلقي به درساً على كل هؤلاء الذين تجاهلوه وازوروا عنه . كان الوصول الى القمر ، وبعد ابحاث لم تستغرق سوى بضعة أسابيع كان قد اكتشف الطريقة ، لا لم يستعمل الصواريخ ولا الوقود ، استعمل طريقة ابسط من هذا بكثير فقد اكتشف كنه الجاذبية وادرك انها شحنة نوعية بمعنى انك اذا استطعت ان تشحن مادة بنفس شحنة الجاذبية الأرضية فانها تتنافس مع الأرض وتصعد الى أعلى ، وهكذا استطاع أن يشحن مركبة الفضاء الصغيرة التي صنعها في معمل الميكانيكا بكلية الهندسة بواسطة جهاز صغير مركب داخل السفينة وبتشغيل الجهاز تنافرت المركبة مع الأرض وبتقوية الشحنة أمكن أن يسرع بها الى درجة انها قطعت المسافة بين الأرض والقمر فيما لا يزيد عن الساعة ، وحين اقترب من القمر أعاد شحن السفينة بنفس جاذبية القمر . وهكذا تعادلت قوة تنافرها مع القمر مع قوة اندفاعها الأولى وهبطت على سطح القمر بسلام . وطور بعد هذا اختراعه ليستطيع أن يسافر الى الكواكب الأخرى . وهكذا كان يكفيه ان يشغل الجهاز بحيث يمنع عن السفينة الجاذبية الأرضية وفي نفس الوقت يشحنها بجاذبية مضادة لجاذبية المريخ أو الزهرة أو أي كوكب يختاره ، فاذا بجاذبية ذلك الكوكب تتفاعل مع جاذبية السفينة ودون حاجة الى بوصلة أو ملاحة فضائية أو مرشد كانت السفينة تنجذب تلقائياً الى الكوكب بقوة عظمى حتى لقد استطاع أن يصل بالسرعة الى مليون كيلومتر في الثانية وهي أضعاف سرعة الضوء . وهكذا كان يستطيع الوصول الى القمر في نصف ثانية ، والى المريخ في ٢٥٠ ثانية ..

وهكذا وضع قدمه على الطريق للسفر الى العوالم الأخرى التي تفصلها عنا مئات السنوات الضوئية ، إذ هو لم يجد حياة على المريخ كما كان العالم يتوقع ، وبدراساته وتلسكوباته الرادارية أمكنه أن يكتشف ان هناك قانوناً أساسياً من قوانين الكون ، قانون التماثل بمعنى ان كل مجموعة نجمية توجد فيها الشموس والأقمار بنظام واحد ، بمعنى ان المجموعة الشمسية المقابلة لمجموعتنا في الكون الآخر لها هي الأخرى شمس مثل شمسنا وعلى نفس البعد منها يوجد مريخها وزهرتها وأيضاً على بعد ٥٣ مليون ميل منها توجد كرتها الأرضية ، وهكذا .. فالحياة لا توجد إلا في الكرة الأرضية الموجودة في المجرة المقابلة لمجرتنا ، وهي كرة تبعد عنا بحوالي

٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠ر٥٢٥ ميل ويستغرق الانسان في قطعها ثمانين مليون سنة ضوئية فاذا عرفنا ان المسافة بين الشمس والأرض ٩٣ مليون ميل يقطعها الضوء في ثماني دقائق ونصف دقيقة لأمكن أن نتصور المسافة الهائلة التي لا بد تفصلنا عن زميلتنا الكرة الأرضية الأخرى والتي من أجل الوصول اليها كان على النص نص أن يصل الى جهاز يستطيع أن يولد قوة جاذبية تصل بسفينة الفضاء الى سرعة أسرع بكثير من سرعة الضوء والا لاستغرق ثمانين مليون سنة ضوئية للوصول اليها ونفس المدة في العودة منها ، وهكذ أمكن أن يصل بجهازه الى سرعة توازي مليون مليون مرة سرعة الضوء وبهذا أمكنه أن يذهب الى الكرة الأرضية المقابلة ويعود منها في بحر ٧٤ يوماً فقط وهو شيء خارق للعادة كما ترى .

غير أن بناء هذا الجهاز كان سيستغرق وقتاً اذ هو يقوم بمفرده دون مساعدة من أحد ولا بد أن يصنعه متيناً قوياً مزوداً بكميات من الأوكسجين والوقود تكفي لهذه الرحلة الطويلة ، ولهذا وفي انتظار ان يتم صنع مركبة فضائية واصل العمل في بحوثه الأخرى فاكتشف « كورس » الأربعة عشر يوماً للوصول الى درجة العبقرية . ذلك أنه بدراسته للانسان وللحيوان اتضح أن الذكاء والقدرة العقلية مبعثها هرمون خاص مسئول عن تغذية وتشغيل خلايا المخ ومع ان طاقة المخ البشري طاقة جبارة الا ان الجزء المستخدم منها قليل جداً ذلك ان هذا الهرمون يفرز بكمية قليلة في حين أننا لو زدنا من كميته لاستطاع العقل البشري ان يعمل أضعاف أضعاف ما يعمله الآن ودون جهد يذكر ، وهكذا بواسطة الأربعة عشر حقنة تؤخذ على مدى اربعة عشر يوماً أمكنه ان يصل بالعقل البشري الى ان يصبح له قدرة شكسبير الشعرية والمسرحية وذكاء اينشتين وحساسية بتهوفن الموسيقية . انه يضع الانسان بواسطة هذا « الكورس » على أعتاب العبقرية ولكنه لا يستطيع ان يصنع له شيئاً آخر اذ الباقي عليه هو وحده ان يقوم به وينتجه . بل ان بحوثه في هذا الاتجاه اوصلته الى طريقة تركيب الخلية العصبية وبالذات طريقة تركيب الأحماض الأمينية التي تكون الكروموسومات داخل نواة هذه الخلية وهي الأحماض الأمينية المسئولة عن صنع الحياة اذ هي تستطيع ان تحيل المواد العضوية وغير العضوية الى مواد حية قادرة على الانقسام الذاتي والحركة . كل المشكلة ان العلماء الذين سبقوه لم يستطيعوا الوصول الى هذا التركيب لأنهم كانوا يدرسون على خلايا الجسم الانساني والحيواني في حين ان خلايا الانسان والحيوان مهما كثر عددها ليست سوى أجزاء من الكائن الحي ، ولذلك اتخذ هو حيواناً ذا خلية واحدة ولكنها كبيرة الحجم جداً بحيث تسهل دراستها ، اتخذ البيضة .. بيضة الدجاج باعتبارها وحدة حية قائمة بذاتها ، وبواسطة الميكروسكوب فوق الالكتروني الذي ابتكره ، وهو ميكروسكوب قادر على التكبير الى مليون ضعف أمكنه أن يرى جزيئات الحمض الأميني ، بل أمكنه أن يرى هذه الجزيئات وهي تتكون من تلقاء نفسها وتتركب ، ولم يكن عليه بعد هذا الا ان يقلد العملية ، وهكذا استطاع بواسطة محاليل من الكربوهيدرات والمواد النيتروجينية والكبريتية وبامرار تيار منشط عبارة عن سيل متدفق

من الأشعة فوق البنفسجية ، أمكن لهذه المواد ان تختار النسب التي تتحد بها مكونة البروتوبلازم الحي ، ولأنها مواد معلومة الوزن وقد أمكنه ان يعرف نسب هذه المواد التي دخلت في تركيب البروتوبلازم ، أمكنه ان يصل الى هذا اللغز المعقد ويعرف سر تركيب المادة الحية . بل أمكنه ان يخلق خلايا حية في كأس زجاجي ، الخلية منها في حجم البيضة ، تتفاعل بالضوء وتنجذب او تنكمش لدى اقتراب الخطر وقادرة على تغذية نفسها بل وان تنقسم في النهاية الى خليتين . وكان يعتقد قبلاً انه لو وصل الى هذا الحد لتكشف له سر الحياة ولامكنه ان يصل الى تركيب كائنات أرقى بكثير من كائنات الخلية الواحدة ولكن المشكلة التي واجهته جعلته يكتشف ان هناك لا بد سراً آخر غير مجرد التركيب الكيميائي ، ذلك السر الذي يبدو كأنه كامن في الخلية الحية الحقيقية يجعلها لا تنقسم ولا تتكاثر وتتحرك فقط ولكن يجعلها - وهذا هو أهم شيء - تتطور لتأخذ باستمرار أشكالاً أخرى . الخلايا التي أوجدها لها نفس تركيب الخلية الحية الكيميائي ، فماذا اذن يجعل الخلية الحية قابلة للتطور بينما خلاياه هو خاملة لا تتطور ؟ .. ذلك هو السؤال . سؤال كان يبدو عويصاً الى الدرجة التي جعلته يؤجل الاجابة عنه ليبتكر للبشرية بعض الأشياء التي تحتاجها بشدة مثل السرطان وعلاجه . ولكي يعالجه كان عليه أن يعرف سببه وقد اكتشف السبب من نفس تجربته السابقة ، إذ هناك خميرة معينة داخل الخلايا الحية مسئولة عن انقسام تلك الخلية وتكاثرها ، حين يصل الحجم بالخلية الى درجة معينة أو يصل بها العمر الى زمن معين محدد تعطي الخميرة الاشارة وتبدأ الخلية تنقسم . هذه الخميرة ليست مستقلة في عملها ولكنها خاضعة لاحتياجات الكائن الحي ككل بحيث حين لا تستدعي الحاجة يستطيع الجسم ان يؤجل التكاثر والانقسام أو يشرع به اذا استدعت الضرورة ، وذلك بواسطة هرمون معين ، والسرطان ليس سوى تحرر خمائر الانقسام الموجودة داخل الخلايا من أثر هذا الهرمون ، بحيث تبدأ تتكاثر أوتوماتيكياً دون هرمون يزجرها أو يوقفها عند حدها . وعلاجه لا يتعدى تزويد الانسان بجرعات من هذا الهرمون تعيد اخضاع الخلية للمراكز العليا واحتياجات الجسم .

وهكذا حل النص نص مشكلة السرطان . أما السل وبقية الامراض فلم ينفق وقته في ايجاد علاج لها كل على حدة ، وانما توصل الى معرفة نوع من المنشطات الحيوية ، تلك التي تفرزها الخلية الحية اذا أشرفت على الموت ، قبل موتها بثوان ، وكآخر سلاح لديها تطلق الخلية خميرة سماها العلماء المنشط الحيوي تقضي على كافة اعداء الجسم من ميكروبات وتنقذ المريض في آخر لحظة ، استطاع النص نص ان يتوصل لمعرفة نوع منها قادر على الفتك بأية ميكروبات مهما بلغت قوتها ، بل وبواسطة قرص واحد منها يأخذه الانسان كل أسبوع يستطيع أن يضمن الانسان بقاءه سليماً معافى من كل الأمراض . حتى الأمراض الاجتماعية ، وبواسطة لتر من الانتي كابيتال يوضع في كل مليون متر مكعب من ماء الشرب يستطيع هذا العقار ان يغير من أفكار الناس بحيث لا يعودون يطيقون الجشع الرأسمالي ويصبحون أكثر حساسية في كل ما

يتصل بالغير بحيث لا يرضون ظلمه أو الجور عليه ، حتى روح الحرب والعدوان يستأصلها إذ هو يضخم مركز الغيرية في المخ ، ذلك المركز الذي تصدر منه كافة الأفعال والتصرفات الانسانية وتهدف الى المحافظة على النوع من خلال المحافظة على المجموع عكس المركز الآخر الذي يضمر بانتي كابيتال ويذوي ، مركز المحافظة على النوع من خلال الذات . حتى السينما والتلفزيون استطاع النص نص ان يبتكر عدسة التصوير وعدسة العرض التي تجعل الفيلم يبدو حياً بنفس أضواء الحياة وطعمها وتجسيماتها .

وأخيراً توج النص نص أبحاثه ، في خلال بضعة شهور بأن استطاع اكتشاف نظرية جديدة لتركيب الكون ، إذ كان الناس يتصورون الكون من خلال تصورهم للجزء الذي يستطيعون رؤيته منه أو حتى من خلال الجزء القادرين على تصور مقياسه ، والتصور البشري يبدأ من تصور جزء على عشرة مليون جزء من المليمتر الى ألف مليون سنة ضوئية تلك هي المسطرة التي كنا نقيس بها الكون ، في حين ان هذه المسطرة لو وضعت على المقاييس الحقيقة للكون لبدت وكأنك تضع مسطرة طولها قدم واحدة على المسافة بين الأرض والشمس ، فهناك مقاييس نسميها أصغر بكثير من الجزء على مليون جزء من المليمتر ومقاييس أكبر بكثير من الألف مليون سنة ضوئية ، اصغر الى ما نسميه المالانهاية وأكبر من المالانهاية المزعومة ، في حين لا توجد المالانهاية ، والذرة ليست سوى كون كامل يشبه مجرتنا والالكترون الموجود في الذرة ليس سوى كرة أرضية بأكملها وداخل هذا الالكترون توجد مجموعة الكترونية عبارة عن نواة وحولها أجسام تدور وكل جسم منها عبارة عن فلك كامل ، وهكذا الى ان تصل الى دقائق تنجذب الى بعضها البعض بسرعة فائقة حتى تصل الى الحد الأدنى من القرب وحينئذ تبدأ تتنافر وتتباعد ، وهذا هو نبض الكون إذ نفس هذا النبض يحدث وبنفس السرعة للأكوان الكبيرة التي تتجاذب الى الحد الأدنى من المسافة لتعود تتنافر وتفقد تكوينها مكونة السديم الذي يبدأ يصنع منه التجاذب الأصغر فالأكبر فالأكبر حتى تتكون المجرات والافلاك ويحدث التجاذب من جديد ، سرعة نبض الكون ثابتة ولا يوجد أكبر أو أصغر ، فطريق التقائه ليس سوى تجمع لذرات نراها نحن من داخلها في حين انها من الخارج قد تكون جزءاً من مادة أو حتى جزءاً من جزيء داخل في تكوين كائن حي من الصعب تصور حجمه . القانون الواحد الذي يحكم هذا الكون كله هو قانون التجاذب للتنافر أو التنافر للتجاذب ، على أساسه يمكن تفسير كل شيء ، حتى تفسير نشأة الحياة وتعدد الأنواع ، فالجزيئات تظل تتجمع وتكبر الى ان تصل الى الأعلى فتتنافر وتنقسم وتتحدد مكوناتها الجديدة مكونة أنواعاً أخرى من الجزيئات حتى يؤدي التجميع الى الانقسام ، واعادة التكوين الى جزيء الحمض الاميني الذي يتجمع على هيئة خلية واحدة تظل تنمو الى الحد الأعلى ثم تنقسم ليحدث بين مكوناتها المنقسمة وبين مكونات خلية أخرى مختلفة معها قليلاً ، نوع من التزاوج يؤدي الى ظهور الحيوان عديد الخلايا وبتكرر العملية تتعدد الأنواع حتى

تصل الى القرود والانسان الذي يتطور بعد هذا بسبب تطور العلاقات الاجتماعية التي تحكم الصلة بين أفراده .

وعشرات غيرها من الاكتشافات والاختراعات ، حتى انه اكتشف فيما اكتشف دواء لمعالجة الذمم الخربة لأصحاب البيوت ، بحيث ان ملعقة منه قبل توقيع العقد تستطيع أن تجعل صاحب البيت يتنازل بمطلق ارادته عن جميع الشروط الواردة بالعقد ، وكلها للأسف حقوق لصاحب البيت لدى المستأجر .

وان يعمل ويكتشف كان مسألة سهلة كان باستطاعته ان يصل الى ما هو أخطر وان يكتشف أشياء أهم بكثير من تلك ، ولكن المشكلة التي كانت تؤرقه انه لم يكن يستطيع ان يفعل بهذه الاكتشافات شيئاً . كان يحملها ويذهب بها الى أصحاب الشركات واساتذة الجامعة والمسئولين فينظرون اليه نفس نظرتهم الى حيوان غريب ويضحكون ، وأحياناً يقبضون عليه ويحملونه في جيوبهم ليفرجوا عليه زوجاتهم ويجعلوا الاولاد يلهون به بعض الوقت ، وذات يوم ضاق به أحدهم الى الدرجة التي أمسكه وقذف به من النافذة فسقط فوق رأس فلاح ما كاد يراه حتى استبشر وقال : يا ما انت كريم يا رب ، وأخذه الى بيته في القرية وابقاه محبوساً ستة أشهر حتى يحين موعد القطن كفأل حسن ، وحين لم يزد المحصول كما كان يتوقع أقسم أن يطعمه لحماره ، ولم ينقذه في اللحظة الأخيرة الا زوجته حين راحت تستحلفه ان يبقيه لكي يجلب لاختها العاقر الحمل ، وبالتأكيد لم يستطع أن يجلب شيئاً ولكنه أفلح في الهرب ووصل الى حيث العمل ومركبة الفضاء التي كانت قد تمت وبغيظ أدار الجهاز وبعد سبعة وثلاثين يوماً كان في الكرة الأرضية المقابلة وحين هبط فوجيء بأعظم وأروع فرحة في حياته ، فقد وجد الناس هناك في مثل حجمه ، ورحبوا به وطافوا به أنحاء الكرة وممالكها باعتباره « انسان الأرض » الذي ترقبوه طويلاً ، ولأنهم كانوا يمرون بنفس الطور الحضاري الذي تمر به كرتنا الأرضية فقد زودهم باكتشافاته التي طبقوها في الحال ، وجعلت من حياتهم جنة فأقاموا له التماثيل ، وكاد قسم كبير من سكان تلك الأرض يقدسونه ويعبدونه من دون الله سبحانه ، ولكنه كان في شغل عن التكريم والتقديس والعبادة بالشوق الغريزي الشديد الذي كان يحسه لكرتنا الأرضية وقاهرته ، ومصر ، شوق جعله يكتشف قانوناً آخر من قوانين الكون وهو ان المادة الحية تحن الى المواد الخام المخلوقة منها وهكذا يحن الانسان الى مسقط رأسه ويحن الجزء من الشيء ، إذا انفصل عنه ، للجزء الأكبر ، حتى سفينة الفضاء تحن الى المعمل الذي صنعت فيه ، وهكذا جاء عليه اليوم الذي لم يعد يطيق ، وتحايل حتى وصل الى سفينة الفضاء وبكل ما يهزه من شوق شغل الجهاز ، وما أروعها من أرض كروية وما يغطيها من سحابات تلك التي طالعته في صباح اليوم السابع والثلاثين .. ما أروعه من شريط رفيع ينحني ويتهادى ويرفق يصب في بحره الأبيض ، ما أروع مصر التي هبط في صحرائها حيث غادر المركبة قرب أهرامها وما لبث ان ضاع في زحمة مدينتها يقيم حيثما اتفق ويأكل وينام كيفما اتفق

وسعادته كلها انه يحيا على الأرض ... أرضه حتى لو كان قد تخلى عن كل طموحه .

الشيء الذي لم يحسب له النص نص حساباً قط هو ان يستخدم أهل الأرض المقابلة معلوماته التي أعطاها لهم الى درجة ان يصنعوا مراكب فضاء مثل مركبة فضائه ، وان يفاجأ أهل الأرض ذات يوم بسرب من هذه المركبات وقد ظهر يحوم حول مدن الكرة الأرضية الكبرى ويرقب الحياة التي تموج فيها .. ولا تحدث عن الحمى التي اجتاحت الدنيا لهذا الحادث الخطير ولا عن الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، خاصة في امريكا ، وقد خرجت تتحدث عن غزو الأرض وتطلب من حكوماتها اخراج ما لديها من قنابل ذرية وايدروجينية لاستعمالها ضد الغزاة « تماما نفس العقلية التي كانت تصنع أفلام الفضاء » ولكن قبل ان يحدث شيء من هذا كان سرب المركبات قد هبط فوق جبال سويسرا وخرج منه سكان الأرض الثانية في حجم عقلة الأصبع يستعملون أجهزة الترانزستور في تضخيم اصواتهم الى الآخرين وفي استقبال أصوات الآخرين ، واندفعت الى سويسرا جموع هائلة من الصحفيين والمخبرين ومحبي الاستطلاع يريدون الوقوف على أسرار تلك الحضارة الراقية التي غزت الفضاء بمثل ذلك الاعجاز وغزت الأرض .. وكانت المفاجأة المذهلة حين ذكر رجال الفضاء هؤلاء ان سفن الفضاء تلك ليست من ابتكارهم انما هي من ابتكار واحد من أهل الأرض اسمه النص نص من بلد اسمها مصر ، كان قد زارهم في مركبة مماثلة منذ عام مضى وزودهم بمعلومات هائلة عن المادة والحياة والأحياء من ضمنها هذا الجهاز الذي أمكنهم به ان يتغلبوا على جاذبية أرضهم وأن يسافروا بتلك السرعة الخارقة في الفضاء حتى يتمكنوا من الوصول الى بنت عمتهم الأرض .

وهكذا في أقل من ساعة كان الناس قد فقدوا الاهتمام بأهل الكوكب الآخر كلية حتى لم ينتظر أحدهم ليودعهم وهم في الطريق مرة أخرى الى كرتهم واندفعوا في أعداد هائلة يحجزون الأمكنة في الطائرات الى القاهرة حتى اضطرت شركات الطيران الى تحويل خطوطها جميعاً الى القاهرة .

ولم ينتظر المصريون وصولهم ، فهم منذ اعلان تلك الأنباء وجموعهم في حالة بحث دائب عن النص نص . ولأول مرة يعترف أساتذة الجامعة الذين امتحنوه ، ولأول مرة يذكره أولئك الذين ذهب يطلب منهم العمل وهزءوا به ، والجميع من سائل الى مسئول قد ركبته حمى البحث ، والكل يحاول ان يتتبع الخيط ، وكل خيط ما يكاد ينمو وينمو معه الأمل حتى ينقطع فجأة وعلى غير انتظار - حتى الفلاح الذي احتفظ به كفأل حسن وقصته معه - ثبت خيط تتبعه الناس الى أخت زوجته العاقر ثم انقطع تماماً . ولكن كان لا بد ان تنتهي مرحلة الفوضى التلقائية تلك ، فالأمر جد خطير للعالم كله، ولا بد من العثور على النص نص ومن الشرق والغرب جاء خبراء البحث والتقصي واعيد استجواب كل من سبق وكان له بالنص نص أي اتصال لمعرفة الاماكن التي يحبها او اين كان يمضي وقته ، حتى خدم السلطان الذين أصبحوا مرشدين سياحيين في قصره الذي تحول الى

متحف ، استجوبوهم بدقة ، وكانت النتائج دائما مخيبة للآمال ، فقد بدا ان باستطاعته ان يوجد ويعيش في أي مكان بالقاهرة او بغيرها من المدن في أي اثني سنتيمتر مكعب يمكنه ان يبقى الى الأبد مختفيا ، النتيجة الايجابية الوحيدة التي خرج بها الخبراء المحليون والعالميون من بحثهم واستقصائهم انه قال ذات مرة : انه يحب أن يمشي على بلاج الاسكندرية ، خاصة في الشتاء ، والى هذا البلاج تحول البحث كله ، ليس فقط بحث الأجهزة والاخصائيين وانما بحث الناس العاديين ، ناس . آلاف الناس المزدحمة صيفاً وشتاء ، لا يطلبون أسرار قوانين الكون والحركة والجاذبية وانما يطلبون أشياء تبدو أسهل بكثير ، الأصلع يريد دواء ينبت له الشعر ، والآخر الذي يريد القضاء على الشيب ، والسيدة العاقر التي تنام وتحلم بالولد ، والمقطوع الساق والأعمى والأعور ، والأبرص والذي به داء استعصى على الشفاء ، جيوش المرضى من أيام موسى وعيسى ، ومحصول النوايا . القاهرة التي تفيض بها أضرحة المشايخ وأهل البيت ورسائل المحبين اليهم ، بعدد سكان الأرض وسكان مصر ، لكل كونه المفقود الذي يبغي العثور عليه ، عالمه الطلمسي الذي يود لو عرف قوانينه ، والجماعات ، جماعات وأفراداً ، في حالة بحث دائب ، في الصيف ، وفي الشتاء ، في الربيع وفي الخريف ، الى أقصى ما يستطيع ان يصعر كل منهم خده ويكبش من الرمال ويغربل ، عله هذه الكتلة ، عله تحت هذه المحارة ، عله في كومة حشائش البحر تلك ، عله من تلقاء نفسه يظهر غداً ، ومن كل صوب تنهال الاتهامات : السبب أساتذة الجامعة الذين لم يعيروه اهتماماً ، السبب البيروقراطية ، والبيروقراطيين الجالسين فوق المكاتب يمنعون العبقريات عن الظهور ، بل كلنا مسئولون .. هكذا كتب صحفي كبير ، عن الجريمة ، كلنا اهملناه واحتقرنا شأنه وها نحن اليوم نقلب الأرض بحثاً عنه ، كلنا مسئولون .

* * *

وعن الجماعة التي اتجهنا إليها صدرت صيحة وكأنها صيحة رعب ، تلتها اندفاعات وصرخات واستغاثات كأصوات الهنود الحمر حين تهجم أو فرق الصاعقة ، وفجأة أيضاً وجدنا المجموعة وقد استحالت إلى كتلة بشرية متكورة ، كتل متضاربة متصارعة صارخة مولولة ممزقة ، لا تحسبن أنهم عثروا عليه ، فهكذا الحال دائماً ، انه واحد منهم خيل اليه ان قطعة الطين التي اصطدمت بها يده هي النص نص وتسابق الآخرون ينتزعونه منه ، تلك كانت آخر كلمات صديقي ، ليس في ذلك اليوم فقط ، وانما في كل الأيام ، إذ ما لبثت الكتلة البشرية أن راحت تتضخم وقد فقد الكل عقله ولم يكن هناك أحد ليتابع ، فمنذ اللحظة الأولى يتحدد الوقت وقد كتب عليك الصراع : إما صراع من أجل الحصول على النص نص المزعوم أو صراع من أجل استخراج نفسك من كثرة البشر المتزايدة المتضخمة المهددة بفعص كل من يقربها أو تقربه ، وفجأة تطلعت فلم أجد صديقي ، كانت الكرة قد ابتلعته ولم أره إلا في اليوم التالي بين عشرات الجثث الممددة فوق رمال الشاطىء .

لم تكن آخر كرة بشرية تتكون أو أول كرة ، فهكذا الحال دائماً ، وكل بضع ساعات أو أيام تحدث الصرخة التي يعقبها التدافع والتكور والفعص .

أما النص نص نفسه فمنذ ان عاد الى الكرة الأرضية ووطأ بقدميه القاهرة فلم يعرف له أحد مكاناً ، البحث قاد حقيقة الى مركبة فضائه التي استعملها ، أما أين وكيف يعيش الآن ؟ .. فذلك لغز لم يستطع أحد ولن يستطيع حله ، من يدري ربما يكون هذه الكتلة البارزة من الرمل أو من التراب . ربما تحت هذه المحارة أو أسفل كومة الحشائش ، ربما في جيبك أنت ... وأنت لا تدري ..

من مجموعة النداهة

الأختان وفاكهة من الشوك

جبرا ابراهيم جبرا *

« يجب على الطبيب أن يسعى جهده فلا ينمي في نفسه هوسا لتعليل كل شيء . وعليه أن يتذكر أن الطبيعة شديدة الغموض في أكثر مسالكها ولا سيما الأمراض . عليه أن يكون مراقب الطبيعة ، لا أمين أسرارها » .

البارون نيكولا كورفيسار
رئيس أطباء نابوليون

« لا ، لا ، مستحيل . انني واهمة . لن تفعل ذلك ، وهي أختي الكبرى . الكبرى ، لا الصغرى فأستطيع أن أنصحها . ولكنني واهمة » .

تقلبت ثريا في فراشها ، وزقزق سريرها ، كأنه أفاق هو أيضا من نومه ، ثم هجع . ولم تفتح عينيها ، رغم الأرق ، أملا في أن تستعيد نومها . ولكنها كانت تحس بوجود أختها على السرير الموازي لها ، كأنها تراها بعينين مفتوحتين . « ما الذي رآه فيها ؟ ما الذي رآه فيها ، والفتيات كلهن يرفرفن حوله دون مشقة منه – ما الذي رآه في هدى ، بعد كل ما حدث ؟ » .

وتقلبت مرة أخرى ، وزقزق سريرها مستجيباً ، قلقاً مثلها . « بعد كل ما حدث . ولكنني واهمة . والا ، فانني سأمقته ، سأتمنى موته . أما هدى الحمقاء ، فانني أشفق عليها . أكرهها . لا ، لست أكرهها ، بل أشفق عليها . ولكنني واهمة . أف ، أريد أن أنام » . وهزت رأسها على الوسادة يمنة ويسرة ، وأزاحت اللحاف عن صدرها ، وعيناها مغلقتان ، وهي ترى هدى (« ترى هل هي نائمة ، أم أنها مستيقظة ولكنها تخشى التقلب لئلا أسمعها ؟ ») وراء أجفانها المطبقة . ولكنها لا ترى هدى وحدها . انها تراه هو أيضا . هو . تكاد أحيانا لا تذكر له اسما . اسمه هو وجهه ، يداه ، عيناه ، مشيته – رافد داود الحلبي . ما الذي قرن رافد بداود ، ما الذي قرن ذلك الصوت ، تلك الكلمات باسم معين ، وهوية معينة ، بشهادة الطب وعيادة في الطابق الثاني في شارع مأمن الله ؟

* جبرا ابراهيم جبرا : أديب فلسطيني ولد في مدينة بيت لحم عام ١٩١٩ ، وتلقى تعليمه في الكلية العربية في القدس ، ثم في جامعتي كامبردج وهارفارد . غادر فلسطين نهائيا عام ١٩٤٨ ، وأقام في العراق . كتب روايات باللغتين : العربية والانكليزية ، والقصة القصيرة ، والدراسات النقدية – المؤلفة والمترجمة إضافة الى كونه رساماً. من أعماله : (السفينة) و (صيادون في شارع ضيق) و (البحث عن وليد مسعود) ومن مترجماته (الصخب والعنف) لوليام فولكنر و (السونيتات) وعدد من المآسي لشكسبير .

« أحبك ؟ لماذا ترددين هذا السؤال ؟ أحب الجبال ، أحب الشوك على السفوح ، أحب جماجم الدواب التي أجدها بين الحجارة مع الزبالة والنفاية » . لقد رأيته يحمل تلك الجمجمة الكبيرة - لعلها جمجمة حمار - الى بيته ويغسلها في المطبخ ثم ينشفها ويضعها على مائدة جانبية ثم يصيح : « ثريا ! هيا معي لنحضر باقة من الشوك » .

- باقة من الشوك ؟

- نعم . لنزين بها مكتبتي .

ونزلت معه الى الحديقة وخرجا الى التلة المجاورة التي كانت مغطاة بالحجارة والشوك ، وجعل يجتث (وهي ترقبه) عساليج الشوك من عروقها ، وأدمى أصابعه ، وهو يضحك .

- ثريا . لقد أدميت اصبعين بالشوك .

وصعدا الى المكتبة ، ودس عروق الشوك في عيني الجمجمة ، وبين فكيها الكبيرين . ثم أوقفته ، تصدت له بعينيها ، بصدرها النافر ، بشفتيها الجافتين قلقا ، وقالت : « أتحبني ؟ » .

- أحبك ؟ لماذا ترددين هذا السؤال ؟ أحب الجبال ، أحب الشوك على السفوح -

« أف ! أريد أن أنام . أنام . أنام » . وتقلبت واستجاب السرير وزقزق .

« أدميت أصبعين بالشوك ! » وأحست بالسلاميات في كل أصبع من أصابعه . كانت يداها تتلمسان يديه في استكشاف عقيم ، ولكنه لا ينتهي : لقد أرادت أن تتلمس الحركة التي تأتيها يداه ، وكل أصبع من أصابعه ، في تلك الثنيات والانحناءات والايماءات التي تتوالى وهو يتكلم كأنها رقص تلتذ عيناها بتتبعه . ولكنها لم تستطع . « عجزت . فشلت . وتملص من بين يدي . ولكن هدى - هدى التي تلثغ وتتلعثم اذا تكلمت ، والتي لا تفهم ما يقال لها فتضحك - كيف خطر له أن ينظر اليها ويطيل النظر ؟ رافد ، لا بل هؤلاء الشباب كلهم الذين يدعون العلم ويتكلمون كأنهم كتب تتلى عن ظهر قلب ، أطباء وغير أطباء ، كلهم كاذبون ، كلهم لا همٌ لهم الا لمس وجه جديد وصب مبالغاتهم في آذان جديدة .. رافد .. وهدى نائمة كالحطبة في هذا السرير » . وسمعتها تتنفس بانتظام . وتقلبت مرة أخرى .

« أأخبرها اذن ؟ ولكن لعلني واهمة . لعل التقاءهما عدة مرات من قبيل الصدفة . أيراها في العيادة ؟ سأخبرها بقصتنا . انها لا تعرف كم كذبت عليها وموهت لكي أخفي عنها أمري مع رافد . سأقص عليها كل شيء . ألن أنام هذه الليلة أيضا ؟ سأقص عليها كل شيء ... » .

ودست يدها تحت الوسادة وأخرجت زجاجة صغيرة أخذت منها حبة واحدة بلعتها وهي تقول : « ليتها تنوّمني سنة كاملة . هذه هي الليلة الثامنة » .

وأفاقت ثريا فجأة حين هزت يد كتفيها برفق ، ورأت أختها هدى واقفة عند رأسها تبتسم ، وقد ارتدت ثيابها وحمرت شفتيها .

قالت هدى : « السابعة والنصف . ألست ذاهبة الى المدرسة اليوم ؟ »

لم تشعر ثريا بأنها نامت اطلاقا . وقالت لنفسها « فمها جميل » ثم قالت : « السابعة والنصف ؟ » وفزت من فراشها .

« اني ذاهبة . قمت في السادسة والنصف اليوم . لقد حضرت الأسئلة والحمد لله ! » قالت هدى ذلك وأخذت حقيبة اليد ودست فيها بضع ورقات ، وتناولت مجلة كانت على المائدة الصغيرة قرب فراشها ، وخرجت وهي تصيح : « مامي ! أنا رايحة ! » .

وأجابت أمها من الرواق : « مع السلامة ! » ثم أضافت بنبرة عالية : « وأنت يا ثريا ؟ أراك تأخرت اليوم . حتى هدى سبقتك ! من كان يصدق أن أختك ستصبح معلمة ، وتذهب كل صباح الى مدرستها دون تردد ؟ » .

* * *

« العينان واسعتان .

« الأنف قصير يندفع طرفه السفلي الى الأعلى

« الفم أميل الى الكبر ينفرج عن أسنان نضيدة ، اذا تمعن فيه الناظر رأى سنين في الداخل تلتمعان بالذهب .

« الوجه أقرب الى الاستطالة ، سمرته خفيفة ، فيه شحوب .

« الشعر أسود مفروق عن جنب ، لا هو بالطويل ولا بالقصير ، يبدأ بعضه كالزغب قريبا من الحاجبين لكثافته .

« القدّ أقرب الى الطول ، أو هو يبدو كذلك لطول الساقين ، وارتفاع الردفين ، وصغر النهدين .

« البشرة ملساء .

« النتيجة : فتاة يبدو عليها الشرود ولكنها ليست شاردة ، ضحكتها تكاد تكون دائمة ، وهي اذا فرحت طفرت في الهواء ورفعت فستانها فوق ركبتيها لتطفر في الهواء طليقة الحركة مرة أخرى . فيها جذب دون اغراء متكلف ، ولا أظنها تعرف عن الحب الا ما قرأته في الكتب » .

بعد أن فرغ الدكتور رافد الحلبي من كتابة هذه الأسطر على احدى أوراق العيادة الصقيلة التي يستعملها للوصفات ، كتب في أعلاها : « هـ . م . » ثم أعاد قراءتها وقال لنفسه : « ترى أتعرف هدى لو قرأت هذا الوصف انني اياها أعني ؟ » ولكن هدى ليست من الذين يسمح لهم رافد بقراءة هذه الورقات التي يضيف اليها كل يوم شيئا جديدا (وهو جالس الى منضدته الطبية في انتظار المرضى) ويحفظها في درج مقفول . وما الداعي الى اطلاعها على ما يقول بينه وبين نفسه ؟ انما المهم أن يراها كل مساء اذا أمكن . وهي على كل لا تحتاج الى اغراء شديد « لتطل » عليه بعد انصراف خادمه عبد في السابعة في أكثر الأماسي ، أو تزوره أحياناً في البيت مع أمه

وأخيه بحجة ما بين العائلتين من قرابة . (لقد تزوج خال هدى ممدوح من ابنة عم أمه – فنشأت بين العائلتين علاقة تشتد وتضعف حسب الظروف . لقد اشتدت حين تعرف بالأخت الصغرى ثريا في بيت خالها ، ثم كادت تتلاشى حين أدركت ثريا الا أمل يرجى منها . ثم انتعشت من جديد حين رأى أختها هدى ثلاث مرات متوالية ، وقال لها المرة الرابعة ، وقد اختلى بها في مكتبه في البيت لدقيقتين : « هدى ، أين كنت مختبئة بهذا الجمال ؟ » . فقالت : لم أكن مختبئة . ولكنك لم تلتفت الي قط في الماضي) .

« هذه القربى حجة لالتقاءاتنا » . كتب رافد هذه العبارة في صفحة أخرى . « أكذوبة أخرى بالطبع . لا بد من الأكاذيب للمجتمع . والمجتمع لا ينخدع بأكاذيبه دائما ، ولكنه في أغلب الأحيان يراعي أصول اللعب ، فيحترم الأكذوبة » .

جاءه المضمد عبد وقال : « هل انتظر يا دكتور ؟ »

فنظر الى ساعته ثم قال : « لا . اذهب الى البيت » .

وبعد ذلك بقليل سمع وقع أقدام على الدرج ، فأسرع الى الباب وفتحه ، ليرى هدى تصعد آخر درجة وفي يدها حقيبتها الصغيرة .

* * *

جلست ثريا قرب الشباك ، وبين يديها رزمة من أوراق الامتحان عادت بها ظهر ذلك اليوم . وقد وعدت طالباتها باعادتها صباح اليوم التالي ، ولكنها ما أن جلست قرب الشباك ، والشمس على وشك المغيب ، حتى شعرت باستحالة البر بوعدها . ورقة فوق ورقة كتبت بقلم الرصاص ، كلها تعيد وتكرر ، بأساليب متقاربة ، غزوات الجرمان للامبراطورية الرومانية جوابا على السؤال الذي كتبته على اللوح حال دخولها الصف ، لاشغال الطالبات ساعة الدرس . لم تكن في حالة من الذهن تساعدها على خوض بحث جديد عن القرون الوسطى ، وهي قد قضت الليلة السابقة في أرق وتقلب . (ولم تنس أن تذهب ، عند عودتها ظهرا ، الى صيدلية لشراء زجاجة أخرى من حبوب النوم) . وهي الآن والهواء البارد يهب متكاسلا من النافذة ليست بأحسن حالا مما كانت عليه في الصباح . انها تريد الاستسلام للنسيم ، للأصيل ، لكل ما يترقرق في السماء من نور أزرق فضي .. يكاد يشبه زرقة الفجر ، فجر ذلك اليوم عندما أفاقت في الرابعة في انتظار الساعة السابعة –

كأنني سأزف ذلك الصباح . كأنني سأبدأ برحلة الى امريكا – متنكرة بالطبع . أميرة في زي العوام – في زي معلمة . وقد أخذت كتبي وأوراقي وباقة القرنفل وركبت الباص . ولكن نزلت منه قبل وصولي الى المدرسة . وأخذت باصا آخر . يا ربي ! ما زالت الساعة السابعة والربع . ومشيت مسافة طويلة . ثم مشيت المسافة نفسها عودة . وقصدت البيت . ألعله نائم بعد ؟ السابعة

والنصف . بل تقريبا الثامنة الا ثلثا . ضغطت زر الجرس . وجاء الى الباب في بيجامته . ورأى بين يدي باقة القرنفل ...

– ثريا ! قرنفل ...

ادخلني كمن يدخل ضيفا . واعتذر عن نومه حتى تلك الساعة . لم يكن يتوقع مجيئي . ألم يعرف أنني كنت في انتظار سفر أمه مع أخيه لاستطيع الاختلاء به في البيت ؟ ألم أعده بذلك ؟ (« ثريا ، حالما تسافر أمي ، حاولي أن تأتيني هنا بعد المدرسة بالطبع » . فقلت : « وقبلها اذا قدرت ») .

– أتذهبين الى المدرسة ؟

– سأغيب اليوم . سئمت الوظيفة . وغدا آخذ الى المديرة تقريرا طبيا – منك !

– ثريا . أنت شريرة !

فضحكت وبحثت عن مزهرية لاضع فيها الزهور . وعندما توارى في الحمام قلت : « أفاجئه بتحضير الفطور » .

حالما خرج من الحمام ورأى الفطور قبلني قبلة قصيرة وضحك . وأكل . وخرج الى البلكون . ثم عاد . وأخذني الى مكتبه . نحن والحضارة ، والكاتب السوري القديم لوقيان يسخر من كل شيء وسوفوكليس يحلل مأساة البطولة والكبرياء في وجه الآلهة ، والهواء ما زال يهب بارداً في الظل . ثم أمسك بي فذابت ركبتاي ولم أستطع الوقوف على قدمي . كانت شفتاه حارتين وتشبثت به . أخيراً ... أخيراً .. وشعره يتشعث فوق عينيه . ويداه تصران على تحسس صدري والكتب تحيط بنا ...

– لماذا ترتجفين ؟

– لست أدري . هيء هيء . لست أدري (لماذا ضحكت كالبلهاء ؟) أوه أخيرا ... أقلعت بي الباخرة . ملذات الدنيا تلقى بين يدي الأميرة . ثريا تستلقي على الطنافس . على الجسم أن يتلقى أشعة الشمس عاريا .. وفي الصف تلك الساعة ثمان وعشرون فتاة يقرأن عن هانيبال وقرطجنة والأفيال تعبر فجاج جبال اسبانيا ... والشمس خلال النافذة تشتعل فوق تلال خضراء ونحن نركض على السفح وندوس الزهور الصفراء والشقائق التي تنمو من الدم وتتضمخ به وأقدامنا تزلق على الدم ورافد يصيح اتبعيني الى حيث أشجار الصنوبر تتراص كمظلة واحدة مترامية تتيه فيها النساء والرجال حيث جمجمة الحمار وجمجمة الخنزير وأنا أنوح مستلقية على السفح والبحر من بعيد يشتعل بالشمس ورافد ينتظر قدوم المساء . ذلك اليوم الذي انفجرت فيه قنابل مؤقتة في سوق الخضرة ووجدوني مغميا عليّ بين القتلى والجرحى وسمعتهم يقولون اليهود اليهود ، ورافد وهدى وأمي وأبي يبحثون بين القتلى والجرحى في ردهة المستشفى الكبيرة البيضاء والملابس البيضاء

والنواح والعويل – الحمد لله على سلامتها . جرح بسيط في الفخذ . جرح بسيط الحمد لله . نزيف بسيط . اعطوها مسكّنا . دكتور نصار ! دكتور كمال ! دكتور رافد ! سستر نزيهة ، سستر جورجيت ، سستر مارشل – أوف رجعنا ؟ رجعنا ؟ – « أتحبني ؟ » .

« عزيزتي ثريا ، ماي دارلنغ ، ثريا ، توتو ، الحياة لا تحد ، الحياة تطالب بالحياة ، يو نو وت أي مين » . « سأزورك في البيت حالما تذهب أمك و – » .

– ثريا ! أين هدى ؟

– نعم بابا ؟

– قلت أين هدى ؟

– لست أدري . أعتقد أنها ذهبت لحضور محاضرة في النادي .

– لعن الله المحاضرات ! أما تنتهي ؟ قومي ساعدي أمك . نريد أن نتعشى.محاضرات ، علم ، حكي فارغ . ما الذي استفدناه من كل هذا العلم ؟ طلعت روحي وروح هذه المرأة أمك الى أن أنهيتما المدرسة أنت وأختك – وما الذي رأينا منكما ؟ بضعة دريهمات في آخر الشهر . قومي ، قومي ساعدي أمك ! نريد أن نتعشى .

لم تجب ثريا بشيء ، بل قامت وأخذت تهيىء المائدة وهي تقول لنفسها : « عاد الى عصبيته . سيقيم لنا عرسا هذه الليلة . أين هدى ؟ مع رافد ولا شك في هذه اللحظة . يجب ، يجب أن أخبرها بقصتي معه » . ورأت أباها يدخل ثقيل الحركة الى المطبخ ليغسل عن ذراعيه ووجهه لوثات السيارات التي يشتغل بتصليحها وقالت : « متى سيكون لدينا حمام منفصل عن المطبخ يا ربي ؟ » .

* * *

– اننا منهمكون دائما في ملء حفرة لا قرار لها . ولذلك فسنبقى منهمكين وستبقى الحفرة فارغة .

– لماذا اذن لا نتوقف عن عملية كهذه ، ما دمنا نعرف بطلانها ؟

– لأننا اذا توقفنا ولجأنا الى السكون أصابنا الشلل . فإما شلل السكون أو حركة باطلة . أيا تفضلين ؟

– لست أدري . لم أنظر الى الحياة بهذا الشكل من قبل .

– لا حاجة بك الى ذلك .

– أرجوك . اني أريد أن أعرف وأن أفهم وأن أعي . أريد أن أطل فوق الحفرة وأنظر الى قرارها .

– قرارها الذي لا يوجد ؟ واذا وقعت فيها ؟

– لا بأس . سأظل في هبوط مستمر ... مستمر ... الى ما لا قرار ... مخيف !

– اذن فالحركة هي ما تبغين ؟

– هذا ما يبدو لي . الحركة .

– رغم عبثها وبطلانها ؟

– رغم العبث والبطلان .

فأمسك رافد بيد هدى . وحدق بعينيها في صمت سمع أثناءه السيارات تمرق هادرة في الشارع تحت النافذة .

ثم قال ببطء ، محاولا أن يستخلص من مبهماته فكرة واضحة محددة : هدى ، أشعر أنك تركضين وأنا ألاحقك . ثم تنقلب الآية فجأة فأهرب أنا وتلاحقينني أنت .

– ألست واثقا من شيء ؟

– لست واثقا الا من لمس يديك ، ورؤية هاتين الحفرتين من السواد : عينيك . في كل منهما نقطة من البريق .

فسحبت يدها من قبضته وقالت : " أما أنا فواثقة من أشياء كثيرة » . ورفعت يدها الى صدره ، وصوّبت شفتيها نحو فمه .

– مثــلا ؟

– مثــلا ..

ورفعت يديها الى وجهه ، وأخفضت رأسه نحوها حتى كانت شفتاها بين شفتيه وراحت أصابعها تمر بين خصل شعره بعنف ، والقبلة تطول وتشتد . ثم جعل رافد يمر بشفتيه على خدها وفكها ، وعنقها ، وإحدى يديه تضغط نهدها دون هوادة .

ثم قال : « تعالي معي الى البيت . ألم تسأمي رائحة الأدوية هنا ؟ » .

– ولكن أمك ؟

– خرجت أمي هذا المساء للزيارة ولن تعود قبل العاشرة .

– لا بأس .

ونزلا بسرعة الى الشارع حيث كانت سيارته ، فركباها وانسابت بهما الى بيته في الطالبية .

وفي غرفة المكتبة ، بين الكتب وباقات الشوك ، جلست هدى على الصوفا جلسة غير مريحة تنظر حولها كفأر حذر .

– واذا فاجأتنا أمك ؟

– كفاك خوفا !

وألصق فمه بفمها ، ومالت بجذعها الى الوراء وأصابعه تسرح على جسمها ، واذا استقرت لحظة غارت في جسمها ، ثم عادت لتسرح على أعضائها من جديد .

* * *

كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف عندما نزل رافد وهدى درج البيت . وانتظرت هدى عند البوابة تلقي حولها نظرات جزعة ، كأنها قد خرجت من البيت بشيء ثمين قد يراه أحد المارين فيصيح في وجهها : سارقة ، لصة ! انها لتتحسس هذا الشيء بين ذراعيها ، على شفتيها ، لصق أهابها ، ولا تريد أن يراها أحد وهي تتمسك به ، ريثما أخرج رافد مفتاح السيارة وفك بابها ودخلها وسحب الرتاج لبابها الآخر . فتحته هدى بسرعة وركبت الى جانب رافد وصفقت الباب ، وللحال أحست بالأمن والطمأنينة . ثم أحست بالترف الذي يبثه مقعد السيارة الوثير . أخفضت زجاج الشباك ، ولكن الهواء قرس وجهها وصدرها فرفعته ثانية ، فاشتد احساسها بالترف والطمأنينة .

نظرت الى بروفيل رافد وهو يسوق ، فلمحها من زاوية عينه اليمنى والتفت اليها وقال : « أضروري أن تعودي الى البيت الآن ؟ » .

– جداً .

وتذكرت أباها جالسا الى مائدة الأكل يقابلها مغضبا ، وأمها تحاول تسكين غضبه فقالت لنفسها « سأدعي ان المحاضرة كانت طويلة ، طويلة جداً » .

– ما رأيك في جولة قصيرة ؟

– ولكن أبي ، ما الذي أقوله لأبي ؟

– لا بأس . أنت محقة . فلنبتعد عن المشاكل .

فثارت وقالت : « ولماذا نبتعد عن المشاكل ؟ لقد قضيت حياتي وأنا أبتعد عن المشاكل ، فماذا حصلت ؟ » .

فأجابها بإصرار :

– لا يا هدى . يجب أن آخذك الى البيت .

– اني أكره البيت . اذا لم تسق بي في جولة خارج البلد الآن ، لن أكلمك مرة ثانية .

فضحك رافد وقال : « يا أعند نساء الأرض ! » وعند أول منعطف في الشارع أدار سيارته ليبتعد بها عن البيت الذي « تكرهه » .

* * *

بعد ما يقارب الساعة دخلت هدى البيت .

وللحال قلّصت أساريرها المنبسطة حتى تلك اللحظة ، وبالغت في التقطيب عندما ألقت حقيبتها من يدها على أقرب كرسي ، وجاءتها أمها متلهفة قلقة لتسألها بصوت منخفض يوحي بخطورة سؤالها : « أين كنت حتى الان ؟ » .

لم تستطع مجابهة أمها بعينيها ، فأجابت وعيناها في اتجاه غرفة نوم والديها ، كأنها تخشى أن يسمعها أبوها – ان كان في فراشه – فلا يصدقها : « في النادي . تأخر المحاضر المحترم في القدوم ، ثم القى محاضرة طويلة أعقبتها أسئلة وأجوبة كثيرة . كان النقاش في الواقع أمتع من المحاضرة نفسها . فما استطعت الخروج . ولما خرجنا أخيرا لم أستطع الحصول على مكان في الباص لشدة الازدحام . فانتظرت وانتظرت – وها أنت ترينني يا ماما » .

نظرت الى أمها نظرة عجلى لتتبين مقدار اقتناعها ، فأدركت أن أمها لم تقتنع . غير أنها قالت : « طيب يا هدى . من حسن حظك أن أباك قد خرج للسهرة بعد العشاء فورا . ولن نقول له متى عدت . ألست جائعة ؟ »

– لا . أين ثريا ؟

فجاء الجواب من غرفة أخرى : « في الفراش . تعالي حدثيني عن المحاضرة » .

فأسرعت الى غرفة النوم التي تنام فيها مع أختها ، وجلست على سريرها ازاء ثريا .

* * *

كان البيت مضاء عندما عاد رافد ، فأدرك أن أمه وأخاه قد سبقاه في الوصول . وقد سمع صوت أمه تتحدث وهو يصعد الدرج دون أن يستبين الكلام ، ولكن علو صوتها على ذلك النحو لم يكن أمرا عاديا . وحالما دخل غرفة الاستقبال انقطع الكلام فجأة . « مساء الخير » .

فأجاب أخوه مازن : « مساء الخير » ، غير أن أمه لم تلتفت اليه .

كانت أمه تلبس السواد الذي ما نزعته في السنتين الأخيرتين منذ وفاة زوجها داود الحلبي . في عينيها الكبيرتين الرطبتين وأنفها الطويل وشفتيها المزمومتين ما يوحي بالحزم والتمتع بالسلطة .

– ما الخبر ؟ خير ان شاء الله ؟

فقال مازن : « ليس لكلام الناس نهاية » .

– أي كلام ؟

– أنت أدرى . قيل وقال ، زيجة وزواج .

فضحك رافد وقال : « أيريدون ايقاعك في الفخ ؟ »

فالتفتت أمه اليه : « بل ايقاعك أنت » .

- ايقاعي أنا ؟
فأجابت وعيناها تبرقان رغم الظل الساقط عليهما :

« رأيناك الليلة في لمحة خاطفة ، ويا ليتنا لم نرك ، وقد جلست بقربك فتاة » .

فضحك رافد قائلاً : « تلك كانت هدى . وقد أوصلتها الى بيتها . أفي ذلك ما يغضبك ، ماما ؟ »

فقال مازن : « من الصدف الغريبة ان أمك سئلت هذه الليلة ان كنت تنوي الزواج من هدى » .

فقاطعته أمه : « سألتني أم حبيب أصحيح أن الدكتور سيتزوج ؟ فقلت ابني يتزوج ؟ لم يستقر بعد منذ رجوعه من الجامعة في بيروت ، فكيف يتزوج . فقالت سمعنا أنه سيتزوج . قلت ممن سمعتم ، قالت غير مهم . قلت لا ضروري أعرف . قالت سمعنا أنه سيتزوج هدى ممدوح . فطار عقلي وقلت : أعوذ بالله من ألسنة الناس . من هي هدى ممدوح حتى يهتم بها ابني ؟ قالت - وأنا أعرف أنها تكايدني - قالت : لا بأس بالفتاة . انها جميلة . قلت جميلة لأمها وأبيها . الله يستر عليها . ولكن أرجوك ألا تعيدي مثل هذا الكلام . فقالت : هذا ما سمعته من أناس يرونهما معا . قلت : مستحيل . انها محسوبة قريبتنا فهي أحيانا تزورنا . ولكن ما دخل ذلك بالزواج ؟ فقالت : لا يا أم خليل ، المسألة ليست مسألة قرابة وزيارة . المسألة - »

فقال مازن : « كفى يا أماه » .

فرفعت يدها في حركة عنيفة وقالت : « لا أريد أن أسمع مثل هذه الأقاويل أبدا . ومن هي هدى ممدوح حتى يقرنوها باسمك ؟ معلمة أطفال ! لقد تقطعت يدا أبيها في تصليح سيارة المرحوم أبيك ، وزيادة في الازعاج أراها في السيارة جالسة بقربك ! لمحة خاطفة ولكنها كانت كافية . يجب أن تقطع ألسنة الناس . سيقولون صام وصام وأفطر على بصلة . هذا ما سيقوله الناس » .

لم يقل رافد شيئا . ظل متكئا بعجزه على ظهر أحد الكراسي ، وقد كتّف ذراعيه ، كأنه يجعل من كلام أمه أمواجاً تمر به وتغمره ، ولكن رأسه طاف فوقها . ثم جاءته موجة أخيرة : « أنت طبيب الآن . حافظ على مركزك ! » .

ونهضت أمه من كرسيها وهرولت الى غرفتها مغضبة . أما مازن فقد ظل جالسا في كرسيه بادي الحرج ، كأنه يريد أن يقول شيئا ولكنه يخشى اثارة أخيه . ثم قال : « لا تزعل يا أخي . أنت أدرى بعقول النساء » .

فقال رافد : « تقوم الدنيا وتقعد ، يفجرون القنابل المؤقتة بالبراميل في شوارعنا ، يهددوننا بالمحق والدمار ، والنساء اللواتي مثل أمي ما زلن يفكرن بالمركز الاجتماعي والفوارق الطبقية » .

– ولكنها تفعل ذلك لمصلحتك . اني معك في كل شيء كما تعلم ولكن قضايا الزواج شيء آخر . ثم من قال انك تريد الزواج من هدى ؟ سيتلطخ اسمها بين الناس بعد قليل ، وقد تفقد وظيفتها كمعلمة ، ثم يضعون اللوم كله عليك .

– بحياتك كفى يا مازن . لن أقبل تدخلا بشؤوني الشخصية .

– حتى من أمك وأخيك ؟

– ولا من أحد .

– تذكر انك في القدس ، في بلد عربي . أنت لست في لندن أو نيويورك .

– أشكر لك النصيحة.

قالها رافد ، واتجه نحو المكتبة . فتبعه أخوه الى الغرفة الصغيرة التي هي صدفة رافد ، مملكته الصغيرة وبيت أسراره ، وقال : « أتذكر حكاية أختها ؟ »

فانزعج رافد والتفت اليه محتدا : « وما شأن أختها ؟ » .

– لقد عالجتها عندما جرحت في حادثة القنبلة .

– ثم مــاذا ؟

– ولكن بعض ذوي الألسنة الشريرة علقوا بأنك أوقعتها في حبك .

فتأفف واستلقى على الصوفا (وهي ما زالت تحمل أثر هدى : فقد خيّل إليه أنه يشم بقايا عطرها) قائلا : « مسكينة ثريا . كادت تفقد احدى ساقيها . ولكن الناس يستطيعون الايلام أكثر من العطف ، فلم يفرحوا لشفائها بل بحثوا عن القذارة قبل كل شيء » .

وفجأة تذكر جمجمة الحمار (التي كانت قد حيرت ثريا حين أصر على غسلها) وأزجى اليها نظرة وقد استقرت على أحد رفوف المكتبة بمحجرين أجوفين ، وقواطعها العليا مطبقة على الفك الأسفل الطويل بعناد وصلابة . وأردف :

« أترى هذه الجمجمة بين الكتب ؟ هذه الكتب كلها لا تتنفس الا أنفاس الشك والتساؤل . والجمجمة هي اليقين الوحيد في عوالم الشك والتساؤل هذه كلها . الموت هو اليقين . ولعل العكس صحيح أيضا . اليقين هو الموت . أما الحياة فهي الشك . أنا لا أعلم ان كانت ثريا وقعت في حبي أم لا ، ولا أعلم ان كنت أحب هدى أم لا . ومن كل أمر في حياتي أنا في شك . لا يقين الا في الموت – أو تحدّي الموت . عندما أرى جماعة من شبابنا يدحرجون برميلا من الديناميت في حي يهودي جوابا على فتك اليهود بنسائنا في سوق الخضرة ، أدرك أن هناك من بلغ يقينا في حياته . أما البقية – » .

– ولكن يا رافد ، قضية فتاة تعرِّض نفسها –

– للوم الناس ؟ أمر غير مهم .

– طيب ، طيب .

– أتعرف عبارة هاملت المشهورة ؟

– أي عبارة ؟

– « بوسعي والله أن أعيش في قشرة جوزة وأعد نفسي سيد الرحاب التي لا تحد ، لولا أنني أرى أحلاما مزعجة » .

فهز مازن برأسه غير فاهم ، وقد يئس من حديث أخيه .

ثم قال رافد : « اننا نرى أحلاما مزعجة . متى سنخرج من قشرة الجوزة ؟ »

فأجاب أخوه وقد ضاق صدره : «أفهم أمي هذا الكلام – ان استطعت » وخرج من المكتبة .

* * *

– كيف كانت المحاضرة ؟

– لا بأس .

فضحكت ثريا ضحكة ساخرة وقالت :

– انك تعيدين دوري من جديد .

فانتصبت هدى في جلستها وقالت :

– ماذا تقصدين ؟

– جعلت تكذبين كما كنت أكذب مرة بعد أخرى .

لم تكن في النادي أية محاضرة الليلة .

– يعني ؟

فلم تجب ثريا للحظتين ثم قالت بصوت منخفض ، وقد ركزت عينيها في عيني أختها :

– كنت مع الدكتور رافد .

فاصفرّ وجه هدى وقالت هامسة :

– هسّ ، لئلا تسمعك ماما .

فأحست ثريا برجفة في يديها وركبتيها حاولت تغطيتها ، وحاولت ما استطاعت أن تمنع التهدج من الظهور في صوتها اذ قالت ، وقد صممت على القذف بكل ما يفور في دمها :

أتعرفين لماذا فسخت خطوبتي ؟

– لأن خطيبك كان نذلا .

– لا يا هدى . لم يفسخ شكري الخطبة الا للسبب المألوف الذي يسعى الجميع في اخفائه . لقد فسخها لأنه عرف بعلاقة لي سابقة مع رجل آخر . والرجل الآخر هو ... رافد .

وقع الاسم كصفعة على خد هدى – صفعة قوية يمتزج فيها الألم والاهانة .

– رافـد ؟

– لم تدم علاقتي برافد أكثر من خمسة أسابيع أو ستة بعد أن عالج ساقي ، ولكنها كانت كافية لتحطيم حياتي .

– ثريا حبيبتي ، أرجوك الا تبالغي .

– لا لست أبالغ . بل مهما قلت ومهما فعلت فلن أستطيع الا اعطاء صورة مصغرة عما حدث لي . لم يعرف أحد منكم في البيت أي نار كنت أتقلب فيها .

ولكن هدى استعادت عبارة أختها لتكتشف معناها من جديد :

– علاقتك برافد ؟ رافد ؟ متى ؟ كيف ؟

– قبل خطبتي بأيام . ذهبت اليه وقلت له : رافد أتعرف شكري الجاسم ؟ فقال : نعم . قلت انه يريد أن يتزوجني . واذا بوجهه يشرق ، وعينيه تلتمعان ، كأنني بشرته بأشهى ما يتمناه ، وقال : تزوجيه ، انه شاب ممتاز !

– ولكن هل كنت تحبينه – أعني هل كنت تحبين رافد ؟ وهل كان يعلم ذلك ؟

– أجل يا هدى . لقد أحببته كالمجنونة .

– وهل قال انه يحبك ؟

– طبعا . وهذا ما لم أفهمه قط . كنت أقول لنفسي أنني أحب أعظم رجل في الدنيا ، وسوف أفعل أي شيء يريده مني . وصممت على المطالعة المتواصلة لأكون أهلا له . أتذكرين الكتب التي كنت أجيء بها كل يوم وأنكب على قراءتها ؟ لقد كانت كتبه . والحفلات الموسيقية والمحاضرات التي جعلت أذهب اليها كلما سمعت بأن هناك حفلة أو محاضرة ؟ كان يتحدث عن أمور لا أفهمها ، ويملأ أحاديثه بأسماء يغيظني ألا أجد معنى لها ، وهي لديه كل شيء . فأقول طبعا ، لقد درس وتثقف في الجامعة الامريكية ، وأنا لم أدرس الا في مدرسة ثانوية هنا . كنت أتهرب من عملي في المدرسة لأقضي معه ساعة أو ساعتين . ولكن – لم أستطع فهم موقفه مني . قلت له يوما : كيف تشعر لو مت فجأة ؟ فقال : لا تكوني سخيفة . فأصررت على سؤالي : أتحزن جدا لو مت ودفنت ؟ فقال : لماذا تسألينني سؤالا سخيفا كهذا ؟ وللحال وجدتني أبكي بين يديه ، وقلت : لست أدري ، أشعر أنك لن تهتم كثيرا بي ولو واراني التراب . وفي الحقيقة كنت أريد ايلامه ، فلم أؤلم الا نفسي وتمنيت الموت لأنني أعرف أنني – أوه لست أدري . ثم كان يقبل علي ويعانقني .

(تصورت العناقات بشدة ووضوح ، وتذكرت كيف كانت ركبتاها تنوبان اذا كانت واقفة فتتداعى بين ذراعيه ، وتشتهي لو يقطّع جسمها عضوا عضوا ، وتسأله باستمرار أتحبني ، وهو لا يجيب الا بلمسات تخف وتعنف ثم يلقي بها عنه) .

ويقول أنه يحبني وأنه لم يعرف فتاة مثلي ويطري على عينيّ وذراعيّ .

(كان يغضبها انه لا يمدحها ولا يبدي همه الا بتقبيلها أو لمسها) .

ويقول أن خديَّ صقيلان مثل .. (لم تستطع أن تتذكر شيئا صقيلاً لمقارنة خديها به) .. أوه حبيبتي هدى لن تعلمي ماذا فعل بي رافد ...

اجتمعت في صدرها آلام أشهر طويلة من الجفاف ، وأخنت عليها الشفقة على النفس ، اذ شعرت بأنها ضحية هوت عليها السكاكين – لقد أحست بالطعنات في صدرها وأحشائها – فتفجرت عيناها بدمع ثقيل سخين جرى على خديها متواصلا ، وتفلّع وجهها خطوطا رسمها الأرق ، ونشجت نشيجا طغى على ألفاظها .

غير أن هدى لم تتحرك ولم تقل شيئا وهي تنظر الى بكاء أختها . سألتها :

« ثم ماذا ؟ »

فجاءت كلمات أختها متقطعة بدمعها :

« ثم .. لم يكن لي الا .. » وأحجمت عن قول ما عنَّ لها فجأة في تلك اللحظة ، فترددت ونشجت ثم أكملت : « الا الانزواء والصمت . والآن جاء دورك » .

وبقيت هدى على د ـتها جامدة العينين . ثابتة الوضع ، الى أن كفت ثريا عن در دمعها ، فقالت :

« قبل ساعتين طلب مني رافد أن أتزوجه » .

فرفعت ثريا عينيها الحمراوين وحدقت بعيني أختها :

– وماذا كان جوابك ؟

– أجبته بالموافقة .

فكادت ثريا تصرخ ، غير أنها حبست الزعيق في حلقها لئلا تسمعها أمها وقالت بحشرجة : « أتوافقين على الزواج من رجل خليع ؟ رجل يقابل النساء سرا في عيادته ؟ رجل أحب أختك وحطمها ؟ » .

– ولكن لم تخبريني بذلك من قبل .

– والآن وقد علمت ؟

– لست أدري .

– لست تدرين ؟

– لست أدري .

– طبعاً تحبينه .

– لست أدري .

– لا شك أنه أسمعك أنواع الاطراء ، وأنواع الغزل ، وأنواع الفلسفة التي تبهرك لانك لا

تفهمينها . يجب أن ترفضي لا الزواج منه فحسب ، بل رؤيته أيضا .

– لا أظن أنني أستطيع .

– هدى ، هدى ، هدى ..

– شش ، ثريا .

وطنَّت أذنا ثريا طنينا ثقيلا كأن رأسها طبل تدق به العصي ، وتررت أن تقذف بآخر قنبلة تستطيع القذف بها في وجه أختها : « لن تعلمي هول الحبل بلا زواج . ولن تعلمي هول الاجهاض .. »

وانكفأت بوجهها على الوسادة لتدفن فيها نشيجا راح يهز بدنها هزاً عنيفاً ، وأختها جالسة على سريرها لا تبدي حراكا ولا تدري ماذا تقول .

كانت الساعة بعد الحادية عشرة صباحا ببضع دقائق وقد فحص الدكتور رافد خمسة مرضى منذ أن وصل الى العيادة . ثم جعل يكتب بخطه الصغير :

« لن تسمح أمي بزواجي من هـ . من السهل جدا فهم الدوافع في مثل هذا الرفض . الزواج الناجح في رأيها هو الزواج الذي يتكافأ فيه الطرفان اجتماعيا وماديا مهما قال المحبون عكس ذلك . هذا اعتقاد لن تتزحزح أمي عنه . وهو الى حد ما أمر معقول .

« ولكن هناك دائما الشاذ الذي يحطم كل قاعدة ولا يعلل بالمقاييس المألوفة ، فتنفتح به امكانيات للحياة جديدة . وأنا يهمني أن أبرز السخف في كل قاعدة اجتماعية ، وألاّ أخضع للمألوف مهما تكن النتيجة ، وأن أجعل الناس – أمي ، أخي ، الأقارب ، الأصدقاء ، الزملاء ، المعارف ، قراء الجرائد ، رواد السينما ، وغيرهم – ينبهرون وينزعجون ، ولو لمدة ما ، ويعودون الى تفحص « قواعدهم » التي يعيشون بموجبها ليروا ما فيها من عطب . الخارجون على المألوف هم الذين يطورون المجتمع .

« يعجبني أن هـ . ليست كثيرة التساؤل ولا كثيرة التأمل . هـ . تفكر بحواسها لا برأسها ، بعكس ث . لن تسمح هـ . لخيالها بالجموح بها ، ولكنها تتمتع دائما بما هو أمامها وبين يديها . أما ث . فلن تهنأ الا بتباريح خيالاتها وآلام تصوراتها . ولها من قوة الخيال ما يقنعها بحقيقة أوهامها ، ومتعتها هي في تصديق تلك الأوهام . من قبلتين خلقت لنفسها مأساة ، وجعلت تسألني كيف يكون شعوري لو وجدتها ميتة بين ذراعي ! من ألف قبلة لن تخلق هـ . الا ملهاة ضاحكة فتقول : غدا أبحث عن ألف قبلة أخرى في مكان آخر . اذا تزوجتها فقد تزوجت نقيضا لي لا يأبه للتحليل ولا للنظريات . ولا أستبعد امكانية خيانتها لي مع أي من أصدقائي – اذا كان جميلا . أما ث . فالويل لي من تشبثها والفسق الذي يعيث في دماغها ! »

بعد أن كتب ذلك صاح بمضمده : « عبد ! »

- نعم دكتور .

- هل من أحد في غرفة الانتظار ؟

- سيدتان .

- أدخل الأولى .

أودع ورقاته الدرج ثم أقفله ، ولما دخلت المرأة قام لها مرحبا : « أهلا وسهلا . تفضلي اجلسي هنا . كيف حالك ؟ »

وما كادت المرأة تفتح فمها حتى دخل المضمد وهمس بأذنه :

« تقول السيدة الأخرى انها ليست مريضة وانها تريد رؤيتك في الحال » .

فقال بلهجة حازمة :

« قل لها انني سأراها بعد دقيقتين » .

وانصرف الى المريضة .

ولكن قاطع المريضة هذه المرة جرس التلفون .

فتناول الطبيب السماعة وقال بكل رزانة : « هالو » .

فجاءه صوت نسائي أشبه بالنشيج : « الدكتور رافد ؟ »

- نعم .

- من فضلك تعال الينا في الحال . أرجوك .

- من الذي يتكلم

- أم ثريا وهدى .

فوجب قلب رافد بشدة فجائية ، غير انه حافظ على هدوء نبرته : « خير ، خير ؟ »

- ثريا .. دكتور ، ثريا ما قامت من نومها حتى الآن ... وهي صفراء ، صفراء جدا ، دكتور ... لا نعرف ... اذا كانت ..

فقاطعها بلهجة الطبيب الواثق مما يجب عمله في كل حالة : «لا تمسوها الى أن آتي » .

- ولكن دكتور ... بحياتك ... أسرع ... لأني خائفة انها ...

- لا بأس لا بأس . سآتي في الحال .

وأعاد السماعة الى مكانها قبل أن يعيد الصوت تكرار المخاوف . وهو يقول لنفسه : « يجب ألا أبدي لهذه المريضة أي اضطراب أو امتقاع في اللون » . ثم قال بلهجته الطبية :

« اسمك من فضلك ؟ » وانصرف الى تدوين ما تشكو منه المريضة . ثم طلب اليها ان تضطجع على سرير الفحص وهو يفكر : يجب أن أعطي كل مريض حقه مهما كانت حالتي

الذهنية .

وحالما فرغ من كتابة الوصفة وخرجت المريضة نزع عنه معطفه الأبيض واذا بعبد يفتح الباب ويومىء الى الزائرة الأخرى ويقول : « تفضلي » .

وكانت الداخلة هدى .

فقال وهو يجمع أدواته في الحقيبة السوداء الصغيرة :

« صباح الخير ، هدى . آسف انني لم أكن أدرك أن المسألة مستعجلة جدا » .

– ولكن أراك تريد الخروج ؟

– الى بيتكم . خابرتني أمك بالتلفون قبل دقائق .

– أمي ؟ ما دخل أمي بالأمر ؟ هل أخبرتها ثريا ؟

فتوقف رافد عما هو فيه ونظر اليها نظرة حادة :

– ألست قادمة من البيت ؟

– لا ، من المدرسة .

– اذن ألا تعرفين أن ثريا ..

– ما بها ؟

– فاقدة الوعي منذ ساعات ؟

فضغطت على حقيبة يدها بأصابع متشنجة وقالت : « هذا تطور جديد . عندما غادرت الدار في السابعة والنصف كانت ثريا نائمة – أو هكذا حسبتها – فلم أزعجها » .

– لنذهب بسرعة .

وأخذها من يدها ، وجرها الى الخارج جرا .

* * *

انقضى النهار ورافد وزملاؤه الأطباء الثلاثة الذين استدعاهم الى المستشفى ، حيث نقلت ثريا ، في استشارات متصلة وعمل دائب . وفي الرواق خارج غرفتها عدد من النساء والرجال حول أم ثريا وأبيها في قلق وتساؤل يتراوحان بين الجهر والهمس .

– لم تفق بعد .

– ستفيق بعد قليل .

– فرغوا معدتها .

قيّأوها .

حقنوها .

– لم ترمش عينها .

– صفراء . ولا تتنفس .
– تتنفس قليلا .
– سـم ؟
– اليود قتال .
– حبوب النوم قتالة أيضا .
– تتوقف على الكمية .
– أربع وعشرون ساعة ؟
– لا شيء . قد تظل ثلاثة أيام .
– سيقتلها الجوع . ولكن سيطعمونها بالأنبوب .
– وهي فاقدة الوعي ؟
– عجيب ، عجيب .

وانتصف الليل والممرضات يحملن أوعية من مكان الى آخر . ورافد يروح ويجيء والأطباء الثلاثة يخرجون ويدخلون .

وكلما رأى أبو ثريا رافد يسأله :

« هل ستعيش يا دكتور ، هل ستعيش ؟ »

فيقول رافد : « يتوقف عليها . ولكنني أعتقد أنها ستعيش » .

وانصرف أكثر الزائرين ولم يبق في الرواق الا والدا ثريا ، وهدى .

ولأول مرة في تلك الساعات كلها شعر رافد بوجود هدى . كانت صامتة فوقف معها قرب والديها ، وأخرج سيكارة وأشعلها . ولم يقل شيئا .

فقال ممدوح بصوت خافت ، بلهجة من يعترف بسر لرجل يأتمنه : « دكتور ، أنت قريبنا ، ولذلك أحب أن أستشيرك . تدري أن ثريا فسخت خطبتها قبل مدة . أتعتقد أنها فكرت في الانتحار بسبب ذلك ؟ »

فسحب رافد نفسا عميقا من سيكارته ، وقد أحس بالاعياء : « كل شيء جائز » .

فقالت الأم : « ثريا حساسة جدا . وكتومة . ولكن عشرات الفتيات يخطبن ثم تفسخ خطبتهن . ما كنت أتصور أنها حساسة لهذه الدرجة » .

فقال رافد : « هناك عوامل كثيرة في قضية كهذه ، منها الظاهر ومنها الخفي . ولعلنا لا نعرف الا الظاهر منها . وهو الأقل أهمية » .

وفجأة ارتمى ممدوح على ركبتيه عند قدمي رافد ، وأمسك بيده وراح يقبلها ، وقال ، وقد انفجر بكاؤه من حلقه ذبيحا يائسا : « بجاه الله وبجاهك ، خلصها . ورحمة والدك خلصها ... » .

فجر رافد يده بعنف وأمسك بكتفي ممدوح وأنهضه على قدميه ، وقال له : « أؤكد لك أنها

ستعيش . ستعيش » .

وانسحب الى غرفة ثريا . ولما حاول ممدوح اللحاق به أوقفه بالباب وقال : « لا . لا تدخل الآن . بعد قليل . بعد قليل . الهدوء من فضلك » . وسد الباب .

ودنا من الجسد المستلقي أمامه دون حراك ، وأمسك بالرسغ وجس النبض . غير أنه أجفل حين أحس بظل يسقط عليه ، فالتفت واذا هدى بوجهها الجامد تقول :

- هل كنت تحبها ؟

فقال بثبات : « لقد جاءتني عدة مرات » .

- هل كنت تحبها ؟

- لا .

- هل حبلت منك ثم أجهضت ؟

فشعر كأن الدم سيتفجر من رأسه غيظا : « من أين لك هذا القول ؟ »

- منها هي .

- منها ؟ وهم من أوهامها .

- وهم ؟ ألا تراها انتحرت لانها عرفت انك تحبني ؟

لقد اعترفت لي بكل شيء ليلة البارحة .

- بماذا ؟

- بعلاقتكما .

- لم أمسها . لقد قبلتها . نعم . ولكنني لم ، لم .... أمسها قط . بعد ساعات ستعود الى وعيها ، بعد أن لفتت أنظار العالم الى تعاستها ، وسترى .

- إذن لم تحبها ؟

فالتفت الى وجه ثريا الأصفر المستقر في الوسادة البيضاء وقال : « هذه مأساتها . لم يحبها أحد » .

ثم عاد فنظر الى هدى وقال : « هل ادعت أنها حبلت وأجهضت ؟ »

- نعم .

فصمت رافد متجهما ، ثم قال ببطء : « أؤكد لك أنها ما زالت عذراء . وأؤكد لك انها لم تأخذ من حبوب النوم ما يكفي لموتها . واذا ما أفاقت وشفيت أرجو أنها ستعترف لك بالحقيقة » .

وفجأة انتفضت ثريا في فراشها مجهدة الوجه ، وقد انشدّت زاويتا فمها الى الاسفل ، وتقطب حاجباها ثم رمشت أجفانها الزرقاء ، وأنّت أنينا خافتا جعل رافد يدور على عقبه ، ويقفز صوب الباب . غير أن هدى أوقفته وقالت : « الى أين ؟ » .

فوقف رافد مكانه ويده على مقبض الباب وقال : « لأبشر والديك بحياة ثريا » . ثم ضحك

وأضاف هامسا : « ولأطلب منهما حياة هدى - واحدة بواحدة » .

وأنّت ثريا مرة أخرى وهدى تجيب هامسة في شدة عصبية :

« لا ، لا . لن تفعل ذلك ! لن تطلب حياتي - ولو أنني مستعدة الآن للقذف بها في البحر من أجلك » .

وأقبلت على سرير أختها لترقبها وهي تفتح عينيها بلأي وجهد ، بينما فتح رافد الباب وقال للوالدين القاعدين في الرواق : « أفاقت ثريا ! »

* * *

- ليتها ماتت !
- لا أقبل منك هذا الكلام .
- طبعا لا تقبلينه . لأنني طبيب ، ولانك أم الطبيب الفخورة بالطبيب .
- لقد أرهقت نفسك يا ابني . لا بأس ، لا بأس .
- لا بأس بماذا ؟
- بغضبك عليّ .
- اذن لن تعترضي على زواجي من هدى ؟
- رافد ، أظللت أسهر في انتظارك حتى الثانية صباحا لتأتيني بذكر هذه البنت من جديد ؟ ألا ترى ماذا فعلت أختها ؟ تنتحر وتعرِّض نفسها لكل أنواع القيل والقال ؟
- ولكنها لم تمت . لقد أعدناها الى الحياة .
- من يدري أي مأزق كانت فيه ؟ ومع ذلك لا تتردد أنت -
- لا بأس . أنا ميت من التعب . لقد بحثت ذلك كله مع هدى قبل مغادرتي المستشفى .
- رح نم يا بني . لأنهم سيحتاجون اليك في النهار .

وذهب رافد الى غرفة نومه وأضاءها وجعل ينزع ثيابه . ولما لبس بيجامته ، أطل من الباب عبر الرواق ، فوجد أن أمه ما زالت جالسة مكانها في غرفة الاستقبال . فعاد اليها وقال :

« أتدرين لماذا انتحرت ثريا ، أو بالأحرى لماذا حاولت الانتحار ؟ »

- لا يهمني أمرها كثيرا .
- لتحقق ما تريدينه أنت .
- لست أفهم .
- لكي تمنع زواجي من هدى .
- هي تمنع زواجك من هدى ؟ لم أفهم بعد .
- وقد نجحت . لقد أرهبت أختها بأن استحضرت شبح الموت وزرعته بيني وبين هدى . ولذا

فان هدى تخشي الزواج مني الآن . شيء عظيم . يجب أن أسجل ذلك في ملاحظاتي الطبية . أترين ؟ جعلت ثريا من مرضها ذريعة للهجوم ، فخرجت منتصرة . واستفدت أنت من حيث لا تعلمين ولا هي تعلم . تصبحين على خير . أرجوكم الا توقظوني قبل العاشرة .

– رح نم حبيبي . تصبح على خير .

وقامت أمه المجللة بالسواد واتجهت نحو غرفة نومها (وهي تقول لنفسها : انه متعب . سأسأله غدا ما الذي يعنيه بهذا الهذر) وتبعها رافد . وبحركة من أصبعه أطفأ النور في غرفة الاستقبال . ثم أطفأه في الرواق . ثم أطفأه في غرفته . وتلمس طريقه الى الفراش في الظلام .

من مجموعة عرق وبدايات من حرف الياء

من الشعر العربي القديم

معلقة زهير بن أبي سلمى المزني*

أمِنْ أمِّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ(١)

وَدارٌ لَها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنَّها ... مَراجيعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ(٢)

بِهَا العِينُ والآرامُ يَمْشينَ خِلْفَةً ... وَأطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ(٣)

وَقَفْتُ بِها مِنْ بَعْدِ عِشْرينَ حِجَّةً ... فَلأياً عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ(٤)

أثافِيَّ سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ(٥)

فَلَمّا عَرَفْتُ الدّارَ قُلْتَ لِرَبْعِها ... ألا انْعِمْ صَباحاً أيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ

تَبَصَّرْ خَليلي هَلْ تَرى مِنْ ظَعائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعَلْياءِ مِن فَوقِ جُرْثُمِ(٦)

جَعَلْنَ القَنانَ عَنْ يَمينٍ ، وَحَزْنَهُ ... وَكَمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِمِ(٧)

عَلَوْنَ بِأنْطاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ ... وِرادٍ حَواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ(٨)

ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ ... عَلى كُلِّ قَيْنِيٍّ قَشيبٍ وَمُفْأمِ(٩)

وَوَرَكْنَ في السّوبانِ يَعْلونَ مَتْنَهُ ... عَلَيْهِنَّ دَلُّ النّاعِمِ المُتَنَعِّمِ(١٠)

بَكَرْنَ بُكوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهُنَّ وَوادي الرَّسِّ كاليَدِ لِلْفَمِ(١١)

---

* زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني : ولد في بلاد مزينة قرب المدينة وهو من الشعراء الجاهليين أصحاب المعلقات . تسمى قصائده بـ (الحوليات) اذ انه كان ينظم القصيدة في شهر ، وينقحها على مدار سنة . وقد كان والده وخاله شاعرين ، وكذلك كانت أخته سلمى وابناه كعب وبجير . يعتبر حكيم الشعراء لما ورد من الحكمة في شعره . توفي نحو عام ٦٠٩ ميلادية .

(١) أم أوفى : زوجة الشاعر - حومانة الدراج والمتثلم : اسم لمكانين .

(٢) الرقمتان : حرّتان احداهما قريبة من البصرة ، والأخرى قريبة من المدينة - نواشر المعصم : عروق المعصم

(٣) العين : هي البقر ذات العيون الواسعة - الآرام : مفردها رئم وهي الظباء ذات اللون الأبيض

(٤) الحجة : السنة

(٥) الأثافي : حجارة توضع عليها القدور - سعفا : سوداء

المعرس : المكان الذي تنصب فيه القدور - المرجل : القدر

النؤي : خندق صغير يحفر حول البيت لتجري فيه مياه الأمطار فلا تدخل البيت - الجذم : الأصل

(٦) جرثم : اسم عين ماء

(٧) القنان : اسم جبل لبني أسد - الحزن : كل ما غلظ من الأرض وكان مستوياً

(٨) العقمة : الثياب الحمراء اللون

(٩) السوبان : الأرض المرتفعة ، وهو هنا اسم جبل - جزعنه : قطعنه - القشيب : الجديد - المفأم : الموسّع

(١٠) وركن : ركبن أوراك الدواب

(١١) بكرن بكوراً : سرن بكرة - وادي الرس : اسم مكان

وفيهنَّ مَلْهىً للصَّديقِ ومَنْظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بهِ حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ (١٢)

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ (١٣)

سَعَى ساعِياً غَيْظُ بنُ مُرَّةَ بَعْدَما ... تَبَزَّلَ ما بَيْنَ العَشيرَةِ بالدَّمِ

فَأَقْسَمْتُ بالبَيْتِ الذي طافَ حَوْلَهُ ... رِجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ (١٤)

يَميناً لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما ... على كُلِّ حالٍ مِنْ سَحيلٍ وَمُبْرَمِ (١٥)

تَدارَكْتُما عَبْساً وَذُبْيانَ بَعْدَما ... تَفانَوْا ، وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ (١٦)

وَقَدْ قُلْتُما أنْ نُدْرِكَ السِّلْمَ واسِعاً ... بِمالٍ وَمَعْروفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُما مِنْها على خَيْرِ مَوْطِنٍ ... بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقوقٍ وَمَأْثَمِ

عَظيمَيْنِ في عُلْيا مَعَدٍّ هُديتُما ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ (١٧)

تُعَفَّى الكُلومُ بالمِئينَ ، فَأَصْبَحَتْ ... يُنَجِّمُها مَنْ لَيْسَ فيها بِمُجْرِمِ (١٨)

يُنَجِّمُها قَوْمٌ لِقَوْمٍ كَرامَةً ... وَلَمْ يُهَريقوا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مِحْجَمِ (١٩)

فَأَصْبَحَ يَجْري فيهِمُ مِنْ تِلادِكُمْ ... مَغانِمُ شَتَّى مِنْ إفالٍ مُزَنَّمِ (٢٠)

ألا أبْلِغِ الأحْلافَ عَنِّي رِسالَةً ... وَذُبْيانَ هَلْ أقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ

فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفوسِكُمْ ... لِيَخْفَى ، وَمَهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فَيوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ الحِسابِ ، أوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وَما الحَرْبُ إلاَّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَما هُوَ عَنْها بالحَديثِ المُرَجَّمِ (٢١)

---

(١٢) فتات العهن : قطع الصوف المصبوغ – حب الفنا : عنب الثعلب

(١٣) جمامه : جمع جم الماء وجمته

(١٤) قريش وجرهم : قبيلتان من قبائل العرب

(١٥) السيدان: هرم بن سنان والحرث بن عوف ، وقد مدحهما الشاعر لاتمامهما الصلح بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى أثر حرب داحس والغبراء – السحيل : كل ما فتل على طاق واحد
– المبرم: كل ما فتل على طاقين ، ويقصد هنا الحال الضعيف والحال القوي

(١٦) عبس وذبيان : من قبائل العرب – منشم : اسم لامرأة تبيع العطر ، اشترى قوم منها جفنة من العطر ، وتعاقدوا وتحالفوا ، وجعلوا آية الحلف غمسهم أيديهم في ذلك العطر . ثم قاتلوا عدوهم الذي تحالفوا لقتاله ، فقتلوا عن آخرهم ، فتطير العرب بمنشم ، وتشاءموا بعطرها ، فأصبحت مثلاً . وهناك رواية أخرى هي ان عطاراً كان يشتري من العطر ما يخط به الموتى ، فسار المثل بعطره

(١٧) معد : من قبائل العرب (١٨) تعفى : تمحى – المئين : المئين من الابل

(١٩) المحجم : آلة الحجام

(٢٠) التلاد : المال القديم – إفال : مفردها أفيل وهو الصغير السن من الابل – المزنم : الذي له زنمة

(٢١) المرجم : الحديث المرجم الذي يرجم فيه بالظنون

مَتى تَبْعَثُوها ، تَبْعَثوها ذَميمَةً … وَتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموها فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحى بِثِفالِها … وتَلْقَحْ كِشافاً ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ(٢٢)

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أشْأَمَ كُلُّهُم … كَأَحْمَرِ عادَ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ(٢٣)

فَتُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِلُّ لأَهْلِها … قُرىً بِالعِراقِ مِنْ قَفيزٍ وَدِرْهَمِ(٢٤)

لَعَمْري لَنِعْمَ الحَيُّ جَرَّ عَلَيْهِمُ … بِما لا يُؤاتيهِم حُصَيْنُ بْنُ ضَمْضَمِ(٢٥)

وَكانَ طَوى كَشْحاً على مُسْتَكِنَّةٍ … فَلا هُوَ أبْداها وَلَمْ يَتَقَدَّمِ(٢٦)

وَقالَ سَأَقْضي حاجَتي ثُمَّ أتَّقي … عَدُوّي بِأَلْفٍ مِنْ وَرائي مُلْجَمِ

فَشَدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتاً كَثيرَةً … لَدى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ(٢٧)

لَدى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ ، مُقَذَّفٍ … لَهُ لِبَدٌ ، أَظْفارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

جَريءٍ مَتى يُظْلَمْ يُعاقِبْ بِظُلْمِهِ … سَريعاً ، وإلاّ يُبْدَ بالظُّلْمِ يَظْلِمِ

رَعَوْا ظِمْأَهُمْ حَتَّى إذا تَمَّ أَوْرَدوا … غِماراً تَفَرَّى بالسِّلاحِ وَبالدَّمِ(٢٨)

فَقَضَّوْا مَنايا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَروا … إلى كَلأٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخَّمِ

لَعَمْرُكَ ما جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِماحُهُمْ … دَمَ ابْنِ نَهيكٍ أَوْ قَتيلِ المُثَلَّمِ

وَلا شارَكَتْ في المَوْتِ في دَمِ نَوْفَلٍ … وَلا وَهَبٍ مِنْهُمْ ولا ابْنِ المُخَزَّمِ

فَكُلاًّ أراهُمْ أَصْبَحوا يَعْقِلونَهُ … صَحيحاتِ مالٍ ، طالِعاتٍ بِمَخْرِمِ(٢٩)

لِحَيٍّ حِلالٍ يَعْصِمُ النّاسَ أمْرُهُمْ … إذا طَرَقَتْ إحْدى اللَّيالي بِمُعْظَمِ

كِرامٍ فَلا ذو الضِّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ … وَلا الجارِمُ الجاني عَلَيْهِمْ بِمُسْلِمِ(٣٠)

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ … ثَمانينَ حَوْلاً لا أبا لَكَ يَسْأَمِ

---

(٢٢) الثفال : خرقة أو جلدة تبسط تحت الرحى ليقع الطحين عليها – الكشاف : هو ان تلقح النعجة في السنة الواحدة مرتين

(٢٣) احمر عاد : هو ثمود الذي عقر ناقة صالح واسمه قدار بن سالف .

(٢٤) القفيز : المكيال

(٢٥) جرّ : جنى والجريرة الجناية – حصين بن ضمضم : رجل من بني ذبيان كان قد قتل أخوه هرم بن ضمضم على يد ورد بن حابس العبسي ، فلما كان الصلح بين القبيلتين ، استتر حصين لئلا يطالب بالدخول في الصلح . وكمن حتى ظفر بأحد العبسيين ، فقتله ، فثارت بنو عبس ، ولكن الأمر استقر بين القبيلتين على عقل القتيل

(٢٦) طوى كشحا : أضمر عداوة (٢٧) أم قشعم : الموت (٢٨) تفرى : تشقق

(٢٩) يعقلونه : من العقل ، وهي دفع دية القتيل المخزم : الطريق في الجبل

(٣٠) تبله : التبل الحقد وجمعها تبول

وَأعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأمْسِ قَبْلَهُ ... ولكنَّني عَنْ عِلْمِ ما في غدٍ عَمِ

رَأيْتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْواءَ ، مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ ، وَمَنْ تُخْطِيءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لَمْ يُصانِعْ في أُمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنْيابٍ ، وَيوطَأْ بِمَنْسِمِ[31]

وَمَنْ يَجْعَلْ المَعْروفَ مِنْ دونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ ، وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَنْ يوفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُهُ ... إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ[32]

وَمَنْ هابَ أسْبابَ المَنايا يَنَلْنَهُ ... وإنْ يَرْقَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْروفَ في غَيْرِ أهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ ، وَيَنْدَمِ

وَمَنْ يَعْصِ أطْرافَ الزِّجاجِ فإنَّهُ ... يُطيعُ العَوالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ[33]

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوّاً صَديقَهُ ... وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

وَمَهْما تَكُنْ عِنْدَ امْرِيءٍ مِنْ خَليقَةٍ ... وإنْ خالَها تَخْفى على النَّاسِ ، تُعْلَمِ

وَكائِنْ تَرى مِنْ صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيادَتُهُ أوْ نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ

لِسانُ الفَتى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاّ صورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وإنَّ سَفاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وإنَّ الفَتى بَعْدَ السَّفاهَةِ يَحْلُمُ

سَألْنا فَأعْطَيْتُمْ ، وَعُدْنا فَعُدْتُمْ ... وَمَنْ أكْثَرَ التَّسْآلَ يَوْماً سَيُحْرَمِ[34]

(٣١) المنسم : طرف خف البعير والنعامة ونحوها
(٣٢) يتجمجم : يخفي
(٣٣) الزجاج : هي الحديد الموجود في أسفل الرمح ومفردها زج ، ويقابلها السنان – اللهذم : السنان الطويل
(٣٤) التسآل : السؤال بمعنى الطلب

لامية العرب

للشنفرى*

أقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطيّكُمْ ... فإنّي إلى قَومٍ سِواكُمْ لأمْيَلُ[1]

فَقَد حُمَّتْ الحاجاتُ ، واللّيْلُ مُقْمِرٌ ... وَشُدَّتْ لِطيّاتٍ مَطايا وأرْحُلُ[2]

وَفي الأرْضِ مَنْأَىً لِلْكَريمِ عَنِ الأذى ... وَفيها ، لِمَن خافَ القِلى ، مُتَعَزَّلُ[3]

لَعَمْرُكَ ما في الأرْضِ ضِيقٌ على امْرِئٍ ... سَرى راغِباً أوْ راهِباً ، وَهُوَ يَعْقِلُ[4]

وَلي دونَكُمْ أهْلونَ : سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأرْقَطُ زُهْلولٌ ، وَعَرْفاءُ جَيْأَلُ[5]

هُمُ الأهْلُ ، لا مُسْتَوْدَعُ السِرِّ ذائِعٌ ... لَدَيْهِمْ ، وَلا الجاني ، بِما جَرَّ يُخْذَلُ[6]

وَكُلٌّ أبِيٌّ باسِلٌ ، غَيْرَ أنّني ... إذا عَرَضَتْ أولى الطَّرائِدِ ، أبْسَلُ[7]

وإنْ مُدَّتْ الأيْدي إلى الزّادِ لَمْ أكُنْ ... بِأعْجَلِهِمْ ، إذْ أجْشَعُ القَومِ أعْجَلُ[8]

وَما ذاكَ إلاّ بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ ... عَلَيهِمْ ، وَكانَ الأفْضَلَ المُتَفَضِّلُ[9]

وإنّي كَفاني فَقْدَ مَنْ لَيسَ جازِياً ... بِحُسْنى ، ولا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ[10]

ثَلاثَةُ أصْحابٍ : فُؤادٌ مُشَيَّعٌ ... وَأبْيَضُ إصْلِيتٌ ، وَصَفْراءُ عَيْطَلُ[11]

---

* الشنفرى : هو عمرو بن مالك الأزدي . شاعر جاهلي من شعراء الطبقة الثانية . وقد خلعته قبيلته وتبرأت منه ، وقتل على يد رجال من بني سلامة . اشتهر عنه سرعته في العدو حتى أنه قيل عنه : « أعدى من الشنفرى » . لم يعرف تاريخ مولده على وجه الدقة ، ولكنه توفي نحو عام ٥٢٥ ميلادية .

(١) أقيموا : فعل ، ماضيه أقام ، ويقال أقام صدر مطيته اذا سار – مطيكم : ناقاتكم – أميَل : أميل

(٢) حمت : أصله حمم ، أي تهيأ الشيء وحضر – شدت : قويت
الطية : الحاجة ، وتعني أيضاً المكان المقصود – أرحل : جمع رحل وهو رحل البعير

(٣) المنأى : الموضع البعيد – القلى : البغض – متعزل : الموضع الذي يعتزل فيه

(٤) راغباً : محبا – راهباً : متخوفاً

(٥) سيد : الذئب – العملس : الخفيف السريع – أرقط : الرقطة هي كل لونين مختلفين ، ويقصد به هنا النمر – الزهلول : الأملس – العرفاء : الضبع طويلة العرف – جيأل : اسم الضبع

(٦) ذائع : فاش – جرّ : جنى جناية

(٧) الطرائد : مفردها طريدة وهي ما طردت من الصيد وغيره (٨) الجشع : الطمع .

(٩) البسطة : السعة – التفضل : الاحسان – الأفضل : الذي يفضل غيره
– المتفضل : الذي يدعي الفضل على أقرانه

(١٠) التعلل : التلهي

(١١) مشيع : الشجاع المقدام – الأصليت : السيف الصقيل المجرد من غمده – الصفراء : صفة للقوس .
– العيطل : القوية طويلة العنق من النوق والخيل

هَتوفٌ منَ المُلْسِ المُتونِ ، يَزينُها ... رَصائِعُ ، قَدْ نيطَتْ إليها وَمِحْمَلُ[١٢]

إذا زَلَّ عَنْها السَّهْمُ حَنَّتْ ، كأنَّها ... مُرَزَّأةٌ عَجْلى ، تُرِنُّ وتُعْوِلُ[١٣]

وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ ... مُجَدَّعَةً سُقْبانُها ، وَهْيَ بُهَّلُ[١٤]

ولا جُبَّأٍ أكْهى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ ... يُطالِعُها في شأنِهِ كيفَ يَفْعَلُ[١٥]

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ ، كأنَّ فُؤادَهُ ... يَظَلُّ بِهِ المُكّاءُ ، يَعْلو وَيَسْفُلُ[١٦]

ولا خالِفٍ داريَّةٍ مُتَغَزِّلٍ ... يَروحُ وَيَغْدو داهِناً يَتَكَحَّلُ[١٧]

وَلَسْتُ بِعَلٍّ ، شَرُّهُ دونَ خَيْرِهِ ... ألَفَّ إذا ما رُعْتَهُ اهْتاجَ ، أعْزَلُ[١٨]

وَلَسْتُ بِمِحْيارِ الظَّلامِ ، إذا انْتَحَتْ ... هُدى الهَوْجَلِ العِسّيفِ يَهْماءُ هَوْجَلُ[١٩]

إذا الأمْعَزُ الصَّوّانُ لاقى مَناسِمي ... تَطايَرَ مِنْهُ قادِحٌ وَمُفَلَّلُ[٢٠]

أُديمُ مِطالَ الجوعِ ، حَتّى أُميتَهُ ... وَأضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً ، فأذْهَلُ[٢١]

وَأسْتَفُّ تُرْبَ الأرْضِ ، كَيْلا يُرى لَهُ ... عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ[٢٢]

وَلَوْلا اجْتِنابُ الذّامِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعاشُ بِهِ ، إلاّ لَدَيَّ ، وَمَأكَلُ[٢٣]

---

(١٢) الهتوف : ومنها الهتف أي الصوت – الملس : الملاسة – المتون : الصلبة
– رصائع : الرصيعة خرز يعلق على الشيء لئلا تصيبه العين – نيطت : علقت
– المحمل : علاقة السيف وهو السير الذي يتقلد به
(١٣) زل : خرج – حنت : صوتت – المرزأة : كثيرة الرزايا
(١٤) المهياف : الذي يبعد بإبله في طلب المرعى على غير علم فيعطشها ويمشي بها – المجدعة : السيئة الغذاء
– السقب : الذكر من ولد الناقة – البهل : مفردها باهل وباهلة وهي المخلاة
(١٥) الجبأ : الجبان – الأكهى : الكدر الأخلاق – مرب: المرب المقيم على امرأته لا يفارقها
(١٦) خرق : الخرق الدهش من الخوف أو الحياء والمقصود به هنا الخوف – هيق : الهيق هو الظليم وهو ولد النعامة
– المكاء : طائر له صفير حسن وتصعيد وهبوط في الجو
(١٧) الخالف : المتخلف عن الخير أو الذي لا خير فيه – الدارية : الذي لا يفارق داره
– المتغزل : الذي يحادث النساء – المتكحل : الذي يكحل عينيه
(١٨) العل : الرجل المسن الصغير الجسم – ألف: الألف الذي لا يقوم لحرب ولا لضيف وانما يلتف وينام
الروع : الفزع – اهتاج : أسرع من الخوف إسراعاً بحمق
(١٩) المحيار : المتحير – انتحت :اعترضت – الهوجل : يراد به الرجل الطويل المتسرع الأحمق
– العسيف : الآخذ على غير الطريق – اليهماء : الفلاة التي لا يهتدى فيها
(٢٠) الأمعز : المكان الصلب الكثير الحصى – الصوان : الحجارة الملساء – المنسم : خف البعير
– القادح : ما يخرج معه النار من الحصى – المفلل : المكسر
(٢١) المطال : من المماطلة وهي امتداد المدة – ذهل : نسي
(٢٢) أستف : التهم التراب – الطول :المن – المتطول : الممتن
(٢٣) الذأم : ذأم ، ذأن ، ذين ، ذم : كلها بمعنى عاب وحقر

وَلَـكِنَّ نَفْساً مُرَّةً لا تُقيمُ بي ... علـى الذّامِ، إلاّ رَيْثَما أتحوّلُ[24]

وَأطوي عَلى الخُمْصِ الحَوايا كَما انْطَوَتْ ... خُيُوطَةُ مـاريٍّ تُغارُ وتُفْتَلُ[25]

وَأغْدو على القُوتِ الزَّهيدِ، كَما غَدا ... أزَلُّ، تَهاداهُ التَّنائِفُ، أطْحَلُ[26]

غَدا طاوِياً يُعارِضُ الرِّيحَ، هافِياً ... يَخُوتُ، بِأذْنابِ الشِّعابِ، وَيَعْسِلُ[27]

فَلَمّا لَواهُ القُوتُ مِنْ حَيْثُ أمَّهُ ... دَعا، فَأجابَتْهُ نَظائِرُ نُحَّلُ[28]

مُهَلْهَلَةٌ، شِيبُ الوُجوهِ، كأنَّها ... قِداحٌ، بِكَفَّيْ ياسِرٍ، تَتَقَلْقَلُ[29]

أوِ الخَشْرَمُ المَبْعُوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ ... مَحابيضُ، أرْداهُنَّ سامٍ مُعَسِّلُ[30]

مُهَرَّتَةٌ، فُوهٌ، كأنَّ شُدوقَها ... شُقوقُ العِصِيِّ، كالِحاتٌ وَبُسَّلُ[31]

فَضَجَّ وَضَجَّتْ بِالبَراحِ، كأنَّها ... وإيّاهُ نُوحٌ، فَوْقَ عَلْياءَ، ثُكَّلُ[32]

وَأغْضى وَأغْضَتْ، واتَّسى واتَّسَتْ بِهِ ... مَراميلُ عَزّاها، وعَزَّتْهُ، مُرْمِلُ[33]

شَكا وَشَكَتْ، ثُمَّ ارْعَوى بَعْدُ وارْعَوَتْ ... وَلَلصَّبْرُ، إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ، أجْمَلُ[34]

وَفاءَ وَفاءَتْ بادِراتٌ، وَكُلُّها ... عَلى نَكَظٍ، مِمّا يُكاتِمُ مُجْمِلُ[35]

وَتَشْرَبُ أسْآري القَطا الكُدْرُ، بَعْدَما ... سَرَتْ قَرَباً، أحْناؤها تَتَصَلْصَلُ[36]

---

(٢٤) مرة : أبية – ريثما : قدر ما

(٢٥) الخمص : الجوع – الحوايا : جمع حوية وهي ما تحوى في البطن اذا اجتمع واستدار – الماري : الفاتل – تغار : يحكم فتلها

(٢٦) أزلّ : الأزل هو الذئب الأرسح الذي لا أست له – التنائف : الأرض القفار – أطحل : لونه كلون الطحال

(٢٧) الطاوي : الجائع يخوت : ينقض ويختطف – الشعب : الطريق في الجبل – الأذناب : الأواخر – يعسل : يمر مراً سهلاً في استقامة

(٢٨) لواه : دفعه – نحل : ضوامر

(٢٩) مهلهلة : المقصود بهذا هنا رقيقة اللحم – القداح : السهام – الياسر: المقامر – تتقلقل : تتحرك وتضطرب

(٣٠) الخشرم : رئيس النحل أو النحل نفسه أو بيت الزنابير – المبعوث : الذي انبعث في السير – دبره : الدبر جماعة النحل – محابيض : مفردها محبض وهو العود الذي يكون مع مشتار العسل يثير به النحل – أرداهن : جاء بهن – سام : السامي الذي يعلو ويرتفع لاشتيار العسل

(٣١) مهرتة: مشقوقة الفم شقاً واسعاً – شدوق : مفردها شدق وهو جانب الفم – كالحات : مفردها كلوح ، تكشر في عبوس – بسل : كريهة المرأى

(٣٢) البراح : الأرض الواسعة لا نبت فيها

(٣٣) اتسى : اقتدى – مراميل : مفردها مرمل وهو من نفد زاده

(٣٤) ارعوى : ترك (٣٥) نكظ : شدة الجوع هنا .

(٣٦) أسآرى : المفرد سؤر وهو البقية من الشراب في الاناء – قربا : القرب ورود الماء – احناؤها : مفردها حنو ، والاحناء هي الجوانب

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ ، وابْتَدَرْنَا وَاسْدَلَتْ ... وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ(٣٧)

فَوَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَهْيَ تَكْبُو لِعَقْرِهِ ... يُبَاشِرُهُ مِنْهَا ذُقُونٌ وَحَوْصَلُ(٣٨)

كَأَنَّ وَغَاهَا ، حَجْرَتَيْهِ ، وَحَوْلَهُ ... أَضَامِيمُ مِنْ سَفْرِ القَبَائِلِ نُزَّلُ(٣٩)

تَوافَيْنَ مِن شَتَّى إِلَيْهِ ، فَضَمَّهَا ... كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَلُ(٤٠)

فَعَبَّتْ غِشَاشاً ، ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا ... مَعَ الصُّبْحِ ، رَكْبٌ ، مِن أُحَاظَةَ ، مُجْفِلُ(٤١)

وَآلَفُ وَجْهَ الأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا ... بِأَهْدَأَ ، تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ(٤٢)

وأَعْدِلُ مَنْحُوضاً ، كَأَنَّ فُصُوصَهُ ... كِعَابٌ دَحَاهَا لاعِبٌ ، فَهِيَ مُثَّلُ(٤٣)

فَإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ ... لَمَا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى ، قَبْلُ أَطْوَلُ(٤٤)

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ ، تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ ... عَقِيرَتُهُ لأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ(٤٥)

تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا ... حِثَاثاً ، إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ(٤٦)

وإِلْفُ هُمُومٍ ، مَا تَزَالُ تَعُودُهُ ... عِيَاداً ، كَحُمَّى الرِّبْعِ ، أَوْ هِيَ أَثْقَلُ(٤٧)

إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ، ثُمَّ إِنَّهَا ... تَثُوبُ ، فَتَأْتِي ، مِن تُحَيْتٍ ، ومِن عَلُ(٤٨)

فَإِمَّا تَرَيْنِي كَابْنَةِ الرَّمْلِ ضَاحِياً ... عَلَى رِقَّةٍ ، أَحْفَى ولا أَتَنَعَّلُ(٤٩)

فَإِنِّي لَمَوْلَى الصَّبْرِ ، أَجْتَابُ بَزَّهُ ... عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ ، والحَزْمَ أَنْعَلُ(٥٠)

---

(٣٧) فارط : متقدم

(٣٨) لعقره : العقر هو مكان الساقي من الحوض يكون فيه ما يتساقط من الدلو - حوصل : مفردها حوصلة وهي العضو الذي يتجمع فيه طعام الطير بعد التقاطه

(٣٩) وغاها : أصواتها - أضاميم : مفردها اضمامة وهم القوم ينضم بعضهم الى بعض - سفر: المسافرون

(٤٠) أذواد : جمع ذود وهو ما بين الثلاث الى العشر من الابل
- الأصاريم : جمع صرمة وهي القطعة من الابل نحو الثلاثين

(٤١) غشاشاً : مستعجلة - إحاظة : هي قبيلة من الأزد أو من اليمن - مجفل : مسرع

(٤٢) أهدأ : شديد الثبات - تنبيه : ترفعه - السناسن : حروف فقار الظهر - قحل : جافة

(٤٣) أعدل : أتوسد - منحوضاً : قليل اللحم - فصوصه : فواصله - مثل : منتصبة

(٤٤) القسطل : الغبار وأم اقسطل هي الحرب

(٤٥) طريد: المبعد - تياسرن : مأخوذ من يسر القوم الجزور اذا اجتزروها واقتسموها ومعنى ذلك اقتسمن لحمه كأنهن ضربن عليه بالميسر وهي القداح - عقيرته : العقيرة وهي النفس والجثة

(٤٦) تتغلغل : تتخلل

(٤٧) حمى الربع : حمى تأخذ المرء يوماً وتدعه يومين

(٤٨) وردت : حضرت - أصدرتها : رددتها - تثوب : ترجع

(٤٩) ابنة الرمل : الحية - ضاحيا : بارزاً للقر والحر - على رقة : الهزال - أتنعل : ألبس النعال

(٥٠) اجتاب : المقصود بها هنا ألبس - البز : الثوب - السمع : هو ولد الذئب من الضبع

وَأعْدِمُ أحيانًا ، وأغْنى وإنَّما ... يَنالُ الغِنى ذو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ(٥١)

فلا جَزِعٌ مِن خَلَّةٍ ، مُتَكَشِّفٌ ... ولا مَرِحٌ ، تَحْتَ الغِنى أتَخَيَّلُ(٥٢)

ولا تَزْدَهي الأجْهالُ حِلْمي ، ولا أُرى ... سَؤولاً بأعْقابِ الأقاويلِ أنْمُلُ(٥٣)

وَلَيْلَةِ نَحْسٍ ، يَصْطَلي القَوسَ رَبُّها ... وَأقْطُعَهُ ، اللاتي بِها يَتَنَبَّلُ(٥٤)

دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ ، وَصُحْبَتي ... سُعارٌ وإرزيزٌ وَوَجْرٌ وأفْكَلُ(٥٥)

فَأيَّمْتُ نِسْوانًا وَأيْتَمْتُ إلْدَةً ... وَعُدْتُ كَما أبْدأتُ ، واللَّيلُ ألْيَلُ(٥٦)

وأصْبَحَ عَنّي بالغُمَيْصاءِ جالِسًا ... فَرِيقانِ : مَسْؤولٌ وآخَرُ يَسْألُ(٥٧)

فَقالوا : لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلابُنا ... فَقُلْنا : أذِئْبٌ عَسَّ أمْ عَسَّ فُرعُلُ(٥٨)

فَلَمْ تَكُ إلاّ نَبْأةٌ ، ثُمَّ هَوَّمَتْ ... فَقُلْنا : قَطاةٌ رِيعَ ، أمْ رِيعَ أجْدَلُ(٥٩)

فَإنْ يَكُ مِنْ جِنٍّ لأبْرَحُ طارِقًا ... وإنْ يَكُ إنْسًا ماكَها الإنسُ تَفْعَلُ(٦٠)

وَيَوْمٍ مِنَ الشِّعْرى يَذوبُ لُوابُه ... أفاعيهِ في رَمْضائِهِ تَتَمَلْمَلُ(٦١)

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهي ، ولا كِنَّ دونَهُ ... وَلا سِتْرَ ، إلاّ الأتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ(٦٢)

وَضافٍ ، إذا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ ... لَبائِدَ ، عَنْ أعْطافِهِ ما تَرَجَّلُ(٦٣)

---

(٥١) أعدم : أصاب بالفقر – البعدة : اسم للبعد

(٥٢) الخلة : الحاجة – المتكشف : الذي يظهر فقره وحاجته للناس – التخيل : التكبر

(٥٣) تزدهي : تستخف – الاجهال : جمع جهل – أعقاب : مآخير – أنمل : أنَمّ ، مأخوذة من النميمة

(٥٤) أقطعه : جمع قطع وهو السهم القصير العريض النصل – يتنبل : يختار لرميه

(٥٥) دعست : دست – الغطش : الظلمة – البغش : المطر الخفيف
– السعار: حر يجده الانسان في جوفه من شدة الجوع والبرد – ارزيز : اما أنها تعني الجمود في المكان من شدة البرد ، أو صوت الأحشاء من الشدة – الوجر : الخوف – الأفكل : الرعدة

(٥٦) ايمت : جعلتهن أيامى بلا أزواج – الالدة : الأولاد – أليل : للمبالغة وتعني ثابت الظلمة

(٥٧) الغميصاء : تصغير الغمصاء ، وتأنيث الأغمص وهو ما يخرج من العين ، والغميصاء من النجوم وهي أيضا موضع قرب مكة كان يسكنه بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناف بن كنانة

(٥٨) هرت : هرير الكلب هو صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد – الفرعل : ولد الضبع

(٥٩) النبأة : الصوت – هومت : نامت – ريع : أفزع – الأجدل : الصقر

(٦٠) كها : الكاف للتشبيه ، أي ليس كمثل هذا

(٦١) الشعرى : الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء – لوابه : لعابه ، ولعاب الشمس أشعتها التي ترى في شدة الحر وهي كالخيوط يعرض للعين – الرمضاء : الرمض شدة وقع الشمس على الرمل

(٦٢) نصبت : النصب هو الاقامة – كن : الكن هو الستر – الأتحمي : ضرب من البرود – المرعبل : المقطع الرقيق

(٦٣) ضاف : سابغ – لبائد : مفردها لبيدة وهو ما تلبد من الشعر – ترجل : تسرح

بَعــيــدٌ بِمَسِّ الــدُّهْنِ والــفَلْيُ عَهْدُهُ	لَهُ عَبَسٌ عــافٍ ، مِنَ الــغِسْلِ مُحْوِلُ[٦٤]
وَخَرْقٍ كَظَهْرِ الــتــرْسِ ، قَفْرٍ قَطَعْتُهُ	بِــعــامِلَتَيْنِ ، ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ[٦٥]
وأَلْحَقْتُ أُولاهُ بِــأُخْراهُ مُــوفِــيــاً	عــلــى قُنَّةٍ ، أُقْعِــي ، مــراراً ، وأَمْثُلُ[٦٦]
تَرودُ الأراوِي الــصُّحْمُ حَوْلــي ، كَأَنَّهــا	عَذارى ، عَلَيْهِنَّ الــمُلاءُ الــمُذَيَّلُ[٦٧]
وَيَرْكُدْنَ بِــالآصــالِ حَوْلــي كَأَنَّنــي	مِنَ العُصْمِ أَدْفى، يَنتحي الكَيْحَ، أَعْقَلُ[٦٨]

لامية العرب

(٦٤) العبس : ما يعلق بأذناب الابل وإليات الشاة من الأوساخ فيجف عليها – عاف: كثير – الغسل : بكسر الغين هو ما يغسل به الرأس والجلد من الخطمي وغيره، وهو ما يقوم مقام الصابون في ذلك الزمن
– محول : مر عليه الحول

(٦٥) الخرق: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح – كظهر الترس : أي أن الأرض مستوية استواء ظهر الترس
– العاملتان : رجلاه – ليس يعمل: غير مسلوك ظهر هذه الأرض الواسعة

(٦٦) ألحقت أولاه بأخراه : قطعته وجزته عدواً – موفيا : مشرفا – القنة : أعلى الجبل
– أقعي : قعد على ركبتيه وباطن الفخذين – أمثل : انتصب

(٦٧) ترود: تذهب وتجيء – الأراوى: جمع أرويه وهي أنثى التيس البري
– الصحم : الوعول التي يضرب لونها الى صفرة – الملاء : نوع من الثياب – المذيل : الطويل

(٦٨) يركدن : يمكثن – الآصال : مفردها أصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب – العصم: مفردها أعصم وهو الذي في ذراعيه بياض وقيل الذي في إحدى يديه بياض – الأدفى : الذي طال قرنه جيداً
– الكيح : عرض الجبل – الأعقل : الممتنع

وقال البوصيري* يمدح النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدته المعروفة بـ « البردة » أو « البرءة » وقد وفد بها على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض ، فعوفي من وقته وساعته

أمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذي سلَمِ ... مزجْتَ دمْعاً جرى منْ مُقلةٍ بدَمِ

أمْ هبَّتْ الريحُ منْ تلقاءِ كاظمةٍ ... وأوْمَضَ البرْقُ في الظلْماءِ منْ إضَمِ

فما لعيْنيْكَ إنْ قلْتَ اكْفُفا همَتا ... وما لقلْبِكَ إنْ قلْتَ اسْتفقْ يهِمِ

أيَحْسَبُ الصبُّ أنَّ الحبَّ مُنْكتمٌ ... ما بيْنَ مُنْسجمٍ منْهُ ومُضْطرِمِ

لوْلا الهوى لمْ تُرِقْ دمْعاً على طلَلٍ ... ولا أرقْتَ لذِكْرِ البانِ والعلَمِ

فكيْفَ تُنْكرُ حُبّاً بعْدما شهِدتْ ... بهِ عليْكَ عدولُ الدّمْعِ والسّقَمِ

وأثْبتَ الوجْدُ خطّيْ عبْرةٍ وضنىً ... مثْلَ البهارِ على خدّيْكَ والعنَمِ

نعَمْ سرى طيْفُ منْ أهْوى فأرّقَني ... والحُبُّ يعْترِضُ اللّذّاتِ بالألمِ

يا لائمي في الهوى العُذْريِّ معْذرةً ... منّي إليْكَ ولوْ أنْصفْتَ لمْ تلُمِ

عدَتْكَ حالي لا سرّي بمُسْتترٍ ... عنِ الوُشاةِ ولا دائي بمُنْحسِمِ

محّضْتني النُّصْحَ لكنْ لسْتُ أسْمعُهُ ... إنّ المُحبَّ عنِ العُذّالِ في صمَمِ

إنّي اتّهمْتُ نصيحَ الشّيْبِ في عذَلٍ ... والشّيْبُ أبْعدُ في نُصْحٍ عنِ التُّهَمِ

فإنّ أمّارتي بالسّوءِ ما اتّعظَتْ ... منْ جهْلِها بنذيرِ الشّيْبِ والهرَمِ

ولا أعدّتْ منَ الفعْلِ الجميلِ قِرى ... ضيْفٍ ألمَّ برأسي غيْرَ مُحْتشِمِ

لوْ كُنْتُ أعْلمُ انّي ما أوقّرُهُ ... كتمْتُ سرّاً بدا لي منْهُ بالكتَمِ

منْ لي بردِّ جماحٍ منْ غوايتِها ... كما يُرَدُّ جماحُ الخيْلِ باللُّجُمِ

فلا ترُمْ بالمعاصي كسْرَ شهْوتِها ... إنّ الطّعامَ يُقوّي شهْوةَ النّهِمِ

والنّفْسُ كالطّفْلِ إنْ تُهْملْهُ شبَّ على ... حُبِّ الرّضاعِ وإنْ تفْطمْهُ ينْفطمِ

فاصْرفْ هواها وحاذرْ أنْ تُولّيهُ ... إنّ الهوى ما تولّى يُصْمِ أوْ يَصِمِ

---

* البوصيري : هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري ، ولد في بهشيم عام ١٢١٢ . ينتسب الى بوصير من أعمال بني سويف في مصر، وإن كان أصله من المغرب . توفي في الاسكندرية عام ١٢٩٦م .

وراعِها وَهْيَ في الأعمالِ سائمةٌ   وإنْ هِيَ استحلَتْ المَرْعى فَلا تُسِمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قاتِلَةً   مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِنْ جوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
وَاسْتَفرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ امْتَلأتْ   مِنَ المَحَارِمِ والْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
وَخالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطانَ واعْصِهِما   وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ
وَلا تُطِعْ مِنْهُما خَصْماً وَلا حَكَماً   فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَالحَكَمِ
أسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ   لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذي عُقُمِ
أمَرْتُكَ الخَيْرَ لَكِنْ ما ائْتَمَرْتُ بِهِ   وَما اسْتَقَمْتُ فَما قَولي لَكَ اسْتَقِمِ
وَلا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ المَوْتِ نافِلَةً   وَلَمْ أُصَلِّ سِوى فَرْضي وَلَمْ أَصُمِ
ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيا الظَّلامَ إلى   أنْ اشْتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ
وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أحْشاءَهُ وَطَوى   تَحْتَ الحِجارَةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأدَمِ
وَراوَدَتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ   عَنْ نَفْسِهِ فَأَراها أيَّما شَمَمِ
وَأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضَرورَتُهُ   إنَّ الضَّرُورَةَ لا تَعْدو عَلى العِصَمِ
وَكَيْفَ تَدْعو إلى الدُّنْيا ضَرورَةُ مَنْ   لَوْلاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيا مِنَ العَدَمِ
مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْـ   ـنِ والفَريقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
نَبِيُّنا الآمِرُ النَّاهي فَلا أحَدٌ   أبَرَّ في قَوْلِ « لا » مِنْهُ ولا « نَعَمِ »
هُوَ الحَبيبُ الذي تُرْجى شَفاعَتُهُ   لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهْوالِ مُقْتَحِمِ
دَعا إلى اللهِ فالمُسْتَمْسِكونَ بِهِ   مُسْتَمْسِكونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ
فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وَفي خُلُقٍ   وَلَمْ يُدانوهُ في عِلْمٍ وَلا كَرَمِ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ   غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
وَواقِفونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ   مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ
فَهْوَ الذي تَمَّ مَعْناهُ وَصورَتُهُ   ثُمَّ اصْطَفاهُ حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عَنْ شَريكٍ في مَحاسِنِهِ   فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارى في نَبِيِّهِمِ   وَاحْكُمْ بِما شِئْتَ مَدْحاً فيهِ وَاحْتَكِمِ
وَانْسُبْ إلى ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ   وَانْسُبْ إلى قَدْرِهِ ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فَإنَّ فَضْلَ رَسولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ   حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ ناطِقٌ بِفَمِ

لَوْ ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُه عِظَماً   أَحْيا اسْمُهُ حِينَ يُدعى دارِسَ الرِّمَمِ

لَمْ يَمْتَحِنّا بِما تَعْيا العُقُولُ بِهِ   حِرْصاً عَلَيْنا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

أَعْيا الوَرى فَهْمُ مَعْناهُ فَلَيْسَ يُرى   فِي القُرْبِ والبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ

كالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ   صَغِيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيا حَقِيقَتَهُ   قَوْمٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالحُلُمِ

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ   وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وَكُلُّ آيٍ أَتى الرُّسْلُ الكِرامُ بِها   فَإِنَّما اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَواكِبُها   يُظْهِرْنَ أَنْوارَها لِلنّاسِ فِي الظُّلَمِ

أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زانَهُ خُلُقٌ   بِالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالبِشْرِ مُتَّسِمِ

كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ والبَدْرُ فِي شَرَفٍ   وَالبَحْرُ فِي كَرَمٍ والدَّهْرُ فِي هِمَمِ

كَأَنَّهُ وَهْوَ فَرْدٌ مِنْ جَلالَتِهِ   فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقاهُ وفِي حَشَمِ

كَأَنَّما اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ فِي صَدَفٍ   مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ

لا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ   طُوبى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

أَبانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ   يا طِيبَ مُبْتَدَأٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ

يَوْمَ تَفَرَّسَ فِيهِ الفُرْسُ أَنَّهُمُ   قَدْ أُنْذِروا بِحُلُولِ البُؤْسِ وَالنِّقَمِ

وَباتَ إِيوانُ كِسْرى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ   كَشَمْلِ أَصْحابِ كِسْرى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

وَالنّارُ خامِدَةُ الأَنْفاسِ مِنْ أَسَفٍ   عَلَيْهِ والنَّهْرُ ساهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ(1)

وَساءَ ساوَةَ أَنْ غاضَتْ بُحَيْرَتُها   وَرُدَّ وارِدُها بِالغَيْظِ حِينَ ظَمِي(2)

كَأَنَّ بِالنّارِ ما بِالماءِ مِنْ بَلَلٍ   حُزْناً وَبِالماءِ ما بِالنّارِ مِنْ ضَرَمِ

وَالجِنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْوارُ ساطِعَةٌ   وَالحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنىً وَمِنْ كَلِمِ

عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلانُ البَشائِرِ لَمْ   تُسْمَعْ وَبارِقَةُ الأَنْذارِ لَمْ تُشَمِ

مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ الأَقْوامَ كاهِنُهُمْ   بِأَنَّ دِينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

وَبَعْدَ ما عايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ   مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

حَتّى غَدا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ   مِنَ الشَّياطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

---

(١) النار التي يوقدها المجوس

(٢) ساوة : بحيرة في بلاد الفرس

كأنهم هرباً أبطالُ أبرهةٍ ... أو عسكرٌ بالحصى من راحتيه رُمي

نبذاً به بعد تسبيحٍ ببطنهما ... نبذَ المسبّحِ من أحشاءِ ملتقمِ

جاءت لدعوته الأشجارُ ساجدةً ... تمشي إليه على ساقٍ بلا قدمِ

كأنما سطرت سطراً لما كتبت ... فروعها من بديعِ الخطّ في اللّقمِ

مثل الغمامةِ أنّى سار سائرةً ... تقيه حرَّ وطيسٍ للهجير حمي

أقسمتُ بالقمرِ المنشقِ إنّ له ... من قلبه نسبةً مبرورةَ القسمِ

وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كرمٍ ... وكلُّ طرفٍ من الكفارِ عنه عمي

فالصدقُ في الغارِ والصديقُ لم يرما ... وهم يقولون ما بالغارِ من أرمِ

ظنّوا الحمامَ وظنّوا العنكبوتَ على ... خيرِ البريةِ لم تنسج ولم تحمِ

وقايةُ الله أغنت عن مضاعفةٍ ... من الدروعِ وعن عالٍ من الأطمِ

ما سامني الدهرُ ضيماً واستجرتُ به ... إلاّ ونلتُ جواراً منه لم يضمِ

ولا التمستُ غنى الدارينِ من يده ... إلاّ استلمتُ الندى من خيرِ مستلمِ

لا تنكرِ الوحيَ من رؤياه إنّ له ... قلباً إذا نامت العينانِ لم ينمِ

وذاك حين بلوغٍ من نبوّته ... فليس ينكرُ فيه حالُ محتلمِ

تبارك الله ما وحيٌ بمكتسبٍ ... ولا نبيٌّ على غيبٍ بمتّهمِ

كم أبرأت وصباً باللمسِ راحتُه ... وأطلقت أرباً من ربقةِ اللّممِ

وأحيت السنةَ الشهباءَ دعوتُه ... حتى حكت غره في الأعصرِ الدُّهُمِ

بعارضٍ جادَ أو خلتَ البطاحَ بها ... سيبٌ من اليمِّ أو سيلٌ من العرمِ

دعني ووصفي آياتٍ له ظهرت ... ظهورَ نارِ القرى ليلاً على علمِ

فالدُّرُّ يزدادُ حسناً وهو منتظمٌ ... وليس ينقصُ قدراً غيرَ منتظمِ

فما تطاولُ آمالُ المديحِ إلى ... ما فيه من كرمِ الأخلاقِ والشِّيمِ

آياتُ حقٍّ من الرحمنِ محدثةٌ ... قديمةٌ صفةُ الموصوفِ بالقدمِ

لم تقترن بزمانٍ وهي تخبرنا ... عن المعادِ وعن عادٍ وعن إرمِ

دامت لدينا ففاقت كلَّ معجزةٍ ... من النبيّين إذ جاءت ولم تدمِ

محكماتٌ فما تبقين من شبهٍ ... لذي شقاقٍ وما تبغين من حكمِ

ما حوربت قطّ إلاّ عاد من حربٍ ... أعدى الأعادي إليها ملقيَ السّلَمِ

رَدَّتْ بَلاغَتُها دَعْوى مُعارِضِها ... رَدَّ الغَيورِ يَدَ الجاني عَنِ الحُرَمِ

لَها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ ... وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ في الحُسْنِ وَالقِيَمِ

فَما تُعَدُّ وَلا تُحْصى عَجائِبُها ... وَلا تُسامُ عَلى الإكْثارِ بِالسَّأَمِ

قَرَّتْ بِها عَيْنُ قارِيها فَقُلْتُ لَهُ ... لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فاعْتَصِمِ

إِنْ تَتْلُها خيفَةً مِنْ حَرِّ نارِ لَظى ... أَطْفَأْتَ نارَ لَظى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ

كَأَنَّها الحَوْضُ تَبْيَضُّ الوُجوهُ بِهِ ... مِنَ العُصاةِ وَقَدْ جاءوهُ كَالحُمَمِ

وَكالصِّراطِ وَكَالميزانِ مُسْدِلَةً ... فَالقِسْطُ مِنْ غَيْرِها في النّاسِ لَمْ يَقُمِ

لا تَعْجَبَنْ لِحَسودٍ راحَ يُنْكِرُها ... تَجاهُلاً وَهْوَ عَيْنُ الحاذِقِ الفَهِمِ

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

يا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العافونَ ساحَتَهُ ... سَعْياً وَفَوْقَ مُتونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الكُبْرى لِمُعْتَبِرٍ ... وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمى لِمُغْتَنِمِ

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلى حَرَمِ ... كَما سَرى البَدْرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وَبِتَّ تَرْقى إِلى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... مِنْ قابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

وَقَدَّمَتْكَ جَميعُ الأَنْبِياءِ بِها ... وَالرُّسْلِ تَقْديمَ مَخْدومٍ عَلى خَدَمِ

وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّباقَ بِهِمْ ... في مَوْكِبٍ كُنْتَ فيهِ صاحِبَ العَلَمِ

حَتّى إِذا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ ... مِنَ الدُّنُوِّ وَلا مَرْقىً لِمُسْتَنِمِ

خَفَضْتَ كُلَّ مَقامٍ بِالاِضافَةِ إِذْ ... نوديتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ

كَيْما تَفوزَ بِوَصْلٍ أَيِّ مُسْتَتِرٍ ... عَنِ العُيونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَتِمِ

فَحُزْتَ كُلَّ فَخارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ ... وَجُزْتَ كُلَّ مَقامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

وَجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وَعَزَّ إِدْراكُ ما أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

بُشْرى لَنا مَعْشَرَ الإِسلامِ إِنَّ لَنا ... مِنَ العِنايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ

لَمّا دَعا اللهُ داعِينا لِطاعَتِهِ ... بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

راعَتْ قُلوبَ العِدا أَنْباءُ بِعْثَتِهِ ... كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِنَ الغَنَمِ

ما زالَ يَلْقاهُمْ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ ... حَتّى حَكَوا بِالقَنا لَحْماً عَلى وَضَمِ

وَدُّوا الفِرارَ فَكادوا يَغْبِطونَ بِهِ ... أَشْلاءَ شالَتْ مَعَ العِقْبانِ وَالرَّخَمِ

تَمْضي اللَّيالي وَلا يَدْرونَ عِدَّتَها ... ما لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ ... بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ العِدَا قَرِمِ

يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ ... يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ ... يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الاسْلامِ وَهْيَ بِهِمْ ... مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

مَكْفُولَةً أَبَداً مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ ... وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ

هُمُ الجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ ... مَاذَا رَأَى مِنْهُمُ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْناً وَسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً ... فُصُولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ

المُصْدِرِي البِيضَ حُمْراً بَعْدَ مَا وَرَدَتْ ... مِنَ العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ ... أَقْلامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

شَاكِي السِّلاحِ لَهُمْ سِيمَى تُمَيِّزُهُمْ ... وَالوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَى عَنِ السَّلَمِ

تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ ... فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِي

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُباً ... مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

طَارَتْ قُلُوبُ العِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقاً ... فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ وَالبُهَمِ

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ ... إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرَ مُنْتَصِرٍ ... بِهِ وَلا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرَ مُنْقَصِمِ

أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ ... كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدَلٍ ... فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ البُرْهَانُ مِنْ خَصِمِ

كَفَاكَ بِالعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي اليُتُمِ

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ ... ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

إِذْ قَلَّدَانِيَ مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ ... كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتَيْنِ وَمَا ... حَصَلْتُ إِلاَّ عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ

فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا ... لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ

وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ ... يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

إِنْ آتِ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النَّبِيِّ وَلا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي ... مُحَمَّداً وَهْوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي ... فَضْلاً وَإِلاَّ فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ

حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ ... أَوْ يَرْجِعَ الجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ

وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ ... وَجَدْتُهُ لِخَلاصِي خَيْرَ مُلْتَزَمِ

وَلَنْ يَفُوتَ الغِنَى مِنْهُ يَداً تَرِبَتْ ... إِنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ

وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفَتْ ... يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرِمِ

يَا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ

وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جَاهُكَ بِي ... إِذَا الكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

يَا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إِنَّ الكَبَائِرَ فِي الغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا ... تَأْتِي عَلَى حَسَبِ العِصْيَانِ فِي القِسَمِ

يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ ... لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

وَالطُفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ ... صَبْراً مَتَى تَدْعُهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

وَائْذَنْ لِسُحْبِ صَلاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ ... عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمِ

مَا رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ البَانِ رِيحُ صَبَا ... وَأَطْرَبَ العِيسَ حَادِي العِيسِ بِالنَّغَمِ

ديوان البوصيري

وأجاب كعبُ بن مالك الأنصاري* عبد الله بن الزبعري في يوم الخندق فقال

أبْقَى لَنا حدثُ الحُروبِ بَقيّةً   مِنْ خَيْرِ نِحلةِ رَبِّنا الوَهّابِ(1)

بَيْضاءَ مشرفةَ الذُرى ومعاطِناً   حُمُّ الجُذوعِ غزيرةَ الأحْلابِ(2)

كاللُّوبِ يُبْذَلُ جَمُّها وَحَفيلُها   لِلْجارِ وابْنِ العَمِّ والمُنْتابِ(3)

وَنَزائعاً مِثْلَ السِّراحِ نَما بِها   عَلَفُ الشَّعيرِ وَجزّةُ المِقْضابِ(4)

عَرِيَ الشَّوى مِنْها وَأرْدَفَ نَحْضَها   جُرْدُ المُتونِ وَسائِرِ الآرابِ(5)

قُوداً تَراحُ إلى الصِياحِ إذا غَدَتْ   فِعْلَ الضِّراءِ تَراحُ لِلْكَلّابِ(6)

وَتَحوطُ سائِمةَ الدِّيارِ وَتارةً   تُرْدي العِدى وَتَؤوبُ بالأسْلابِ

حُوشُ الوُحوشِ مُطارَةٌ عِنْدَ الوَغى   عُبْسُ اللِّقاءِ مُبينةَ الأنْجابِ

عُلِفَتْ على دَعَةٍ فَصارَتْ بُدَّناً   دُخْسَ البَضيعِ خَفيفةَ الأقْصابِ(7)

يَغْدونَ بالزُّغْفِ المُضاعَفِ شَكُّهُ   وَبِمُتْرَصاتٍ في الثِّقافِ صِيابِ(8)

وَصَوارِمٍ نَزَعَ الصَّياقِلُ غُلْبَها   وَبِكُلِّ أرْوَعَ ماجِدِ الأنْسابِ(9)

يَصِلُ اليَمينَ بِمارِنٍ مُتَقارِبٍ   وُكِلَتْ وَقيعتُهُ إلى خَبّابِ(10)

---

* كعب بن مالك : هو كعب بن مالك بن أبي كعب ، ومن الخزرج. ولد في المدينة نحو عام ٥٩٨ م ، وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم جميع غزواته باستثناء غزوة تبوك . وهو من فحول الشعراء ، اضافة الى كونه من رواة الحديث . مات نحو عام ٦٧٣م . له ديوان شعر .

(١) النحلة : العطاء

(٢) المعاطن : مبرك الابل ومربض الغنم حول الماء ومفردها معطن – حُمٌّ : جمع أحم، وهو ما ضرب لونه الى السواد – الجذوع : أراد بها أعناق الابل – الأحلاب : ما يحلب منها

(٣) اللّوب : هي الأرض ذات الحجارة السوداء ومفردها لوبة – الحفيل : المبالغ به – المنتاب : الزائر

(٤) السراح : الذئب – المقضاب : آلة لقطع النبات وزعم السهيلي ان المقضاب هي مزرعة

(٥) الشوى : القوائم – النحض : اللحم – المتون : مفردها متن، وهو الظهر – الآراب: مفردها أربة وهي قطعة لحم

(٦) القود : مفردها أقود وهو الطويل – تراح : تنشط – الضراء : الكلاب الضارية – الكلاّب : صاحب الكلاب

(٧) بدّنا : مفردها بادن وهو السمين – الدخس : كثير اللحم – البضيع : اللحم المستطيل – الأقصاب : مفردها قصب وهي المعي

(٨) الزغف : الدرع الواسعة الطويلة – المترصات : الرماح المثقفة – الثقاف : النزال ، وقد يكون أراد بها آلة تثقف بها الرماح – صياب : أي تصيب

(٩) الصوارم : السيوف القاطعة – الصياقل : شحانو السيوف ومفردها صيقل

(١٠) المارن : الرمح الصلب اللدن – وقيعته : تحديد الرمح بالميقعة – خبّاب : هو خباب بن الأرت من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يقوم بصناعة السيوف للمسلمين

وَأغـرُّ أزْرَقَ فـي الـقَنـاةِ كَأنَّهُ	فـي طُخْيـةِ الـظَّلْمـاءِ ضَوْءُ شِهـابِ[١١]
وكَتـيبـةٍ يَنْفـي الـقِرانَ قَتـيرُهَا	وَتـرُدُّ حَدَّ قَواحِزِ الـنُّشّابِ[١٢]
جَأْوى مُلَمْلَمَةٍ كَأنَّ رِمـاحَهـا	فـي كـلِّ مَجْمَعَةٍ صَريمـةُ غـابِ[١٣]
يَأْوي إلـى ظلِّ الـلِّواءِ كـأنَّهُ	فـي صَعْدَةِ الخـطِّيِّ فـيءُ عُقـابِ[١٤]
أعْيَتْ أبـا كَرِبٍ وَأعْيَتْ تُبَّعـاً	وَأبـتْ بَسـالـتُهـا عَلـى الأعْرابِ[١٥]
وَمَواعِظٌ مِنْ رَبِّنـا نُهْدى بِهـا	بِلِسـانِ أزْهَرَ طـيِّبِ الأثْوابِ
عُرِضَتْ عَـلـيْنـا فَاشْتَهَيْنـا ذِكْرَهـا	مِنْ بَعْدِ مـا عُرِضَتْ عَلـى الأحْزابِ
حِكَمـاً يَراهـا الـمُجـرِمـونَ بِزَعْمِهِمْ	حَرَجـاً وَيَفْهَمُهـا ذَوو الألْبـابِ
جـاءَتْ سَخـيـنـةُ كَيْ تُغـالِبَ رَبَّهـا	فَلَيُغْلَبَنَّ مُغـالِبُ الـغَلّابِ[١٦]

ديوان كعب بن مالك الأنصاري

---

(١١) الطخية : الظلمة

(١٢) قتيرها : رؤوس المسامير في الدروع ، أو الدروع نفسها – قواحز : مفردها قاحز ، وهو السهم الطامح عن كبد القوس ذاهباً في السماء

(١٣) جأوى : أصلها جأواء أي الأحمر الضارب الى السواد – الصريمة : القطعة من الليل

(١٤) الخطّيّ : الرماح

(١٥) أبو كرب وتبع : من ملوك اليمن الغابرين.

(١٦) سخينة : لقب قريش في الجاهلية ، والسخينة هي أكلة حساء من دقيق ، تتخذ عند غلاء الأسعار . قال السهيلي : « وذكروا ان قصيا كان إذا ذبحت أو نحرت نحيرة بمكة ، أتى بعجزها فصنع منها خزيرة – لحم يطبخ ببر – فيطعمه ، فسميت قريش بها سخينة

وقال أبو تمام* يرثي محمد بن حُمَيْد الطوسي

كَذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

تُوُفِّيَتِ الآمالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... وَأَصْبَحَ في شُغْلٍ عَنِ السَّفْرِ السَّفْرُ (1)

وما كانَ إلاّ مالَ مَنْ قَلَّ مالُهُ ... وَذُخْراً لِمَنْ أَمْسى وَلَيْسَ لَهُ ذُخْرُ

وما كانَ يَدْري مُجْتَدي جُودِ كَفِّهِ ... إذا ما اسْتَهَلَّتْ أَنَّهُ خُلِقَ العُسْرُ (2)

ألا في سَبيلِ اللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ ... فِجاجُ سَبيلِ اللهِ وانْثَغَرَ الثَّغْرُ (3)

فَتىً كُلَّما فاضَتْ عُيونُ قَبيلَةٍ ... دَماً ضَحِكَتْ عَنْهُ الأَحاديثُ والذِّكْرُ

فَتىً دَهْرُهُ شَطْرانِ فيما يَنوبُهُ ... فَفي بَأْسِهِ شَطْرٌ وفي جُودِهِ شَطْرُ

فَتىً ماتَ بَيْنَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ مِيتَةً ... تَقومُ مَقامَ النَّصْرِ إنْ فاتَهُ النَّصْرُ

وما ماتَ حَتّى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ ... مِنَ الضَّرْبِ واعْتَلَّتْ عليهِ القَنا السُّمْرُ (4)

وَقَدْ كانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إليهِ الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ (5)

وَنَفْسٌ تَعافُ العارَ حَتّى كَأَنَّما ... هُوَ الكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دونَهُ الكُفْرُ

فَأَثْبَتَ في مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ ... وقالَ لها مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

غَدا غَدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ ... فَلَمْ يَنْصَرِفْ إلاّ وأَكْفانُهُ الأَجْرُ

تَرَدّى ثِيابَ المَوْتِ حُمْراً فَما دَجى ... لها اللَّيْلُ إلاّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

كَأَنَّ بَني نَبْهانَ يَوْمَ وَفاتِهِ ... نُجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البَدْرُ (6)

يُعَزَّوْنَ عَنْ ثاوٍ تُعَزّى بِهِ العُلى ... وَيَبْكي عليهِ البَأْسُ والجودُ والشِّعْرُ (7)

---

* أبو تمام : هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي . ولد في بلدة جاسم من قرى حوران في سوريا عام ٨٠٤ ثم ارتحل الى مصر، فالى بغداد حيث أقام في العراق . يعد من أمراء الشعر العربي القديم . كان يحفظ أربعة عشر الف أرجوزة من أراجيز العرب ، وقد اختلف النقاد في التفضيل بينه وبين المتنبي. ولي بريد الموصل ، وتوفي هناك عام ٨٤٦ م . له ديوان شعر، ومن آثاره : (فحول الشعراء) و (ديوان الحماسة) و (مختار أشعار القبائل) و (الوحشيات) و (نقائض جرير والأخطل) .

(١) السفر : الشخص المسافر

(٢) المجتدي : طالب المعروف – استلهت : بدأت بالعطاء

(٤) القنا : الرماح

(٥) فوت الموت : النجاة منه – الوعر: الصعب

(٦) بنو نبهان : قوم محمد بن حميد الطوسي

(٧) ثاو : راقد

وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى ... إلى المَوْتِ حَتَّى اسْتُشْهِدَا هُوَ والصَّبْرُ

فَتىً كانَ عَذْبَ الرُّوحِ لا مِنْ غَضَاضَةٍ ... وَلَكِنَّ كِبْراً أَنْ يُقَالَ بِهِ كِبْرُ [8]

فَتىً سَلَبَتْهُ الخَيْلُ وَهْوَ حِمىً لَهَا ... وَبَزَّتْهُ نَارُ الحَرْبِ وَهْوَ لَهَا جَمْرُ

وَقَدْ كَانَتِ البِيضُ المَآثِيرُ في الوَغَى ... بَوَاتِرَ فَهْيَ الآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُتْرُ [9]

أَمِنْ بَعْدِ طَيِّ الحَادِثَاتِ مُحَمَّداً ... يَكُونُ لأثْوابِ النَّدَى أَبَداً نَشْرُ

إذا شَجَرَاتُ العُرْفِ جُذَّتْ أُصُولُهَا ... فَفِي أيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النَّضْرُ ؟

لَئِنْ أُبْغِضَ الدَّهْرُ الخَئُونُ لِفَقْدِهِ ... لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحَبُّ لَهُ الدَّهْرُ

لَئِنْ غَدَرَتْ فِي الرَّوْعِ أَيَّامُهُ بِهِ ... فَمَا زَالَتِ الأَيَّامُ شِيمَتُهَا الغَدْرُ

لَئِنْ أُلْبِسَتْ فِيهِ المُصِيبَةَ طَيِّئٌ ... فَمَا عُرِّيَتْ مِنْهَا تَمِيمٌ ولا بَكْرُ [10]

كَذَلِكَ مَا نَنْفَكُّ نَفْقِدُ هَالِكاً ... يُشَارِكُنَا فِي فَقْدِهِ البَدْوُ والحَضْرُ

سَقَى الغَيْثُ غَيْثاً وارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ ... وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ ولا قَطْرُ

وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلغُيُوثِ صَنِيعَةً ... بِإِسْقَائِهَا قَبْراً وَفِي لَحْدِهِ البَحْرُ

مَضَى طَاهِرَ الأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ ... غَدَاةَ ثَوَى إلاَّ اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ

ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى ... وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الغَمْرُ [11]

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ وَقْفاً فَإِنَّنِي ... رَأَيْتُ الكَرِيمَ الحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

---

(٨) الغضاضة : الضعة

(٩) البيض : السيوف – المآثير: الحادة

(١٠) تميم وبكر : من قبائل العرب

(١١) صرف الدهر : مصائبه – نائله الغمر : أعطياته

وقال عمر بن أبي ربيعة* في رائيته

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنْتَ غادٍ فَمُبكِرُ غَداةَ غَدٍ أمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ[1]
بِحاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تَقُلْ في جَوابِها فَتُبْلِغَ عُذْراً والمَقالَةُ تُعذِرُ
تَهِيمُ إلى نُعْمٍ فَلا الشَّمْلُ جامِعٌ وَلا الحَبْلُ مَوْصولٌ ولا القَلْبُ مُقْصِرُ
وَلا قُرْبُ نُعمٍ إنْ دَنَتْ لَكَ نافِعٌ وَلا نَأْيُها يُسْلي وَلا أنْتَ تَصْبِرُ
وَأخْرى أتَتْ مِنْ دونِ نُعمٍ وَمِثْلُها نَهى ذا النُّهى لَوْ يَرْعَوي أو يُفكِّرُ
إذا زُرْتُ نُعماً لَمْ يَزَلْ ذو قَرابَةٍ لَها كُلَّما لاقَيْتُها يَتَنَمَّرُ
عَزيزٌ عَلَيْهِ أنْ أُلِمَّ بِبَيْتِها يُسِرُّ لِيَ الشَّحْناءَ والبُغْضَ يُظْهِرُ
ألِكْني إليْها بِالسَّلامِ فَإنَّهُ يُشَهَّرُ إلْمامي بِها وَيُنَكَّرُ[2]
بِآيَةِ ما قالَتْ غَداةَ لَقيتُها بِمَدْفَعِ أكْنانٍ أهذا المُشَهَّرُ[3]
قِفي فَانْظُري أسْماءُ هَلْ تَعْرِفينَهُ أهَذا المُغيريُّ الذي كانَ يُذْكَرُ[4]
أهَذا الَّذي أطْرَيْتِ نَعْتاً فَلَمْ أكُنْ وَعَيْشِكِ أنْساهُ إلى يَوْمِ أُقْبَرُ
فَقالَتْ نَعَمْ لا شَكَّ غَيَّرَ لَوْنَهُ سُرى اللَّيلِ يُحْيي نَصَّهُ والتَّهَجُّرُ
لَئِنْ كانَ إيّاهُ لَقَدْ حالَ بَعْدَنا عَنِ العَهْدِ والانْسانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ
رَأتْ رَجُلاً أمّا إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ فَيَضْحى وأمّا بِالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[5]
أخا سَفَرٍ جَوّابَ أرْضٍ تَقاذَفَتْ بِهِ فَلَواتٌ فَهْوَ أشْعَثُ أغْبَرُ
قَليلٌ عَلى ظَهْرِ المَطِيَّةِ ظِلُّهُ سِوى ما نَفى عَنْهُ الرِّداءُ المُحَبَّرُ[6]

---

* عمر بن أبي ربيعة : هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي الملقب بأبي الخطاب . ولد عام ٦٤٤ في الليلة ذاتها التي توفي فيها الخليفة عمر بن الخطاب فسمي باسمه . كان يشبب بالنساء ، وقد نفاه عمر بن عبدالعزيز الى (دهلك). شارك في إحدى الغزوات البحرية ، فاحترقت السفينة به وبمن معه ، فمات غرقا وكان ذلك عام ٧١٢ . له ديوان شعر.

(١) نعم : هي امرأة من قريش، كانت تكنى أم بكر وهي من بني جمح. وقد أكثر عمر من ذكرها في شعره - غاد : السائر في أول النهار - مهجر : السير في وقت الهاجرة (الحر)
(٢) ألكني اليها بالسلام : كن رسولي اليها بالسلام
(٣) مدفع أكنان : اسم موضع
(٤) المغيري : المنسوب الى جده المغيرة ، وأسماء اسم امرأة
(٥) يضحى : يظهر للشمس ولا يستتر منها - يخصر : اصابه البرد وآلمه
(٦) المحبر : المزين

وَأَعْجَبَها مِن عَيْشِها ظِلُّ غُرفَةٍ ... وَرَيّانُ مُلْتَفُّ الحَدائِقِ أَخْضَرُ

وَوالٍ كَفاها كُلَّ شَيءٍ يَهُمُّها ... فَلَيْسَتْ لِشَيءٍ آخِرَ اللَّيلِ تَسْهَرُ

وَلَيلَةَ ذي دَوْرانَ جَشَّمْتِني السُّرى ... وَقَدْ يَجْشَمُ الهَولَ المُحِبُّ المُغَرَّرُ(٧)

فَبِتُّ رَقيباً لِلرِّفاقِ عَلى شَفاً ... أُحاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطوفُ وَأَنْظُرُ

إِلَيْهِمْ مَتى يَسْتَمْكِنُ النَّوْمُ مِنْهُمُ ... وَلي مَجْلِسٌ لَوْلا اللُّبانَةُ أَوْعَرُ(٨)

وَباتَتْ قَلوصي بِالعَراءِ وَرَحْلُها ... لِطارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِمَنْ جاءَ مُعْوِرُ(٩)

وَبِتُّ أُناجي النَّفْسَ أَيْنَ خِباؤُها ... وَكَيْفَ لِما آتي مِنَ الأَمْرِ مَصْدَرُ

فَدَلَّ عَلَيْها القَلْبَ رَيّا عَرَفْتُها ... لَها وَهَوى النَّفْسِ الَّذي كادَ يَظْهَرُ(١٠)

فَلَمّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ ... مَصابيحُ شُبَّتْ بِالعِشاءِ وَأَنْؤُرُ

وَغابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَهْوى غُيوبَهُ ... وَرَوَّحَ رُعْيانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

وَخُفِّضَ عَنّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ ... ـحُبابِ وَشَخْصي خَشْيَةَ الحَيِّ أَزْوَرُ(١١)

فَحَيَّيْتُ إِذْ فاجَأْتُها فَتَوَلَّهَتْ ... وَكادَتْ بِمَخْفوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ

وَقالَتْ وَعَضَّتْ بِالبَنانِ: فَضَحْتَني ... وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ

أَرَيْتَكَ إِذْ هُنّا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ ... وُقيتَ وَحَوْلي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ

فَوَاللهِ ما أَدْري: أَتَعْجيلُ حاجَةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ

فَقُلْتُ لَها بَلْ قادَني الشَّوْقُ وَالهَوى ... إِلَيْكِ وَما نَفْسٌ مِنَ النّاسِ تَشْعُرُ

فَقالَتْ وَقَدْ لانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُها ... كَلاكَ بِحِفْظٍ رَبُّكَ المُتَكَبِّرُ(١٢)

فَأَنْتَ أَبا الخَطّابِ غَيْرُ مُدافَعٍ ... عَلَيَّ أَميرٌ ما مَكَثْتَ مُؤَمَّرُ(١٣)

فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقاصَرَ طولُهُ ... وَما كانَ لَيْلي قَبْلَ ذلِكَ يَقْصُرُ

وَيا لَكَ مِنْ مَلْهىً هُناكَ وَمَجْلِسٍ ... لَنا لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنا مُكَدِّرُ

---

(٧) ذو دوران : اسم واد

(٨) اللبانة : الحاجة

(٩) القلوص : الناقة الشابة الفتية – معور: بين واضح

(١٠) ريّا : الرائحة الطيبة

(١١) أزور : مائل منحرف

(١٢) أفرخ روعها : زال فزعها

(١٣) أبو الخطاب : هو عمر بن أبي ربيعة

يَمُجُّ ذَكِيَّ المِسْكِ مِنْها مُقَبَّلٌ ... نَقِيُّ الثَّنايا ذو غُروبٍ مُؤَشَّرُ(14)

تَراهُ إذا ما افْتَرَّ عَنْهُ كَأَنَّهُ ... حَصى بَرَدٍ أَوْ أُقْحُوانٌ مُنَوَّرُ(15)

وَتَرْنو بِعَيْنَيْها إلَيَّ كَما رَنا ... إلى ظَبْيَةٍ وَسْطَ الخَمِيلَةِ جُؤْذَرُ(16)

فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إلاَّ أقَلَّهُ ... وَكادَتْ تَوالي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ(17)

أشارَتْ بِأنَّ الحَيَّ قَدْ حانَ مِنْهُمُ ... هُبُوبٌ وَلكِنْ مَوْعِدٌ مِنْكَ عَزْوَرُ(18)

فَما راعَني إلاَّ مُنادٍ : تَرَحَّلُوا ... وَقَدْ لاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ

فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمُ ... وَأَيْقاظَهُمْ قالَتْ : أَشِرْ كَيْفَ تَأْمُرُ

فَقُلْتُ : أُبادِيهِمْ فَإمَّا أَفُوتُهُمْ ... وَإمَّا يَنالُ السَّيْفُ ثَأْراً فَيَثْأَرُ(19)

فَقالَتْ: أتَحْقِيقاً لِما قالَ كاشِحٌ ... عَلَيْنا وَتَصْدِيقاً لِما كانَ يُؤْثَرُ(20)

فَإنْ كانَ ما لا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ ... مِنَ الأمْرِ أَدْنى لِلْخَفاءِ وَأَسْتَرُ

أَقُصُّ عَلى أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنا ... وَما لِيَ مِنْ أنْ تَعْلَما مُتَأَخَّرُ

لَعَلَّهُما أنْ تَطْلُبا لَكَ مَخْرَجاً ... وَأنْ تَرْحُبا سِرْباً بِما كُنْتُ أَحْصَرُ

فَقامَتْ كَئِيباً لَيْسَ في وَجْهِها دَمٌ ... مِنَ الحُزْنِ تُذْري عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ

فَقامَتْ إلَيْها حُرَّتانِ عَلَيْهِما ... كِساءانِ مِنْ خَزٍّ دِمَقْسٌ وَأَخْضَرُ

فَقالَتْ لأُخْتَيْها أَعِينا عَلى فَتىً ... أَتى زائِراً والأمْرُ لِلأمْرِ يُقْدَرُ

فَأَقْبَلَتا فارْتاعَتا ثُمَّ قالَتا ... أَقِلِّي عَلَيْكِ اللَّوْمَ فالخَطْبُ أَيْسَرُ

يَقُومُ فَيَمْشي بَيْنَنا مُتَنَكِّراً ... فَلا سِرُّنا يَفْشُو وَلا هُوَ يَظْهَرُ

فَكانَ مِجَنِّي دونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقي ... ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبانِ وَمُعْصِرُ(21)

فَلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ قُلْنَ لي : ... أَلَمْ تَتَّقِ الأعْداءَ واللَّيْلُ مُقْمِرُ(22)

وَقُلْنَ : أَهذا دَأْبُكَ الدَّهْرَ سادِراً ... أَما تَسْتَحي أَوْ تَرْعَوي أَوْ تُفَكِّرُ(23)

---

(14) مقبّل : أراد به فمها - الثنايا : الاسنان الأربع الأمامية ، اثنتان من الأعلى واثنتان من الأسفل
- ذو غروب : حدة الأسنان ورقتها

(15) البَرَد : حب الغمام (حب العزيز)

(16) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية

(17) تتغور : تغيب

(18) عزور : هي ثنية المدينيين الى بطحاء مكة، وقيل فيها غير ذلك

(19) يباديهم : يبدو لهم

(20) كاشح : الشخص الذي يضمر العداوة - السِّرب : النَّفْس

(21) المجن : ما يستتر به - الكاعب : الجارية التي كعب ثديها ونهدها - المعصر : الجارية أول ما أدركت

(22) أجزنا ساحة الحي : قطعنا المكان الذي يقيم فيه أهلها

(23) سادر : غير مهتم ولا مبال

إذا جئتَ فامنحْ طرْفَ عينَيْكَ غيرَنا ... لكيْ يحسَبوا أنَّ الهوى حيثُ تنظُرُ
فآخِرُ عهْدٍ لي بها حينَ أعرضتْ ... ولاحَ لها خدٌّ نقيٌّ ومَحْجِرُ(٢٤)
سوى أنّني قدْ قلتُ يا نُعْمُ قولةً ... لها والعتاقُ الأرْحَبيّاتُ تُزْجَرُ(٢٥)
هنيئاً لأهلِ العامريّةِ نشْرُها الـ ... ـلذيذُ وريّاها الذي أتذكّرُ(٢٦)
فقمْتُ إلى عنسٍ تخوّنَ نيَّها ... سُرى الليلِ حتّى لحمُها متحسِّرُ(٢٧)
وحَبْسي على الحاجاتِ حتّى كأنّها ... بقيّةُ لوْحٍ أوْ شجارٌ مؤسَّرُ(٢٨)
وماءٍ بموْماةٍ قليلٍ أنيسُهُ ... بسابِسَ لمْ يحدثْ به الصيفَ محْضَرُ(٢٩)
بهِ مُبْتنىً للعنكبوتِ كأنّهُ ... على طرَفِ الأرْجاءِ خامٌ مُنَشَّرُ
وردْتُ وما أدري أما بعْدَ موْردي ... منَ الليلِ أمْ ما قدْ مضى منه أكثَرُ
فقمْتُ إلى مِغْلاةِ أرْضٍ كأنّها ... إذا التفتَتْ مجنونةٌ حينَ تنْظُرُ(٣٠)
تُنازِعُني حِرْصاً على الماءِ رأسَها ... ومنْ دونِ ما تهْوى قليبٌ مُغَوَّرُ(٣١)
مُحاولةً للماءِ لوْلا زمامُها ... وجَذْبي لها كادتْ مراراً تكسَّرُ
فلمّا رأيْتُ الضرَّ منها وأنّني ... ببلْدةِ أرْضٍ ليسَ فيها مُعصَّرُ(٣٢)
قصرْتُ لها منْ جانبِ الحوْضِ مُنْشأً ... جديداً كقابِ الشِّبْرِ أوْ هوَ أصغَرُ
إذا شرَعتْ فيهِ فليْسَ لِمُلْتقى ... مَشافرِها منْهُ قدى الكفِّ مُسْأرُ(٣٣)
ولا دلْوَ إلاّ القعْبُ كانَ رِشاءَهُ ... إلى الماءِ نِسْعٌ والأديمُ المُضَفَّرُ(٣٤)
فسافتْ وما عافتْ وما ردَّ شُرْبَها ... عنِ الرِّيِّ مطْروقٌ منَ الماءِ أكدَرُ(٣٥)

(٢٤) المحجر : مشق جفن العين
(٢٥) العتاق : الخيول – الارحبيات : المنسوبة الى قبيلة أرحب الهمدانية
(٢٦) النشر والريا : الرائحة الطيبة
(٢٧) العنس : الناقة – تخوّن نيها : تناقص شحمها
(٢٨) الشجار : مركب دون الهودج – مؤسر : مشدود
(٢٩) الموماء : الصحراء – البسابس : القفار
(٣٠) مغلاة أرض : يقصد الناقة
(٣١) القليب : البئر – مغور : غار ماؤه
(٣٢) معصر: ملجأ ومنجى
(٣٣) مشافرها : مفردها مشفر وهو ما يشبه الشفة عند الانسان – قدى الكف : قدره – مسأر : أي فضلة تبقيها من الماء
(٣٤) القعب : هنا القدح الذي يروي الرجل – الرشاء : الحبل الذي تسحب بواسطته الدلو من البئر – النسع : حبل من جلد على هيئة عنان الخيل
(٣٥) سافت : شمّت – عافت : كرهت – مطروق الماء : الماء الذي بالت الابل وبعرت فيه – أكدر : الكدر وهو هنا تغير اللون

ولجميل بثينة*

ألا ليتَ ريعانَ الشبابِ جديدُ ... ودَهْراً تولّى، يا بُثَيْنَ، يَعودُ
فنَبْقى كَما كُنّا نَكونُ، وأنتم ... قريبٌ، وإذْ ما تَبْذُلينَ زَهيدُ
وما أنْسَ، مِ الأشياءِ لا أنْسَ قولَها ... وقَدْ قَربت نِضْوى: أمِصْرَ تُريدُ؟[1]
ولا قولَها: لولا العيونُ التي تَرى، ... لَزُرْتُكَ، فاعْذُرني، فَدَتْكَ جُدودُ
خَليليَّ، ما ألقى من الوجدِ باطنٌ، ... ودَمْعي بما أخفي، الغداةَ، شَهيدُ
ألا قد أرى، واللهِ، أنْ رُبَّ عَبْرةٍ ... إذا الدارُ شطّت بيننا، ستَزيدُ
إذا قُلْتُ: ما بي يا بُثَينةُ قاتلي، ... مِنَ الحبِّ، قالَتْ: ثابتٌ، ويَزيدُ
وإنْ قُلْتُ: رُدّي بعضَ عَقْلي أعِشْ به! ... تولَّتْ وقالَتْ: ذاكَ منكَ بَعيدُ!
فلا أنا مَرْدودٌ بِما جِئْتُ طالِباً، ... ولا حُبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ
جَزَتْكِ الجَوازي، يا بُثَينُ، سَلامةً ... إذا ما خَليلٌ بانَ وهو حَميدُ
وَقُلْتُ لَها: بَيْني وبَيْنَك، فاعلَمي، ... مِنَ اللهِ ميثاقٌ لَهُ وعُهودُ
وَقَدْ كانَ حُبّيكُم طَريفاً وتالِداً، ... وما الحُبُّ إلاّ طارِفٌ وتَليدُ[2]
وإنَّ عُروضَ الوصْلِ بَيْني وبَيْنَها، ... وإنْ سَهَّلَتْه بالمُنى، لَكَؤودُ[3]
وأفْنَيتُ عُمْري بانْتِظاري وَعْدَها ... وأبْلَيْتُ فيها الدَّهْرَ وهْوَ جَديد
فَلَيْتَ وُشاةَ النّاسِ، بَيْني وبَيْنَها، ... يَدوفُ لَهُم سُمّاً طَماطِمُ سُودُ[4]
وَلَيْتَهُم، في كُلِّ مُمْسى وشارِقٍ، ... تُضاعَفُ أكْبالٌ لَهُمْ وقُيودُ
وَيَحْسَبُ نِسوانٌ مِنَ الجَهْلِ أنّني ... إذا جِئْتُ، إيّاهُنَّ كُنْتُ أُريدُ
فأقْسِمُ طَرْفي بَيْنَهُن فيَسْتَوي، ... وفي الصَّدْرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعيدُ

---

* جميل بثينة: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي أبو عمرو. لم يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد، وإن كان قد عرف مكان مولده على أنه في وادي القرى من أعمال المدينة. عرف عنه حبه لبثينة – من فتيات قومه – وأكثر شعره في الغزل والنسيب والفخر. سافر الى مصر، ونزل على عبد العزيز بن مروان الذي أكرم وفادته، فأقام جميل عنده لفترة قصيرة، ولم يلبث أن توفي هناك عام ٧٠١ م. له ديوان شعر، وكتب عنه عباس محمود العقاد كتاب (جميل بثينة).

(١) نضوى: النضو ما هزل من الابل وغيرها (٢) الطارف: الجديد – التليد: القديم
(٣) العروض: الطريق الطويل في عرض الجبل (المضيق) – الكؤود: الصعب المرتقى
(٤) يدوف: يخلط – طماطم: مفردها طِمطِم وهو الشخص الذي في لسانه عجمة

ألا لَيْتَ شِعْري ، هَلْ أبيتَنَّ لَيْلَةً … بوادي القُرى ؟ إنّي إذَنْ لَسَعيدُ ![5]

وَهَلْ أهْبِطَنْ أرْضاً تَظَلُّ رِياحُها … لَها بالثَّنايا القاوياتِ وَئيدُ ؟[6]

وَهَلْ ألْقَيَنْ سُعْدى مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً ، … وَما رَثَّ مِنْ حَبْلِ الصَّفاءِ جَديدُ ؟

وَقَدْ تَلْتَقي الأشْتاتُ بَعْدَ تَفَرُّقٍ … وَقَدْ تُدْرَكُ الحاجاتُ وَهْيَ بَعيدُ

وَهَلْ أزْجُرَنْ حَرْفاً عَلاةً شِمِلَّةً … بِخَرْقٍ ، تُباريها سَواهِمُ قُودُ[7]

عَلى ظَهْرِ مَرْهوبٍ ، كَأنَّ نُشوزَهُ ، … إذا جازَ هُلاّكُ الطَّريقِ ، رُقودُ[8]

سَبَتْني بِعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ وَسْطَ رَبْرَبٍ ، … وَصَدْرٍ كَفاثورِ اللُّجَيْنِ ، وَجيدُ[9]

تَزيفُ كَما زافَتْ إلى سَلِفاتِها … مُباهِيَةً ، طَيُّ الوِشاحِ ، مَيودُ[10]

* * *

إذا جِئْتُها مِنَ الدَّهْرِ ، زائراً ، … تَعَرَّضَ مَنْفوضُ اليَدَيْنِ ، صَدودُ

يَصُدُّ ويُغْضي عَنْ هَوايَ ، وَيَجْتَني … ذُنوباً عَلَيْها ، إنَّهُ لَعَنودُ !

فأصْرِمُها خَوْفاً ، كَأنّي مُجانِبٌ ، … ويَغْفُلُ عَنّا مَرَّةً ، فَنَعودُ[11]

وَمَنْ يُعْطَ في الدنيا قَريناً كَمِثْلِها ، … فَذلك في عَيْشِ الحَياةِ رَشيدُ

يَموتُ الهَوى مِنّي إذا ما لَقيتُها ، … وَيَحْيا ، إذا فارَقْتُها ، فَيَعودُ

يَقولونَ : جاهِدْ يا جَميلُ ، بِغَزْوَةٍ ، … وأيُّ جِهادٍ ، غَيْرَهُنَّ ، أريدُ !

لِكُلِّ حَديثٍ بَيْنَهُنَّ بَشاشَةٌ ، … وَكُلُّ قَتيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهيدُ

وَأحْسَنُ أيّامي ، وأبْهَجُ عيشَتي … إذا هيجَ بي يَوماً وَهُنَّ قُعودُ

تَذَكَّرْتُ لَيْلى ، فَالفُؤادُ عَميدُ ، … وشَطَّتْ نَواها ، فالمَزارُ بَعيدُ[12]

عَلِقْتُ الهَوى مِنها وَليداً ، فَلَمْ يَزَلْ … إلى اليَوْمِ يَنْمي حُبُّها وَيَزيدُ

---

(٥) وادي القرى : موضع قرب المدينة كان جميل يقيم فيه

(٦) الثنايا : مفردها ثنية ، وهي طريق العقبة ، وقيل هي الجبل – القاويات : المقفرة – الوئيد : الصوت الشديد

(٧) الحرف : الناقة الضامرة – علاة : الناقة المشرفة – الشملة : الناقة السريعة – الخرق: الأرض القفر – السواهم : مفردها ساهمة وهي الناقة الضامرة – قود : المنقادة

(٨) مرهوب : هو الطريق الذي يرهب السير فيه – النشوز : مفردها نشز ، وهي المنطقة المرتفعة من الأرض – هلاك الطريق : الذين ضلوا الطريق

(٩) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية – فاثور اللجين : الفاثور هو الطست ، واللجين هو الفضة

(١٠) تزيف : تتبختر في مشيتها – الميود : كثيرة الحركة

(١١) أصرمها : أهجرها وأقاطعها

(١٢) عميد : شديد الحزن الذي هده العشق

فَمـــا ذُكِرِ الخلاّن إلاّ ذَكَرتُهـــا ، وَلا الـــبُخْلُ إلاّ قُلْتُ سَوفَ تجـــود

اذا فـــكّرتْ قـــالَتْ : قـــد أدْرَكْتُ وُدَّه وَمـا ضَرَّنـي بُخْلـي ، فـكـيـفَ أجـودُ !

فَلَوْ تُكْشَفُ الأحْشاءُ صـودِفَ تَحْتـهـا ، لِبَثْنَةَ ، حُبُّ طـــارِفٌ وَتَلـــيـــد

أَلَمْ تَعْلَـمـي يـا أُمَّ ذي الـوَدْعِ أنّنـي أُضـاحِكُ ذِكْراكُم ، وَأَنـتِ صَـلـود ؟[13]

فَهَلْ ألْـقَيَنْ فَرداً بـثـيـنـةَ لـيـلـةً ، تَجـودُ لَنـا مِن وُدِّهـا وَنَجـود ؟

وَمَنْ كـانَ فـي حـبّي بُثـيـنـةَ يَمْتَري ، فَبَرْقـاءُ ذي ضـالٍ عَلـيَّ شَهـيـدُ[14]

ديوان جميل بثينة

(١٣) الصلود : الصلب ويقصد هنا انها امرأة قليلة الخير
(١٤) برقاء ذي ضال : موضع كان جميل وبثينة يجتمعان فيه

وقال المتلمس الضبعي*

وَلَوْ غيرُ أخْوالي أرادوا نَقيصَتي ... جعلتُ لهم فوقَ العرانين ميسما

وما كنتُ إلاّ مثلَ قاطعِ كفِّهِ ... بكفٍّ له أُخرى فأصبَحَ أجذَما

يداهُ أصابتْ هذه حتفَ هذه ... فلم تَجِد الأخرى عليها مُقَدَّما

فلما استقادَ الكفُّ بالكفِّ لم يَجِدْ ... له دَركاً في أنْ تبينا فأحْجَما

فأطْرَقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولَوْ يرى ... مَساغاً لِنابَيْه الشجاعُ لصمَّما

ولسلامة بن جندل**

تَقول ابنتي إنّ انطلاقَكَ واحداً ... الى الرَّوْعِ يوماً تاركي لا أباليا

دَعينا من الإشفاقِ أو قَدِّمي لنا ... من الحَدَثانِ والمنيّةِ واقيا

سَتَتْلَفُ نَفْسي أو سأجمعُ هجمةً ... تَرَى ساقييها يألمان التراقيا

---

* المتَلَمِّس الضُّبَعي : هو جرير بن عبدالعزّى - أو عبد المسيح - من بني ضُبَيْعَة من ربيعة ، وهو شاعر من العصر الجاهلي . ولد في البحرين ، وهو خال طرفة بن العبد. لحق بآل جفنة في الشام بعد ان هجا عمرو بن هند (ملك العراق) . مات في بصرى الشام نحو عام ٥٦٩ م

** سلامة بن جندل بن عبد عمرو : من شعراء العصر الجاهلي ، ومن الذين أجادوا وصف الخيل له ديوان شعر رواه الأصمعي . توفي نحو عام ٦٠٠ ميلادية .

وقال هدبة بن خشرم اخو عذرة*

لستُ بباغي الشرِّ والشرُّ تاركي ... ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشر أرْكَبِ
وَحَرَّبَني مولاكَ حتى غَشيتُهُ ... مَتى ما يُحَرِّبكَ ابن عمك تَحْرَبِ

ولبشار بن برد**

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... خليلكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ
فَعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّه ... مُقارفُ ذَنْبٍ مَرةً ومُجانبُهْ
إذا أنتَ لم تشْرب مراراً على القذى ... ظَمِئْتَ وأي الناسِ تصفو مشاربُهْ

ولمجنون ليلى***

تَجَنَّبتَ ليلى حين لَجَّ بكَ الهَوى ... وَهَيْهات كان الحبُ قبلَ التجنُّبِ
وَلَمْ أرَ ليلى بَعد موقفِ ساعة ... بِخَيْفِ مِنىً تَرمي جِمار المحَصَّبِ
ويُبدي الحصا منها إذا قذفتْ به ... من البُرد أطرافَ البنانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ مِن ليلى الغداةَ كناظر ... مع الصبح في أعقابِ نجم مغرِّبِ
ألا إنّما غادرتِ يا أمَّ مالك ... صدىً أينما تَذْهَب به الريحُ يذهَبِ

---

* هُدبة بن خشرم بن كُرز: شاعر فصيح . روى الشعر عن الحطيئة. يروى عنه انه قتل شاعراً من بني رقاش اسمه زيادة بن زيد ، وهرب ، فعمد والي المدينة سعيد بن العاص الى حبس أهل هدبة ، فبلغه ذلك ، فسلم نفسه وحبس مدة ثلاث سنوات ، ثم حكم عليه ان يسلم إلى أهل المقتول ليقتصوا منه ، فقتلوه أمام الوالي والناس ، وكان ذلك نحو عام ٦٧٠ ميلادية .

** بشار بن بُرد : هوَ بشار بن برد العقيلي بالولاء ، أبو معاذ . ولد في عام ٧٤م وأصله من طخارستان (غربي نهر جيحون) . نشأ في البصرة ، وقدم بغداد. اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، ودفن في البصرة عام ٧٨٤م . له ديوان شعر.

*** مجنون ليلى : هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري . وهو من أهل نجد ، ويعد إمام شعراء الغزل المتيمين . لم يعرف تاريخ مولده ، و (المجنون) هو لقب أطلق عليه لهيامه في حب ليلى بنت سعد ، التي اشتد حبه لها ، فهام على وجهه في الأرض ، الى أن وجد ميتا في الفيافي بين الأحجار ، وكان ذلك نحو عام ٦٨٨م . له ديوان شعر.

أما ليلى بنت سعد التي أحبها ، فهي ليلى بنت مهدي بن سعد ، أم مالك العامرية ، وهي من بني كعب بن ربيعة ، وقد امتنع أبوها عن تزويجها من المجنون ، وأجبرت على الزواج من آخر غيره . ماتت نحو عام ٦٨٨م أيضاً، وهناك من يقول انها ماتت قبل المجنون .

وله أيضاً

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَتيتَينِ بَعدَما ... يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَنْ لا تَلاقِيا

لَحى اللهُ أَقواماً يَقولونَ إِنَّنا ... وَجَدنا طَوالَ الدَهرِ لِلحُبِّ شافِيا

أَشَوقاً وَلَمّا تَمضِ لي غَيرُ لَيلَةٍ ... رُوَيدَ الهَوى حَتّى يَغِبَّ لَيالِيا

وقال :

وَتَفَرَّقوا بَعدَ الجَميعِ بِغِبطَةٍ ... لا بُدَّ أَنْ يَتَفَرَّقَ الجيرانُ

لا تَصبِرِ الإِبِلُ الجِلادُ تَفَرَّقَتْ ... حَتّى تَحِنَّ ، وَيَصبِرُ الإِنسانُ

ومما قاله في ليلى أيضاً:

وَإِنّي لَأَرضى مِنكِ يا لَيلُ بِالَّذي ... لَوْ أَيقَنَهُ الواشي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ

بِلا وَبِأَن لا أَستَطيعُ وَبِالمُنى ... وَبِالوَعدِ حَتّى يَسأَمَ الوَعدَ آمِلُهْ

وَبِالنَظرَةِ العَجلى وَبِالحَولِ تَنقَضي ... أَواخِرُهُ لا نَلتَقي وَأَوائِلُهْ

الحماسة الصغرى لأبي تمام

قال المتنبي* يمدح سيف الدولة
ويذكر بناءه ثغر الحدث (١)

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العزْمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ
وتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغيرِ صغارها ... وتَصْغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ
يُكَلِّفُ سيفُ الدولةِ الجيشَ هَمَّهُ ... وقد عَجِزَتْ عنه الجيوشُ الخَضارِمُ(٢)
ويطلبُ عندَ الناسِ ما عندَ نَفْسِه ... وذلك ما لا تَدَّعيه الضراغمُ(٣)
يُفَدِّي أَتَمُّ الطيرِ عُمْراً سلاحَه ... نسورُ الفَلا أحداثُها والقَشاعِمُ(٤)
وما ضَرَّها خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخالبٍ ... وقد خُلِقَتْ أسيافُهُ والقوائمُ
هل الحَدَثُ الحمراءُ تعرفُ لونَها ... وتَعْلَمُ أيُّ الساقِيَيْنِ الغَمائمُ
سَقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قبلَ نُزولِهِ ... فلما دَنا منها سَقَتْها الجماجمُ(٥)
بَناها فَأَعْلى وَالقَنا يقرعُ القَنَا ... ومَوجُ المنايا حولَها مُتَلاطمُ(٦)
وَكانَ بها مثلُ الجُنونِ فأصبحتْ ... وَمِنْ جُثَثِ القتلى عليها تَمائمُ(٧)
طَريدةُ دَهْرٍ ساقَها فَرَدَدْتَها ... على الدِّينِ بالخَطِّيِّ والدهرُ راغمُ(٨)
تُفيتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذْتَه ... وهُنَّ لِما يأخُذْنَ منكَ غَوارمُ
إذا كانَ ما تَنْويهِ فِعْلاً مُضارِعاً ... مَضى قبلَ أن تُلْقى عليه الجَوازمُ
وكيفَ تُرجّي الرومُ والروسُ هَدْمَها ... وذا الطَّعْنُ آساسٌ لها ودعائمُ
وقد حاكَموها والمنايا حَواكِمٌ ... فما ماتَ مظلومٌ ولا عاشَ ظالمُ

---

* المتنبي : هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الكوفي الكندي. ولد في مدينة الكوفة في محلة كندة عام ٩١٥ م ، ثم تنقل في البادية طالباً العلم والأدب . قال الشعر ولما يزل صبيا ، وادعى النبوة في بادية السماوة ، فتبعه خلق كثير ، غير انه عاد عن ذلك بعد أن أسره وسجنه نائب الأخشيد . وفد على سيف الدولة ابن حمدان، ثم على كافور الأخشيدي ، فمدحه ، وطلب منه ولاية ، غير ان كافور لم يلب رغبته هذه ، فانصرف عنه، وهجاه هجاء مقذعاً. زار بلاد فارس ، ورحل الى شيراز ، ومدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي ، ثم عاد يريد بغداد فالكوفة، الاّ أنه قتل في الطريق على يد جماعة فاتك الأسدي ، وكان ذلك عام ٩٦٥م . له ديوان شعر.

(١) الحدث : قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم ، وغلب عليها ، فتحصن الروم فيها ، فأتاهم ، وقتلهم ، فتلطخت بدمائهم ، ولذلك فانه وصفها بالحمراء

(٢) الخضارم : الكثير من كل شيء ... (٣) الضراغم : الأسود

(٤) الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء - أحداثها : صغار النسور ، والقشاعم هي النسور المسنة

(٥) الغمام : جمع غمامة - الغر : البيض ... (٦) القنا : عيدان الرماح

(٧) تمائم : مفردها تميمة ، وهي خرزة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح الشريرة ... (٨) الخطي : الرمح

أتَوْكَ يَجُرّونَ الحديدَ كأنّما ... سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنَّ قوائمُ

إذا بَرَقوا لم تُعرفِ البيضُ منهم ... ثيابُهُمْ من مِثْلِها والعَمائمُ(٩)

خَميسٌ بشرقِ الأرض والغربِ زَحفُه ... وفي أُذُنِ الجوزاءِ منه زَمازمُ(١٠)

تَجمّعَ فيه كُلُّ لِسْنٍ وأمّةٍ ... فما يُفْهِمُ الحُدّاثَ إلا التَّراجمُ

فللّه وَقْتٌ ذَوّبَ الغِشَّ نارُهُ ... فلم يَبْقَ الا صارمٌ أو ضُبارِمُ(١١)

تقطّعَ ما لا يَقْطَعُ الدرعَ والقنا ... وَفَرَّ من الفرسانِ مَن لا يُصادِمُ

وَقَفْتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنكَ في جفنِ الرَّدى وهو نائمُ

تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمى هزيمةً ... وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وثغرُكَ باسِمُ

تَجاوزْتَ مقدارَ الشجاعةِ والنُّهى ... الى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالِمُ

ضَمَمْتَ جَناحَيْهم على القلبِ ضَمّةً ... تموتُ الخوافي تحتَها والقوادمُ(١٢)

بِضَرْبٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ ... وصارَ الى اللَّبّاتِ والنَّصْرُ قادمُ(١٣)

حَقَرْتَ الرُّدَيْنيّاتِ حتى طَرَحْتَها ... وحتى كأن السيفَ للرمحِ شاتمُ(١٤)

وَمَنْ طَلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنما ... مفاتيحُه البيضُ الخِفافُ الصوارمُ

نَثَرْتَهُمْ فوقَ الأُحَيْدِبِ كلِّه ... كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ(١٥)

تدوسُ بكَ الخيلُ الوكورَ على الذرى ... وقد كَثُرَتْ حولَ الوُكورِ المطاعِمُ

تظُنُّ فِراخُ الفُتْخِ أنكَ زُرْتَها ... بأُمّاتِها وهي العِتاقُ الصَّلادِمُ(١٦)

اذا زَلِقَتْ مَشّيْتَها ببطونِها ... كما تتمشّى في الصَّعيدِ الأراقِمُ(١٧)

أفي كلِّ يومٍ ذا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ ... قَفاهُ على الإقدامِ للوَجْهِ لائمُ

أيُنْكِرُ ريحَ الليثِ حتى يذوقَه ... وقد عَرَفَتْ ريحَ الليوثِ البهائمُ

وقد فَجَعَتْهُ بابنِه وابنِ صِهْرِه ... وبالصِّهْرِ حَمْلاتُ الأميرِ الغَواشِمُ

---

(٩) البيض : السيوف

(١٠) الخميس : الجيش – الزمازم : ومفردها زمزمة وهي صوت الرعد

(١١) الصارم : السيف القاطع – الضبارم : الشجاع

(١٢) جناحيهم : ميمنة الجيش وميسرته – القلب : وسط الجيش
– الخوافي والقوادم : ريش الطائر، وهي الريش المخفي تحت الجناح وكذلك الموجود عند القوادم

(١٣) الهامات : الرؤوس ومفردها هامة – اللبات : أعالي الصدور

(١٤) الردينيات : الرماح

(١٥) الاحيدب : جبل فوق قلعة الحدث

(١٦) الفتخ : جمع فتخاء ، وهي اللينة الجناح من العقبان – الصلادم : الشداد

(١٧) الصعيد : وجه الأرض – الأراقم : هي مفرد أرقم وهي الحية السوداء البيضاء

مضى يشكرُ الأصحابَ في فَوْتِهِ الظُّبى لما شَغَلَتْها هامُهُمْ والمعاصم[18]

ويَفْهَمُ صوتَ المشرفيّةِ فيهم على أنّ أصواتَ السيوفِ أعاجم[19]

يُسَرُّ بما أعطاكَ لا عن جَهالةٍ ولكنّ مَغْنوماً نَجا منكَ غانمُ

ولستَ مَليكاً هازماً لِنَظيرِهِ ولكنّكَ التوحيدُ للشِّرْكِ هازمُ

تَشَرَّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ وتفتخرُ الدنيا به لا العواصمُ

لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لي لَفْظُهُ فإنّكَ مُعْطيهِ وإنّي ناظمُ

وإنّي لَتَعْدو بي عطاياكَ في الوَغى فلا أنا مَذْمومٌ ولا أنتَ نادمُ

على كلِّ طيّارٍ إليها بِرِجْلِهِ إذا وَقَعَتْ في مِسْمَعَيْهِ الغَماغم[20]

ألا أيها السيفُ الذي ليس مُغْمَداً ولا فيه مُرتابٌ ولا منه عاصمُ

هَنيئاً لِضَرْبِ الهامِ والمجْدِ والعُلى وَراجيكَ والاسلامِ أنكَ سالمُ

ولِمْ لا يَقي الرّحمنُ حَدَّيْكَ ما وَقى وتَفْليقُهُ هامَ العِدى بكَ دائمُ

ديوان المتنبي

---

(١٨) الظبى : حد السيف

(١٩) المشرفية : السيوف

(٢٠) الغماغم : جمع غمغمة ، وهي اختلاط الأصوات

وقال ابن حمديس* يخاطب أهل بلده ويحضهم على الجهاد

بَني الثَّغْرِ لَسْتُم في الوغى من بني أمي ... اذا لم أصِلْ بالعُرْبِ منكم على العُجْمِ

دَعوا النومَ إني خائفٌ أنْ تَنوسَكُمْ ... دَواهٍ ، وانتم في الأماني مع الحُلْمِ

وكأسٍ بأم الموتِ يسعى مُديرُها ... الى أهل كأسٍ حشّها بابنةِ الكرم[1]

فَرُدّوا وجوهَ الخيلِ نحو كريهةٍ ... مُصرِّحةٍ في الرّوم بالثُّكلِ واليُتْمِ

تُهيلُ من النقعِ المحلّق بالضحى ... على الشمس ما هالَتْه ليلاً على النجم

وَصولوا ببيضٍ في العَجاج كأنها ... بُروقٌ بِضَرْبِ الهام مُحْمَرَّةُ السَّجْمِ[2]

ولا عَدِمَتْ في سلِّها من غمودِها ... ظهوراً فقد تُخفى الجداول بالرُّجم[3]

وقرعُ الحسامِ الرأسَ من كل كافرٍ ... أحبُّ الى سمعي من النَّقْر في البم[4]

ولله منكم كل ماضٍ كعَضْبِهِ ... يسيل الى الهيجاء مُتَّقِدَ العَزْمِ[5]

يُحدِّثُ بالإقدامِ نفساً كأنما ... يَطيرُ الى الحرب اشتياقاً عن السِّلْم

يُنيرُ عليه صَبْرَهُ ، وهو نَشْرَةٌ ... لتسريدها أمْنٌ من القَوْرِ والقَصْمِ[6]

ويسطو بمحجوبِ الظُّبات إذا بدا ... جلا ما جلا الاصباحُ من ظلمة الظلم

له دَخْلَةٌ في الجسمِ تُخْرِجُ نَفْسَه ... قُبَيْلَ خُروجِ الحَدِّ منه عن الجسم

وما يُفْتَدى منه بلحمٍ ولا دَمٍ ... ولكنْ بما في العظم بالبَرْيِ للعظم

ثُبوتٌ إذا ما أقبَلَ الموتُ فاغراً ... يُردِّدُ في الاسماع جَرْجَرَةَ القَرْمِ[7]

له عَيْنُ ضرغامٍ هَصورٍ، فَقَلْبُهُ ... بِتَصْريفِ فِعْلِ الجَهْلِ منه على عِلْم

ولله أرضٌ إنْ عَدِمْتُم هَواءَها ... فأهواؤكُم في الأرض منثورةُ النُّظْم

---

* ابن حمديس : هو عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي . ولد في جزيرة صقلية ، ونشأ بها ، ثم ارتحل عام ٤٧١هـ الى الاندلس ، وبعدها الى افريقية عام ٤٨٤ هـ . توفي في جزيرة ميورقة نحو عام ١١٣٣م . له ديوان شعر.

(١) ابنة الكرم : الخمرة

(٢) البيض : السيوف – العجاج : الغبار – الهام : الرؤوس
– السجم : الدمع أو السحاب ويقصد بها هنا الدم

(٣) الرجم : كومة من الحجارة (٤) البم : أغلظ أوتار العود

(٥) كعضبه : العضب هو السيف القاطع

(٦) التسريد : التتابع – القور : فقء العين – القصم : القطع

(٧) القرم : فحل الابل

وَعــزكُم يُفْضــي الــى الــذُلّ والــنَّوى مِنَ البَيْنِ تَرْمي الشَّمـلَ مِنْكُم بمـا تَرْمـي

فــإنّ بــلادَ الــنَّاس لَيْسَتْ بــلادكُم ولا جـارُهـا والخِلْمُ كـالجـار والخِلـم[8]

أعَنْ ارضِكُم يُغـنـيـكُم أرضٌ غيـركـم وكـم خـالـةٍ جَدّاءَ لـم تُغْنِ عـن أمّ[9]

أخِلّي الــذي وُدّي بــوُدٌّ وَصلْتــهُ لديّ كمـا نيطَ الوليّ الى الوسمـي[10]

تَقَيّدْ مـن الـقـطـر الـعـزيـزِ بمـوطـنٍ وَمُتْ عـنـدَ رَبْعٍ مـن ربـوعـك أو رَسْم

وإيـــاكَ يـــومـــاً أن تُجَرِّبَ غُربَةً فلـن يسـتـجيـزَ الـعقـلُ تجربةَ السُّمّ

ديوان ابن حمديس الصقلي

(٨) الخلم : الصديق الحق

(٩) جدّاء : عظيمة اللبن أو قليلته

(١٠) نيط : علّق — الولي : المطر — الوسمي : أول مطر الربيع

من الشعر العربي الحديث

رثاء الهَبْر

مصطفى وهبي التل*

الهَبْر : « نوري من القاطنين في الأردن ، واسمه رصاص . ولكنه لقب بالهبر لضخامة جسمه ووفرة لحمه .لا يكاد يختلف عن بني قومه في شيء ، وان كان يتميز بقامته الفارعة وشعره الأشيب المنفوش ، ولحيته الكثة ، وسحنته الغجرية الأصيلة ، وصوته الضخم الذي يشبه صهيل الخيل .

« ذات يوم أشيع ان الهبر مات ، فما كان من الشاعر الا ان رثاه بهذه القصيدة ، التي نشرتها جريدة الأردن في عددها الصادر في ٢٧ / كانون الأول / ١٩٣٤م فكانت لها أصداء في الوسط الأدبي آنذاك ، فقد اعتاد الناس على أن يسمعوا الشعراء يرثون العظماء لا .(النَّوَر) ، أو بالأحرى هذا النوري الدميم الخلقة ، الهبر ، لكن عراراً يرى غير هذا الرأي ، فيرثي الهبر ، غير ان الهبر مات عام ١٩٥٠ ، أي بعد وفاة الشاعر بحوالي عام » .

أيْنَ جَمْشيدُ ؟! أيْنَ كايوكَبادُ ؟ ... أيْنَ زالُ ؟؟ زالوا جَميعاً وَبادوا

وَعَلى « الهَبْر » قَدْ رَسا مِثْلهم بالـ ... أَمْسِ في مَصْفَقِ المَنونِ المَزادُ

لَمْ تُفْطِرْ مَرائِرُ الزَّطِّ لَمّا ... غَيَّبوهُ وَلا انْفَرَتْ أكْبادُ

وَدَوّى طَبْلُهُمْ كَما كانَ يُدَوّي ... يَوْمَ لِلهَبْرِ كانَتِ الأمْجادُ

واسْتَمَرَّ النُّدمانُ يُسْقَوْنَ صِرْفاً ... مِنْ رَحيقٍ ، كُرومُهُ جِلْعادُ

وَمَضى عازِفُ « الرَّبابَة » يَشْدو ... لَحْنَهُ ، وانْبَرَتْ لِرَقْصٍ سُعادُ[1]

« هَبْرُ » ! حَتّى حَميرُ قَوْمِكَ إذْ تَنْـ ... ـشِجُ مَغْزى نَشيجِها إنْشادُ

متْ كَما شِئْتَ فالنَّدامى بِلَهْوٍ ... لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ عَلَيْكَ الحِدادُ

هَبْرُ ! ساقي السُّقاة ما زالَ قَدْ نَحّاك عَمّا أصابَهُ الوُرّادُ

وَاعْوِجاجُ الزَّمانِ يا هَبْرُ ما زا ... لَ اعْوِجاجاً يَنوءُ فيهِ السَّدادُ

وَبَياضُ النَّهارِ ما زالَ مِنْهُ ... حَظُّنا كانَ يا تَعيسُ سَوادُ

لا تَخَفْ ظُلْمَةَ القُبورِ فَفيها ... يَتَساوى : الأفْذاذُ والأوْغادُ

---

* مصطفى وهبي التل : ولد في مدينة اربد عام ١٨٩٧ ، وتعلم فيها ، وكذلك في دمشق وحلب ، غير انه طرد من المدارس قبل أن يتم دراسته بسبب ميوله السياسية . عين عام ١٩٢٣ حاكماً اداريا لبلدة وادي السير ، ثم أدى امتحاناً في القوانين الأردنية ، وزاول مهنة المحاماة ، ثم تقلب في عدة وظائف حكومية . كان يلقب باسم (عرار) وعاش حياة بوهيمية ، أدت في النهاية الى إصابته بالمرض ومن ثم الوفاة عام ١٩٤٩ . له ديوان شعر بعنوان (عشيات وادي اليابس) جمع بعد وفاته .

(١) سعاد : احدى راقصات النور .

وَينامُ الصُّعْلوكُ جَنْباً لِجَنْبٍ   والسُّراةُ الذين شادوا وَسادوا

* * *

أيُّهذا التُّرابُ بورِكْتَ مِنْ قا   ضٍ لأحْكامه اسْتَراحَ العِبادُ

هَبْرُ! لَيْسَتْ دُنْياكَ عَبْدَةَ رِقٍّ   لأناسٍ بِعُرْفِها أسْيادُ

كُلّ حَيٍّ لَسَوْفَ تَحْمِلُهُ يو   ماً لِمَثْواكَ مُرْغَماً أعْوادُ

والشَّقِيُّ الشَّقِيُّ مَنْ يَحْسَبُ العُمْرَ   بِناءً لا يَعْتَريه النَّفادُ

إنَّ حَبْلَ الرَّدى مشاعٌ وَعَنْهُ   قفزَ الهبرُ وابنُ شدادَ عادْ

ديوان عشيات وادي اليابس

اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها

حافظ ابراهيم*

رجعتُ لنفسي فاتّهمتُ حَصاتي ... وناديتُ قومي فاحتَسبْتُ حياتي

رموني بِعُقْمٍ في الشباب وليتني ... عقِمْتُ فلم أجزَع لقول عُداتي

وَلَدْتُ ولما لم أجِدْ لعرائسي ... رجالا واكفاء وأدْتُ بَناتي

وَسعْتُ كتابَ الله لفظاً وغاية ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمختَرَعات ؟

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبْلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإنْ عز الدواء أُساتي

فلا تَكِلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أنْ تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عَزَّ أقوامٌ بعزٍّ لغات

أتَوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات !

أيُطْرِبكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي ؟

ولو تزجرون الطير يوماً علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله في بطن الجزيرة أعْظُماً ... يعز عليها أنْ تَلين قناتي !

حَفِظْنَ ودادي في البلى وحَفِظْتُه ... لَهُنَّ بقلب دائم الحسرات

وَفاخَرْتُ أهلَ الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يدنيني بغير أناة

وأسْمَعُ للكُتّاب في مصر ضجة ... فأعلم أنَّ الصائحين نعاتي

---

* حافظ ابراهيم : هو محمد حافظ بن ابراهيم فهمي . ولد في مصر عام ١٨٧١ ، ونشأ يتيماً بعد وفاة أبيه وأمه ، وقال الشعر ولما يزل طالبا في المدرسة . عمل في بداية حياته في حقل المحاماة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية ، وتخرج منها عام ١٨٩١ . طرد من الجيش ، ثم أعيد اليه ، ثم عمل بعد نهاية خدمته العسكرية محرراً في صحيفة الأهرام . عين رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية عام ١٩١١ ، وبقي كذلك حتى توفي عام ١٩١٦ . لقب بشاعر النيل . من آثاره : (ديوان حافظ / جزآن) و (البؤساء / مترجم) و (ليالي سطيح) و (كتيب في الاقتصاد) و (التربية الأولية / مدرسي مترجم) .

أيَهْجُرُني قومي - عفا الله عنهم - إلى لغة لم تتصل برواة ؟

سَرَتْ لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

إلى معشر الكُتّاب والجمع حافل بَسَطْتُ رجائي بعد بَسْطِ شكاتي

فإما حياة تبعثُ الميت في البلى وتنبتُ في تلك الرموس رفاتي

وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يُقَسْ بممات

ديوان حافظ ابراهيم

عمر المختار(١)

أحمد شوقي*

رَكَـزوا رفـاتـكَ فـي الـرمـال لـواء	يستنهض الوادي صباحَ مساء
يا ويحهم ! نَصَبوا مناراً من دم	توحي الى جيل الغد البغضاء
ما ضَرَّ لو جعلوا العلاقة في غد	بين الشعوب مودةً وإخاء ؟
جرح يصيح على المدى ، وضحية	تتلمس الحرية الحمراء
يأيها السيف المجرد بالفلا	يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحارى غمد كل مهند	أبلى فأحسن في العدو بلاء
وقبور موتى من شباب أمية	وكهولهم لم يبرحوا أحياء
لولاذ بالجوزاء منهم معقل	دخلوا على أبراجها الجوزاء
فتحوا الشمال : سهوله وجباله	وتوغلوا ، فاستعمروا الخضراء
وبنوا حضارتهم ، فطاول ركنها	(دار السلام) ، و (جلّق) الشماء(٢)

* * *

خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ المبيتَ على الطوى	لم تَبْنِ جاهاً ، أو تلم ثراء
إنّ البطولة أنْ تموتَ من الظما	ليس البطولة أنْ تَعُبَّ الماء
أفريقيا مهد الأسود ولحدها	ضجت عليك أراجلاً ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم	لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم	يبكون زيد الخيل والفلحاء(٣)

* * *

---

* أحمد شوقي : هو أحمد بن علي بن أحمد شوقي . ولد في القاهرة عام ١٨٦٨ ، وقد لقب بأمير الشعراء ، درس في بعض المدارس الحكومية ، وعمل مدة عامين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، ثم سافر الى فرنسا عام ١٨٨٧ ، وتابع هناك دراسة الحقوق ، وعاد سنة ١٨٩١ الى مصر ، فعين في ديوان الخديوي حلمي ، ومثل الحكومة المصرية سنة ١٨٩٦ في مؤتمر المستشرقين في جنيف . نفي من مصر الى اسبانيا عام ١٩١٥ وأقام هناك الى أن عاد الى مصر في أواخر عام ١٩١٩ حتى توفي فيها عام ١٩٣٢ . من آثاره : ديوانه (الشوقيات / أربعة أجزاء) و (دول العرب) و (مصرع كيلوباتره / قصة شعرية) و (مجنون ليلى / مسرحية شعرية) و (قمبيز) و (علي بك) و (علي بك الكبير) و (عذراء الهند) .

(١) عمر المختار : ليبي من الأسرة السنوسية – قاتل الطليان وناضل ضدهم دفاعا عن القيم الاسلامية والعربية وعن استقلال وحرية بلاده . أعدمه الطليان شنقا سنة ١٩٣١ وكان يناهز التسعين

(٢) دار السلام : بغداد . جلق : دمشق

(٣) زيد الخيل : اسم فارس عربي ، الفلحاء : عنترة العبسي

في ذمة الله الكريم وحفظه ... جسد (ببرقة) وُسِّدَ الصحراء[٤]

لم تُبْقِ منه رحى الوقائع أعْظُما ... تبلى ، ولم تُبْقِ الرماح دماء

كرفات نسر أو بقية ضيغم ... باتا وراء السافيات هباء

بطل البداوة لم يكن يغزو على ... « تنك » ، ولم يك يركب الاجواء[٥]

لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من اعرافها الهيجاء

* * *

لَبّى قَضاءَ الأرضِ أمسِ بِمُهْجةٍ ... لم تَخْشَ إلاّ للسَّماءِ قضاء

وافاهُ مرفوعَ الجبين كأنه ... سُقْراط جُرَّ الى القضاة رداء

شيخ تمالك سِنُّه لم ينفجر ... كالطفل من خوف العقاب بكاء

وأخو أمورٍ عاشَ في سرائها ... فتَغَيَّرَتْ ، فتوقع الضراء

الأسْدُ تزأر في الحديد ولن ترى ... في السجن ضرغاما بكى استخذاء

واني الأسير يجر ثقل حديده ... أسد يجرر حية رقطاء

عضت بساقيه القيودُ فلم ينُؤْ ... ومشت بهيكله السنون فناء

تسعون لو ركِبَتْ مناكبَ شاهقٍ ... لترجلت هضباته إعْياء[٦]

خفيت عن القاضي ، وفات نصيبها ... من رفق جند قادة نبلاء

والسن تعصف كل قلب مهذب ... عرف الجدود ، وأدرك الابناء

* * *

دفعوا الى الجلاد أغْلَبَ ماجداً ... يأسو الجراح ، ويطلق الاسراء

ويشاطر الأقرانَ ذُخْرَ سلاحه ... ويَصُفُّ حَوْلَ خوانه الاعداء

وتَخَيَّروا الحَبْلَ المهينَ مَنيَّةً ... لليث يلفظ حوله الحوباء

حرموا الممات على الصوارم والقنا ... مَنْ كان يعطي الطعنة النجلاء

إني رأيت يد الحضارة أولعت ... بالحق هدما تارة وبناء

شرعت حقوق الناس في أوطانهم ... إلاّ اباة الضيم والضعفاء

* * *

يأيها الشعب القريب ، أسامعٌ ... فأصوغ في عمرَ الشهيد رثاء ؟

---

(٤) برقة : المنطقة الشرقية من ليبيا . اشتهرت بوقائعها الحربية بين الطليان والعرب

(٥) تنك : يقصد الدبابة المستعملة في الحروب

(٦) تسعون : يقصد سنه حين قبض عليه

أَمْ أُلْجِمتْ فاكَ الخطوبُ وحرَّمَتْ ... أُذُنَيْكَ حين تخاطَب الإصغاءُ؟
ذهبَ الزعيمُ وأنتَ باقٍ خالدٌ ... فانقد رجالَك، واخترِ الزعماء
وأرِحْ شيوخَك من تكاليف الوغى ... واحمِلْ على فتيانِك الأعباء

الشوقيات

وقال محمود سامي البارودي* بعد وصوله الى جزيرة (سرنديب) وقد رأى ابنته الوسطى (سميرة) في المنام

تأوّبَ طيفٌ من « سميرةَ » زائرُ ... وما الطّيْفُ إلاّ ما تُريه الخَواطِرُ
طَوى سدفةَ الظَّلْماءِ ، والليلُ ضاربٌ ... بأرواقه ، والنَّجْم بالأفْق حائر
فيا لَكَ من طيفٍ أَلَمَّ ودونه ... مُحيطٌ من البحر الجنوبي زاخر[1]
تَخَطّى إليَّ الارضَ وجْداً ، وما له ... سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
أَلَمَّ ، ولم يلبثْ ، وسارَ ، ولَيْتَه ... أقامَ ولو طالتْ عليَّ الدياجِر
تَحمَّلَ أهْوالَ الظَّلامِ مُخاطِراً ... وعهدي بمَنْ جادَتْ به لا تُخاطر
خماسيةٌ ، لم تَدْرِ ما الليلُ والسُّرى ... ولم تنحسرْ عن صفحتيها الستائر
عقيلةُ أتْرابٍ تَوالَيْنَ حولها ... كما دار بالبدر النجوم الزواهر
غوافلُ لا يَعْرِفْنَ بؤسَ مَعيشةٍ ... ولا هُنَّ بالخطبِ الملمِّ شواعر
تَعوَّدْنَ خفضَ العيشِ في ظلِّ والدٍ ... رحيمٍ ، وبيت شيدتْه العناصر
فَهُنَّ كعنقودِ الثريا ، تألّقتْ ... كواكبُهُ في الأفق ، فهي سوافر
تمثلها الذكرى لعيني ، كأنني ... اليها على بُعْدٍ من الأرضِ ناظر
فطورا إخال الظن حقا ، وتارة ... أهيمُ ، فتغشى مقلتي السمادر
فيا بُعد ما بيني وبين أحبتي ... ويا قُرْبَ ما التفتْ عليه الضمائر !
ولولا أماني النفس وهي حياتها ... لما طار لي فوق البسيطة طائر
فانْ تَكُن الايام فَرّقْنَ بيننا ... فكل امرىء يوما الى الله صائر
هي الدار ؛ ما الانفاس إلا نهائب ... لديها ، وما الأجسام الا عقائر
اذا أحْسَنَتْ يوماً اساءَتْ ضُحى غد ... فإحسانُها سيف على الناس جائر
ترب الفتى ، حتى اذا تَمَّ أمره ... دَهَتْهُ ، كما رب البهيمة جازر

* محمود سامي البارودي : ولد في القاهرة عام ١٨٣٩ ، وتوفي فيها عام ١٩٠٤ . درس في المدرسة الحربية ، وكان قائداً لحملتين عسكريتين وجهتا لمساندة تركيا . تقلب في عدة مناصب انتهت به الى أن يصبح رئيساً للنظار . شارك في الثورة العرابية التي اندلعت في مصر ، فاعتقله الانكليز ، ثم نفوه الى جزيرة سيلان ، ثم صدر عفو عنه ، فعاد الى مصر عام ١٨٩٩ بعد أن قضى في المنفى سبعة عشر عاماً . له ديوان شعر من جزئين و (مختارات البارودي) .

(١) البحر الجنوبي : المحيط الهندي

لهـا تـرة فـي كـل حـي ، ومـا لـهـا   على طول ما تجني على الخلق واتر
كـثـيـرةُ ألْوانِ الـوداد ، مـلـيـة   بأن يتوقاها القرين المعاشر
فَمَن نظر الدنيا بحكمةِ ناقد   درى أنها بين الانام تقامر
صَبرتُ على كرهٍ لما قد أصابَني   ومَن لم يجدْ مندوحة فهو صابر
وما الحِلم عندَ الخطبِ والمرءُ عاجزٌ   بمستحسَن كالحِلم والمرءُ قادر
ولكن إذا قلّ النصيرُ ، واعوزَتْ   دواعي المُنى – فالصبرُ فيه المعاذر
فلا يشمتُ الاعداءُ بي ، فلربما   وصلتُ لما أرجوه مما أحاذرُ
فقد يستقيمُ الأمرُ بعد اعْوِجاجِهِ   وتنهض بالمرء الجدودُ العواثر
ولي أمَلٌ في الله تحيا به المنى   ويشرقُ وجهُ الظن والخطب كاشر
وطيد ، يزل الكيد عنه ، وتنقضي   مجاهدةُ الايامِ وهو مثابر
اذا المرءُ لم يركنْ الى الله في الذي   يحاذره من دهرِهِ فهو خاسر
وإنْ هو لم يصْبر على ما أصابَهُ   فليس له في معرضِ الحقِّ ناصر
ومَن لم يَذُقْ حُلوَ الزمانِ ومره   فما هو الا طائشُ اللبِّ نافر
ولولا تكاليف السيادة لم يخب   جبانٌ ، ولم يَحْوِ الفضيلةَ ثائر
تقلُّ دواعي النفس وهي ضعيفةٌ   وتقوى همومُ القلب وهو مغامر
وكيف يبين الفضلُ والنقصُ في الورى   إذا لم تكنْ سوم الرجالِ المآثر ؟
وما حَملَ السَّيْفَ الكميُّ لزينة   ولكن لأمر أوْجَبَتْهُ المفاخر
إذا لم يكنْ إلاّ المعيشة مطلبٌ   فكل زهيد يُمْسكُ النفسَ جابر
فلولا العُلا ما أرْسَلَ السهمَ نازعٌ   ولا شهر السيفَ اليمانيَّ شاهر
من العار أنْ يرضى الدنيةَ ماجدٌ   ويقبل مكذوبَ المنى وهو صاغر
إذا كنتَ تخشى كلَّ شيءٍ من الردى   فكلُّ الذي في الكون للنفسِ ضائر
فمن صحة الانسان ما فيه سقمه   ومن أمنه ما فاجأته المخاطر
عليّ طلاب العز من مستقره   ولا ذنب لي ان عارضَتْني المقادر
فما كل محلول العريكة خائبٌ   ولا كل محبوك التريكة ظافر
فماذا عسى الأعداء ان يتقولوا   عليّ ، وعرضي ناصح الجيب وافر ؟
فلي في مراد الفضلِ خير مغبة   إذا شان حيا بالخيانة ذاكر
ملكتُ عقابَ الملكِ وهي كسيرة   وغادرتها في وكرِها وهي طائر

ولو رمتُ ما رامَ امرؤ بخيانة … لصبّحني قسط من المال غامر

ولكنْ أبَتْ نفسي الكريمة سوأةً … تُعاب بها ، والدهرُ فيه المعاير

فلا تحسبن المالَ ينفعُ ربَّه … إذا هو لم تحمد قراه العشائر

فقد يستجم المال والمجد غائب … وقد لا يكون المال والمجد حاضر

ولو أنَّ أسبابَ السيادة بالغنى … لكاثَرَ ربَّ الفضل بالمال تاجر

فلا غرو إنْ حُزْتُ المكارمَ عارياً … فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر

انا المرء لا يثنيه عن درك العلا … نعيمٌ ، ولا تعدو عليه المفاقر

قئولٌ واحلامُ الرجالِ عوازبٌ … صئولٌ وأفواهُ المنايا فواغر

فلا أنَا إن أدْناني الوجد باسم … ولا أنا إن أقصاني العدم باسر

فما الفقر إنْ لم يدنس العرض فاضح … ولا المال إنْ لم يشرف المرء ساتر

إذا ما ذباب السيفِ لم يكُ ماضيا … فحليته وصم لدى الحرب ظاهر

فإنْ كنت قد أصبحت فل رزية … تقاسمها في الأهل باد وحاضر

فكم بطل فلَّ الزمانُ شباته … وكم سيدٌ دارتْ عليه الدوائر

وأيُّ حسامٍ لم تُصبْه كلالة ؟ … وأيُّ جوادٍ لم تَخُنْهُ الحوافر ؟

فسوف يبين الحق يوماً لناظر … وتنزو بعوراء الحقود السرائر

وما هي الا غمرة ، ثم تنجلي … غيابتها ، والله من شاء ناصر

فقد حاطني في ظلمة الحبس ، بعدما … ترامت بافلاذ القلوب الحناجر

فمهلا بني الدنيا علينا ، فإننا … الى غاية تنفت فيها المرائر

تطول بها الأنفاس بُهْراً ، وتلتوي … على فلكة الساقين فيها المآزر

هنالك يعلو الحق ، والحقُّ واضحٌ … ويسفل كعب الزور ، والزورُ عاثر

وعما قليل ينتهي الأمرُ كله … فما أوَّلٌ إلاّ ويتلوه آخر

ديوان محمود سامي البارودي

اِرادة الحياة

أبو القاسم الشابي*

اذا الشعبُ يوماً أراد الحياة   فلا بُدَّ أنْ يستجيب القدرْ
ولا بد لليل أنْ ينجلي   ولا بد للقيد أنْ ينكسر
ومَن لم يعانقه شوقُ الحياةِ   تَبَخَّرَ في جوها ، واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة   من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات   وحدثني روحها المستتر

* * *

ودمدمتْ الريح بين الفجاج   وفوق الجبال وتحت الشجر :
« اذا ما طمحتُ الى غاية   ركبتُ المنى ، ونسيتُ الحذر »
« ولم أتجنبْ وعور الشعاب   ولا كبة اللهيب المستعر »
« ومَن لا يحب صعودَ الجبالِ   يَعِشْ أبَدَ الدهرِ بين الحُفَر »
فعجتْ بقلبي دماءُ الشباب   وضجتْ بصدري رياح أُخَر..
وأطرقتُ ، أصغي لقصف الرعود   وعزف الرياح ، ووقع المطر
وقالت لي الأرض – لما سألت :« أيا أمّ هل تكرهين البشر »؟:
« أبارك في الناس أهلَ الطّموح ومَن يستلذ ركوبَ الخطر »
« وألْعَنُ مَن لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر »
« هو الكون حي ، يحبُ الحياةَ ويحتقرُ الميتَ ، مهما كبر »
« فلا الأفقُ يحضنُ ميتَ الطيور ، ولا النحلُ يلثمُ ميتَ الزهر »
« ولولا أمومة قلبي الرؤوم لما ضَمَّتْ الميّت تلك الحفر »
« فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر ! »

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف مثقلة بالأسى والضَجَرْ

---

* أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشابي : شاعر من تونس ، ولد عام ١٩٠٦ ، ومات عام ١٩٣٤ وهو في ريعان الشباب . درس في المعهد الزيتوني بتونس وتخرج من مدرسة الحقوق التونسية . له ديوان شعر، وكتاب (الخيال الشعري عند العرب) و (أثار الشابي) و (مذكرات)

سكرتُ بها من ضياء النجوم وغنيتُ للحزن حتى سكِرْ
سألتُ الدجى : هل تعيد الحياة لما أذبلَتْهُ ربيعُ العمر ؟
فلم تتكلم شفاهُ الظلام ولم تترنمْ عذارى السحر
وقال لي الغابُ في رقةٍ محببةٍ مثل خفقِ الوتر :
« يجيءُ الشتاءُ ، شتاءُ الضباب شتاءُ الثلوجِ ، شتاءُ المطر »
« فينطفىءُ السحرُ ، سحرُ الغصونِ ، وسحرُ الزهورِ وسحرُ الثمر »
« وسحرُ السماءِ الشجيِ ، الوديعِ ، وسحرُ المروجِ الشهيِ ، العَطِرْ »
« وتهوي الغصونُ ، وأوراقُها ، وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نَضِر »
« وتلهو بها الريحُ في كل وادٍ ، ويدفنها السيلُ ، أنّى عَبَر »
« ويفنى الجميعُ كحلمٍ بديعٍ ، تألقَ في مهجةٍ واندثر »
« وتبقى البذورُ ، التي حملتْ ذخيرةَ عمرٍ جميلٍ ، غَبَر »
« وذكرى فصولٍ ، ورؤيا حياةٍ وأشباحُ دُنيا ، تلاشت زُمَر »
« معانقةً – وهي تحت الضباب ، وتحت الثلوجِ ، وتحت المدَرْ »
« لِطَيْفِ الحياةِ الذي لا يُمَلْ ، وقلبِ الربيعِ الشذي الخضر »
« وحالمةً بأغاني الطيورِ ، وعطرِ الزهورِ ، وطعمِ الثَمَر »

* * *

« ويمشي الزمانُ ، فتنمو صروفٌ ، وتذوي صروفٌ ، وتَحْيا أُخَرْ »
« وتصبحُ أحلامها يقظةً ، موشحةً بغموضِ السحَر »
« تسائل : أينَ ضَبابُ الصباح ؟ وسحرُ المساءِ ؟ وضوءُ القَمَر ؟ »
« وأسرابُ ذاكَ الفَراش الأنيق ؟ ونحلٌ يغني ؟ وغيمٌ يمُر ؟ »
« وأينَ الاشعةُ والكائناتُ ؟ وأين الحياةُ التي انتظر ؟ »
« ظمئت الى النور ، فوقَ الغصونِ ! ظمئت الى الظل تحتَ الشجر ! »
« ظمئت الى النبعِ ، بين المروجِ يغني ، ويرقُصُ فوقَ الزَّهَر ! »
« ظمئت الى نغماتِ الطيورِ ، وهمسِ النسيمِ ، ولحنِ المطَرْ »
« ظمئت الى الكونِ ! أينَ الوجود وَأنّى أرى العالمَ المنتظر ؟ »
« هو الكونُ ، خلفَ سباتِ الجمودِ ، وفي أفقِ اليقظاتِ الكُبَر »

* * *

« وما هو إلاّ كخفقِ الجناحِ حتّى نما شوقُها وانتَصَرْ »
« فصدعتْ الارضُ من فوقها وأبصرت الكون عذب الصور »
« وجاءَ الربيعُ بأنغامِهِ ، وأحلامِهِ ، وصباه العَطِرْ »
« وقبلها قُبَلاً في الشفاهِ ، تُعيدُ الشبابَ الذي قد غَبَر »
« وقال لها : قد منحت الحياة ، وخلدت في نسلكِ المدخر »
« وباركَكِ النورُ ، فاستقْبلي شبابَ الحياةِ وخصب العمر »
« ومَن تعبد النور أحلامهُ ، يباركه النورُ أنّى ظهر »
« اليك الفضاء ، اليك الضياء ، اليك الثرى الحالم ، المزدهر ! »
« اليك الجمال الذي لا يَبيد ! اليكَ الوجود الرحيب ، النضر ! »
« فميدي - كما شئت - فوقَ الحقولِ ، بحلو الثمارِ وغضِّ الزهر »
« وناجي النسيمَ وناجي الغيومَ ، وناجي النجومَ ، وناجي القمَرْ »
« وناجي الحياةَ وأشْواقَها ، وفتنةَ هذا الوجودِ الأغَرْ »

* * *

« وشَفَّ الدُّجى عن جَمالٍ عميق يشب الخيالَ ، ويذْكي الفِكَر »
« ومُدَّ عَلى الكونِ سحرٌ غريبٌ ، يصرفه ساحرٌ مقتَدِر »
« وضاعتْ شمُوعُ النجومِ الوِضاءِ ، وضاعَ البخورُ ، بخور الزهر »
« ورفرفَ روحٌ غريبُ الجَمال بأجنحةٍ مِنْ ضياءِ القمَرْ »
« ورنَّ نشيدُ الحياةِ المقدّسِ في هيكلٍ حالِمٍ ، قد سُحِر »
« وأعْلِنَ في الكونِ : انّ الطموحَ لَهيبُ الحياةِ ، وروح الظَّفَرْ »
« إذا طمحتْ للحياةِ النفوسُ فلا بُدَّ أنْ يستجيبَ القَدَر ؟ »

يوميات جرح فلسطيني
مهداة إلى فدوى طوقان

محمود درويش*

- ١ -

نحن في حلٍّ من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى أهدابِنا عشبُ الجليل
لا تقولي : ليتنا نركض كالنهر اليها ،
لا تقولي !
نحن في لحم بلادي .. هي فينا !

- ٢ -

لم نَكُنْ قبل حزيرانٍ كأفراخ الحمام
ولذا ، لم يتفتت حبُّنا بين السلاسل
نحنُ ، يا أختاه ، من عشرين عام
نحن لا نكتب أشعاراً ،
ولكنّا نقاتل .

- ٣ -

ذلك الظل الذي يسقط في عينيك
شيطانُ إله
جاء من شهر حزيران
لكي يعصبَ بالشمسِ الجباه
انه لونُ شهيد
انه طعمُ صلاة
انه يقتل أو يحيي ،
وفي الحالين : آه !

- ٤ -

أول الليل على عينيك ، كان
في فؤادي ، قطرة من آخر الليل الطويل
والذي يجمعنا ، الساعة ، في هذا المكان
شارع العودة
من عصر الذبول .

- ٥ -

صوتُك الليلة ،
سكينٌ وجرحٌ وضماد
ونعاسٌ جاء من صمتِ الضحايا
أين أهلي ؟
خرجوا من خيمة المنفى ،
وعادوا مرة أخرى سبايا !

- ٦ -

كلماتُ الحبِّ لم تصدَأ ، ولكن الحبيب واقعٌ
في الاسر - يا حبي الذي حملني
شرفاتٍ خلعتها الريحُ ..
أعتاب بيوت
وذنوب .
لم يَسَعْ قلبي سوى عينيك ،
في يوم من الأيام ،

* محمود درويش : شاعر من فلسطين ، ولد عام ١٩٤٢ في فلسطين ، وقد هدم الصهاينة قريته وأقاموا فوقها مستوطنة صهيونية . كان من أبرز شعراء المقاومة في الأرض المحتلة ، ثم غادر فلسطين ، والتحق في صفوف المقاومة الفلسطينية . له آثار شعرية عديدة منها : (عصافير بلا أجنحة) و (عاشق من فلسطين) و (محاولة رقم ٧) وغير ذلك .

والآن أغْنَتني بالوطن !

– ٧ –

وعرفنا ما الذي يجعل صوت القُبَّره
خنجرا يلمع في وجه الغزاه
وعرفنا ما الذي يجعل صمت المقبره
مهرجانا .. وبساتين حياه !

– ٨ –

عندما كُنْت تُغَنين ، رأيت الشرفات
تهجر الجدرَان
والساحة تمتد الى خصر الجبل
لم نكن نسمع موسيقى ،
ولا نبصر لونَ الكلمات
كان في الغرفة مليون بطل !

– ٩ –

في دمي ، من وجهه ، صيف
ونبضٌ مستعار .
عدتُ خجلان الى البيت ،
فقد خَرَّ على جرحي .. شهيدا
كان مأوى ليلة الميلاد ،
كان الانتظار
وأنا أقطفُ مِن ذكراه .. عيدا !

– ١٠ –

الندى والنار عيناه ،
إذ ازددتُ اقترابا منه غنى
وتبخرت على ساعده لحظة صمت ، وصلاه
آه سميه كما شئت شهيدا
انه أجمل منا
غادر الكوخ فتى
ثم أتى ، لما أتى

وجـه إلـه !

– ١١ –

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء
تَعِدُ الصيفَ بقمح وكواكب
فاعبديها !
نحن في احشائها ملح وماء
وعلى أحضانها جرح .. يحارب

– ١٢ –

دمعتي في الحلق ، يا أخت ،
وفي عيني نار
وتحررت من الشكوى على باب الخليفة
كل من ماتوا
ومن سوف يموتون على باب النهار
عانقوني ، صنعوا مني .. قذيفة !

– ١٣ –

منزل الأحباب مهجور ،
ويافا ترجمت حتى النخاع
والتي تبحث عني
لم تجد مني سوى جبهتها
أتركي لي كل هذا الموت ، يا أخت ،
أتركي هذا الضياع
فأنا أضفره نجماً على نكبتها !

– ١٤ –

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق .. والأرض حبيبة !

– ١٥ –

وإذا استرسلتُ في الذكرى !
نما في جبهتي عشب الندم
وتحسرتُ على شيء بعيد
وإذا استسلمتُ للشوق ،
تبينت أساطير العبيد
وأنا آثرتُ أنْ أجعل من صوتي حصاة
ومن الصخر نغم !

– ١٦ –

جبهتي لا تحمل الظل ،
وظلي لا أراه
وأنا أبصق في الجرح الذي
لا يشعل الليل جباه !
خبئي الدمعة للعيد
فلن نبكي سوى من فرح
ولنُسَمِّ الموت في الساحة
عرسا ، وحياة !

– ١٧ –

وترعرعتُ على الجرح ، وما قلت لأمي
ما الذي يجعلها في الليل خيمة
أنا ما ضيعت ينبوعي وعنواني وإسمي
ولذا أبصرتُ في أسمالها
مليون نجمة !

– ١٨ –

رايتي سوداء ،
والميناء تابوت
وظهري قنطره
يا خريف العالم المنهار فينا
يا ربيع العالم المولود فينا
زهرتي حمراء ،
والميناء مفتوح
وقلبي شجرة !

– ١٩ –

لغتي صوت خرير الماء
في نهر الزوابع
ومرايا الشمس والحنطة
في ساحة حرب
ربما أخطأتُ في التعبير أحياناً
ولكنْ كنتُ – لا أخجل – رائع
عندما استبدلتُ بالقاموس قلبي !

– ٢٠ –

كان لا بد من الأعداء
كي أعرف أنّا توأمان !
كان لا بد من الريح
لكي نسكن جذع السنديان
ولو أنّ السيد المصلوب لم يكبر على عرش
الصليب ظل طفلا ضائع الجرح ..
جبـــان !

– ٢١ –

لك عندي كلمة
لم أقلها بعد ،
فالظلُّ على الشرفة يحتلُّ القمر
وبلادي ملحمة
كنتُ فيها عازفا .. صرْتُ وتر !

– ٢٢ –

عالم الآثار مشغول بتحليل الحجارة
إنه يبحث عن عينيه في ردم الأساطير
لكي يثبت أني :

عابر في الدرب لا عينين لي !
لا حرف في سفر الحضارة !
وأنا أزرع أشجاري ، على مهلي ،
وعن حبي أغني !

- ٢٣ -

غيمة الصيف التي .. يحملها ظهر الهزيمة
علّقت نسل السلاطين
على حبل السراب
وأنا المقتول والمولود في ليل الجريمة
ها أنا ازددتُ التصاقاً .. بالتراب !

- ٢٤ -

آن لي أنْ أبدل اللفظة بالفعل ، وآن
لي أنْ أثبتَ حبي للثرى والقبره
فالعصا تفترس القيثار في هذا الزمان
وأنا أصفرُّ في المرآة ،
مذ لاحت ورائي شجره !

أنشودة المطر

بدر شاكر السياب*

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السَحَرْ ،
أو شرفتانِ راحَ يَنأى عنهما القمَرْ
عيناكِ حين تَبسمانِ تورقُ الكرومْ
وترقصُ الأضواءُ .. كالأقمارِ في نهر
يرجه المجذافُ وَهْناً ساعةَ السَّحَرْ
كأنما تنبض في غوريهما ، النجومْ ..
وتغرقان في ضباب من أسىً شفيف
كالبحرِ سرحَ اليدينِ فوقَهُ المساءْ ،
دفءُ الشتاءِ فيه وارتعاشةُ الخريفْ ،
والموتُ ، والميلادُ ، والظلامُ والضياءْ ؛
فتستفيق ملء روحي ، رَعْشَةُ البُكاءْ
ونشوةٌ وحشيةٌ تعانقُ السَّماءْ
كنشوةِ الطفلِ إذا خافَ من القَمَرْ !
كأنَّ أقواسَ السحابِ تشربُ الغيومْ
وقطرة فقطرة تذوبُ في المطر ..
وكركرَ الأطفالُ في عرائشِ الكرومْ ،
ودغدغتْ صمتَ العصافيرِ على الشجرْ
انشودةُ المطرْ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..

---

* بدر شاكر السياب : ولد في قرية جيكور من لواء البصرة في العراق عام ١٩٢٦ . عرفت عنه غزارة الانتاج الشعري ، ويعتبر من رواد التجديد في الشعر العربي الحديث . من أعماله الشعرية (أزهار ذابلة) و (أزهار وأساطير) و (أساطير) و (أنشودة المطر) و (المعبد الغريق) و (المومس العمياء) كما نشر (قصائد مختارة من الشعر العالمي الحديث) و (مختارات من الأدب الحديث) . أصيب بمرض السل ، وتوفي في الكويت عام ١٩٦٤ .

مطرٌ ..
تثاءبَ المساءُ ، والغيومُ ما تزالْ
تسحُّ ما تسحُّ من دموعِها الثِّقالْ .
كأنَّ طفلاً باتَ يهذي قبلَ أنْ يَنامْ :
بأنّ امَّه – التي أفاقَ منذُ عام
فلم يَجدْها ، ثم حين لجَّ في السؤالْ
قالوا له : « بَعْدَ غدٍ تعود .. »
لا بد أنْ تعودْ
وان تهامس الرفاق انها هناك
في جانب التل تنامُ نومةَ اللحودْ
تسفُّ منْ تُرابِها وتشرَبُ المطر ؛
كأنَّ صياداً حزيناً يجمعُ الشِّباك
ويلعنُ المياهَ والقدَرْ
وينثُرُ الغناء حيث يأفل القمَرْ
مطرٌ ..
مطرٌ ..
أتعلمين أيّ حزنٍ يبعثُ المَطَرْ ؟
وكيفَ تنشج المزاريبُ إذا انهمَرْ ؟
وكيفَ يشعرُ الوحيدُ فيه بالضياع ؟
بلا انتهاء – كالدمِ المراقِ ، كالجياعِ ،
كالحبِ ، كالأطفالِ ، كالموتى – هو المطر !
ومقلتاكِ بي تُطيفانِ معَ المطر
وعبرَ أمواجِ الخليجِ تمسحُ البروق
سواحل العراقِ بالنجومِ والمحار ،
كأنها تهمُّ بالشروقِ
فيسحبُ الليلُ عليها من دَمٍ دثار
أصيحُ بالخليج : « يا خليج

يا واهبَ اللؤلؤِ ، والمحارِ ، والردى ! »
فيرجعُ الصَّدى
كأنه النشيج :
« يا خليج
يا واهبَ المحارِ والرَّدى .. »
أكادُ أسمعُ العراقَ يذخر الرعود
ويخزنُ البروقَ في السهولِ والجبالِ ،
حتى إذا ما فَضَّ عنها خَتْمَها الرجال
لم تتركْ الرياح من ثمود
في الواد من أثَرْ
أكادُ أسمعُ النخيلَ يشربُ المطر
وأسمعُ القُرى تئنُّ ، والمهاجرين
يصارعونَ بالمجاذيفِ وبالقلوع ،
عواصفَ الخليج ، والرعود ، منشدين :
« مطرٌ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..
وفي العراقِ جوعٌ
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبعَ الغربانُ والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول .. حولها بشر
مطرٌ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..
وكم ذرفنا ليلةَ الرحيلِ ، من دموع
ثم اعتَلَلْنا - خوف أن نُلام - بالمطر .

مطرٌ ..
مطرٌ ..
ومنذ أنْ كنا صغاراً ، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطلُ المطر ،
وكل عام – حين يُعْشِبُ الثَّرى – نجوعْ
ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوع
مطرٌ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنّة الزَّهَر
وكل دمعةٍ من الجياعِ والعراة
وكل قطرةٍ تراقُ من دَمِ العَبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مَبْسم جديد
أو حلمة تَوَرَّدَتْ على فمِ الوليد
في عالم الغدِ الفتيِّ ، واهبِ الحياة !
مطرٌ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..
سَيُعْشِبُ العراقُ بالمطر .. »
أصيحُ بالخليج : « يا خليج
يا واهبَ اللؤلؤِ ، والمحارِ والردى ! »
فيرجعُ الصَّدى
كأنَّه النَّشيج
« يا خليج
يا واهبَ المحار والردى »

وينثُرُ الخليج من هِباتِه الكِثار
على الرِّمال : رَغْوَه الاجاج ، والمحار
وما تَبقّى من عِظام بائس غريق
من المهاجرين ظلَّ يشربُ الردى
من لجَّة الخليج والقرار ،
وفي العراق ألفُ أفْعى تشربُ الرَّحيقْ
من زهرةٍ يربها الفراتُ بالندى
واسمعُ الصَّدى
يرنُّ في الخليج
« مطرٌ ..
مطرٌ ..
مطرٌ ..
في كلِّ قطرة من المَطرْ
حمراء أو صفراء من أجِنَّة الزهر
وكل دمعةٍ من الجياعِ والعراة
وكل قطرةٍ تُراقُ من دَمِ العَبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مَبْسم جديد
أو حلمة تورَّدَتْ على فمِ الوَليدْ
في عالَمِ الغَدِ الفَتيِّ ، واهب الحياة »
ويهطلُ المطَرْ ..

صدر للمؤلف :

١ - وكالة المخابرات المركزية والارهاب الدولي (مترجم). الطبعة الأولى . (نفدت) ١٩٨٧.

٢ - السي . آي . ايه / السجل الأسود (مترجم) الأهلية للنشر والتوزيع . عمان ١٩٨٩.

٣ - صائد الجواسيس (مترجم) الأهلية للنشر والتوزيع . عمان ١٩٨٩.

٤ - السي .آي . ايه / كلاب الحرب (مترجم) الأهلية للنشر والتوزيع . عمان ١٩٩٠.

٥ - من روائع الأدب العربي . الطبعة الأولى . عمان (نفدت) ١٩٨٨ .

٦ - مسرحية : بستان الكرز / انطون تشيخوف (مترجم) دار النسر . عمان ١٩٨٩.

٧ - مسرحية : الانسان والأسلحة / جورج برنارد شو (مترجم) دار النسر. عمان ١٩٩٠.

تحت الطبع :

١ - الوجيز في تاريخ الأدب الأمريكي (مترجم)

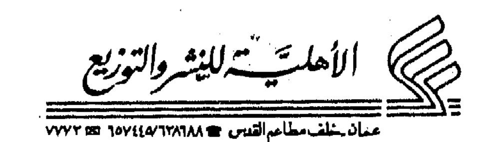
٢ - قصة : أفول القمر / جون شتاينبك

قيد الاعداد :

١ - دليل القاريء الى الأدب الأردني .

الفهرس

من روائع الأدب العربي



الشركة الجديدة للطباعة والتجليد